المشير اللورد مونتغمري

السبيل إلى القيادة

ترجمة

العميد الركن حسن مصطفى

ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه

منشورات دار الطليعة

السَّبيلُ إلى القِيادَة

الطبعة الأولى
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

لقد أعجبت بهذا الكتاب اعجاباً شديداً عندما قرأته قبـــل نيف واربع سنوات. فعزمت على ترجمته الى العربية لأنه قيّم ، فريد في بابه تفتقر إلى مثـله مكتبتنا العربية .

إن مؤلف هذا الكتاب المشير مونتغمري غني عن التعريف . وقـد قضى معظم حياته العسكرية قــائداً . بدأ بقيادة فصيل مشاة في الحرب العالمية الأولى ، وتولىّ بعدئذ قيادة القطعات بالتسلسل حــتى انتهى في أواخر الحرب العالمية الثانية ، قائداً لجحفل جيش مؤلف من مجموعة جيوش يربو عدد أفرادها على مليوني جندي . وهكذا فانه تعلمّ متعة القيادة العسكرية عملياً خلال خمسين سنة قضاها في الخدمة العسكرية . وقد أصبح بعد الحرب العالمية الثانية رئيساً لهيئة الأركان الامبراطورية ، فنائباً للقــائد الأعلى لقوات حلف الأطلسي ثم عضواً في مجلس اللوردات البريطاني . فاستطاع بحكم مناصبه هـذه أن يقف على خصائص القيادة في مجالات الحياة الأخرى . وها هو ذا يقدم لنا في كتابه هذا زبدة تجـاربه في القيادة ، وخلاصة مـــا توصّل اليه بنتيجة البحث والدراسة والاتصال الشخصي ، من آراء في أنواع القيادة الأخرى ، كالقيــادة الوطنية

والسياسية والقيادة في الصناعة وقيادة الشبيبة الخ ...

ان الآراء التي أبداها مونتغمري في كتابه ولا سيما حول بعض القادة العسكريين والسياسيين وبعض القضايا السياسية العالمية ، أثارت في حينه نقاشاً شديداً وضجة كبيرة في الأوساط الغربية . ولا غرو فهي آراء صريحة وجريئة لقائد اشتهر بالصراحة والجرأة . وبرغم انني لا أقرّ بعض آرائه ، إلا انني اؤيد ولا شك آراءه الاخرى كلها ، ولا سيما تلك التي لها علاقة بالقيادة ومبادئها في شتى مجالات الحياة . وأظن ان القارىء الكريم سيوافقني على ذلك بعد اتمام قراءة الكتاب .

والحق ان هذا الكتاب قد أظهر مونتغمري على حقيقته ، وليس كما شاء أن يصوّره فريق من الناس. فاننا نلمس فيما كتبه روحاً انسانية طيبة مجرّدة من التحيز والتعصّب الاعمى ، ودعوة الى الخير والفضيلة والتمسّك بالمثل الاخلاقية والمبادىء التي جاءت بها الأديان . كما نرى في كتابه نداءاً الى التقارب بين الشرق والغرب وإلى التعايش السلمي بين المعسكرين وإزالة عوامل الحروب ، وإلى تحقيق السلام العالمي .

ولقد أشار المؤلف في مواضع عديدة من كتابه الى علاقة الفضائل المسيحية بالقيادة وأثرها في تكوين القائد ونجاحه في العالم المسيحي . ومن البديهي ان ما ذكره عن الفضائل المسيحية ينطبق على الفضائل الإسلامية أيضاً . فالتحلّي بهذه أمر ضروري لكل قائد يروم النجاح في عالمنا العربي الاسلامي .

لقد أنجبت الأمة العربية في صدر الاسلام قادة مصلحين واداريين وعسكريين كانوا من أعظم قادة العالم في جميع العصور . وقد تتلمذ هؤلاء على يد رسولنا العظيم محمد بن عبدالله (صلعم) الذي هو بدون شك، أعظم قائد انجبته البشرية في تأريخها . فتخرّجوا من مدرسته الاسلامية وساروا على هداه ، واستمدّوا من فضائل الإسلام القوة والعزم والايمان الذي مكّنهم من حمل رايته ونشر رسالته الخالدة في جميع أرجاء الدنيا المعروفة آنذاك ، وفي خلال مدة بلغت زهاء ثلاثين سنة .

واليوم تمر الأمة العربية في مرحلة ثورية تكاد تشبه تلك التي مرت بها في صدر الاسلام. انها مرحلة خطيرة تنقل العرب من عهد الجمود والتخلف والعبودية الى عهد النهوض والتقدم والتحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، عهد الوعي القومي والوحدة واللحاق بركب الحضارة الانسانية . وان أشد ما تحتاج إليه البلاد العربية في هذه المرحلة الخطيرة من تأريخها ، هو قيادات حقه في جميع مجالات الحياة تستطيع أن تأخذ بيدها وتعالج مشاكلها وتخطط مستقبلها وتبني حياتها الجديدة على أسس قويمة وصالحة ، وتقودها في الطريق السوي الذي يحقق لأبنائها حياة أفضل ، ويعيد لأمتهم مجدها الغابر ومكانتها اللائقة بين أمم الأرض.

ان القيادة الحقة هي التي تجمع بين قوة الكفاية وقوة الأخلاق ، فلا خير في قائد مهما أوتي من الكفاية إن كانت تعوزه الأخلاق . والأخلاق في أساسها تستند على الفضائل الاسلامية والمسيحية وتستمد منها قوتها . ولا أحسب ان قائداً يستطيع النجاح في أي مجالٍ من مجالات الحياة في عالمنا العربي الاسلامي اليوم إذا لم يتحلَّ بالفضائل الإسلامية أو المسيحية .

إن مشاغلي في كتب أخرى قد أخّرت ترجمتي لهذا الكتاب . كما ان اسلوب مونتغمري المعقّد في الكتابة ، واستعماله بعض الكلمات والتعابير الغامضة اضطرني الى اعادة النظر في الترجمة مرتين . ومن جراء هذا التأخّر في ترجمة الكتاب وصدوره باللغة العربية ، طرأ بعض التبدّل على الموقف السياسي العالمي عما كان عليه قبل خمس سنوات . كما ان بعض القادة السياسيين الذين تناولهم المؤلف بالبحث مثل نهرو وتشرشل قد ماتوا ، وزعيماً من زعماء الكتلة الشيوعية البارزين ، وهو خروشيف ، قد نُحّيَ عن منصبه .

على أن ذلك كله لا يقلّل من قيمة هذا الكتاب بأي حالٍ . بل لعله يزيد في أهميته ومتعته من بعض الوجوه . فقد صار في وسعنا الآن ان نقف على مدى صحة آراء مونتغمري السياسية ، وما تنبأ به عند تأليفه هذا الكتاب.

وأخيراً ان موضوع القيادة موضوع هام لكل بلدٍ ولكل أمةٍ وفي كل عصرٍ وزمان. فالقادة هم الذين يصنعون الجيوش ، ويصنعون الأمم ، ويصنعون

الأحداث ويغيرون وجه التـــأريخ. وان أهم الدوافع التي حدت إلى ترجمة هذا الكتاب هو أن أيسّر لقراء العربية مرجعاً قيماً في هذا الموضوع الخطير . فان كنت قد وفـّقت الى مـا أبتغيه فذلك حسبي الله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

بغداد في حزيران ١٩٦٦ **العميد الركن حسن مصطفى**

مقدّمة

لأسباب تتضح للقارىء فيما بعد، سميّت هذا الكتاب «السبيل الى القيادة».
لقد كانت تجربتي العملية في القيادة عسكرية في الغالب، وكانت واسعة النطاق تناولت خمسين سنة من الخدمة الفعّالة غير المنقطعة في الجيش البريطاني.

على أن القيادة لا تقتصر على المجال العسكري فحسب، بل تتناول مجالات أوسع كالمجالات الوطنية والسياسية والصناعية، وليست لي في هذه المجالات خبرة مباشرة. لكنني عرفت ولاحظت عن كثب كثيرين من الممثلين الكبار في هذه المجالات الواسعة، وارى أنه في وسعي الاستعانة بخبرتي ومعلوماتي وملاحظاتي، في محاولتي لكشف المبادىء التي يجب ان تبنى عليها القيادة.

ولقد واجهتنا منذ البداية مشكلة كبيرة واحدة. فالكلمتان «قائد» و«قيادة» تستعملان للتعبير عن معانٍ كثيرة إن لم تكن متباينة. فكثيراً ما نعني بـ«القادة» مجرد الناس الذين وضعهم القدر أو الحظ او الدسائس أحياناً، على رأس بعض الشؤون – دون ان يكون لذلك علاقة بنوع القيادة التي يمارسونها، او درجة تأثيرها في الآخرين، سواء أكان ذلك التأثير حسناً أم سيئاً.

إن غرضي يتجاوز ذلك بمراحل. فإنني اسعى الى كشف ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان قادراً على ممارسة منصبه في رأس الأمور لخير رفاقه. لذلك آمل ان أكون قد تحاشيت، فيما كتبته، الغموض في استعمال الكلمات ولم أسمح لها أبداً ان تخفي الهدف الذي أرمي اليه، وهو التأثير في الآخرين والسيطرة عليهم

لصالحهم ولصالح أطفالهم وأحفادهم .

وقد بحثت في الباب الأول من هذا الكتاب في هذا الهدف العام بطريقة شاملة نوعاً ما . أما في الأبواب التي تليه فإني عالجت القيادة التي مارسها مختلف أنواع الاشخاص الذين جعل منهم العالم قادة ، بحق أو بغير حق . وفي الابواب الأخيرة من الكتاب أمعنت النظر في المبادىء العامة التي ظهرت – إن وجدت .

وإني أشك في ظهور كتاب كهذا من قبل ، فإن كان قد ظهر حقاً فإنني لم أطلع عليه .

ولا شك أن هذا الموضوع تصعب معالجته ، حتى أنني عندما اخبرت صديقاً لي بأنني سأحاول معالجته قال لي : أود أن انصحك نفس النصيحة التي تقدم في الغالب الى رجل يفكر في الزواج الا وهي : « لا تحاول » .

وسواء أكان الموضوع صعباً أم لا ، فقد قررت أن أدلي بدلوي فيه . وها هى ذي النتيجة . وربما يتحداني شخص ما الآن فيبدي أفكاراً أحسن في الموضوع . فان فعل ذلك ، فإني أتمنى له حظاً سعيداً .

وإني لم أجعل للكتاب دليلاً للأسماء في الأخير ، لأن تجربتي دلتني على أن كثيرين من الناس عندما يقتنون كتاباً ، يبحثون حالاً عن اسمهم في الدليل ليروا ما كتب عنهم ، ثم يتركون الكتاب ويهملونه ، وهذه الطريقة ليست المناسبة لقراءة مثل هذا الكتاب !

إن بعض أصدقائي قدّموا لي المساعدة ، فقرأوا مسوداته واقترحوا تحسينات عليه . واني لم أذكر أسماءهم خشية أن يسبب ذلك الحرج لهم . ولكنني أقدم لهم جميعاً شكري الجزيل . واخيراً أعتذر ان كنت قد أغضبت او أسأت الى أي شخص كان .

اسينكتون مل
التون – هامشاير .

اللورد مونتغمري اوف علمين
مشير

الباب الأول

القيادة - وما هي ؟

عندما نجتمع نحن البشر ، سواء أكنا رجالاً أم نساء ، في جماعات كبيرة أو حتى في جماعات صغيرة أيضاً ، فاننا نحتاج إلى قيادة. وان المسألة التي ستبرز عندئذ : ما نوع القيادة التي نحتاج إليها ؟ وكيف يمكن ممارستها على أحسن ما يرام بين هذه الجماعات المختلفة ؟ . وبعبارة أخرى ما هي القيادة ؟

إن أوجز تعبير عن القائد هو ذلك الذي يجعل الناس يتبعونه . ويمكن أن يكون مثل هذا الشخص طبعاً انساناً طيباً أو سيئاً .

ويجب أن يكون واضحاً لدينا : ما هو عكس القيادة ؟ . انه « التضليل » « Misleadership » ولا أعرف كلمة أفضل للتعبير عن ذلك . فكثيرون من الناس الشجعان ذوي الارادة القوية لا نتبعهم لأي سبب كان ، لاننا لا نعرف الفكرة التي يدعون إليها او الطريق التي يسيرون فيها . ان القياده الشريرة قد تنجح مؤقتاً ، الا انها تحمل في نفسها البذور التي تقضي عليها. ولنا أمثلة جيدة للقيادة الشريرة في كل من هتلر وموسوليني . والقيادة المضللة هي شيء كاذب ينبعث عن شخصية قوية ، وكلما اشتدت قوة هذه الشخصية ، كان تدميرها النهائي أسوأ . على ان كلا من القائد الطيب والقائد الشرير يحتاج إلى الشجاعة وإلى قوة

الارادة التي تساعد في ممارسة قيادته ، وبذلك ينـــال اعجاب الآخرين . ففي وسعنا القول إذن : إن القيادة يجب ان يمارسها ، ممارسة صحيحـــة ، اناس ذوو سلطة . وإنه لمن المهم ان يعرفوا كيف يقودون . فإن لم تكن لديهـــم سلطة لفرض إراداتهم على الآخرين ، فان الامر يتوقف كثيراً على شخصيتهـــم وماهيتهم .

ولن ينجح القائد نجاحاً تاماً في أي حالٍ من الاحوال ، مــا لم يكن محترماً يعتمد على حكمته الشخصيــة ، قادراً على أن يوحي بآرائه الى الذين يقودهم وان يثير الحماسة في قلوبهم ، فيكون موضع اعتمادهم وثقتهم . ويجب ان يتمكن ايضاح ما يراد بلغة يمكنهم ان يفهموهــا . فيبدو إذن ان **القيادة تبدأ بمعركة لاكتساب قلوب الرجال وافكارهم** ، وهذا في اعتقـــادي الجازم هو جوهر القضية كلها .

ان اول ما يتطلبه البحث في موضوع القيادة هو تحديد تعريف لها ، وقــد علمتني تجاربي ان التعريف التالي صحيح نوعاً ما :

« القيادة هي الارادة والمقدرة على حشد الرجال والنساء في سبيل غايـــة مشتركة ، مع توفر السجيّة التي توحي بالثقة » :

ولا ريب انه لا فائـــدة في ان تكون لديك المقـــدرة ان لم تتيسر الارادة لاستعمالها . وتنطوي القيادة على دراسة للطبيعة البشرية . فالبشر هم العنــاصر الحقيقية المهمة في هذا الصدد . وقد قال اعظم زعيم عرفه التــاريخ[1] ، ذات مرة :

« سأجعل منكم صيادين للرجال »

وكان المسيح (عليه السلام) يعني بذلـــك انه سيعلّم حوارييه كيف

---

١ - ان المؤلف بصفته مسيحياً يعد المسيح (عليه السلام) أعظم زعيم عرفـــه التاريخ ، ونحن نخالفه في الرأي ونعتقد ان محمداً (صلعم) هو أعظم زعيم ظهر في تاريخ العالم ، فقد جمع بين الزعامتين السياسية والعسكرية الى جانب زعامته الروحية كنبي بعثه الله تعالى ليكون خاتم الانبياء وسيد المرسلين . (المترجم) .

يكسبون قلوب الرجال، وهذا يدلنا على ان القيادة يجب أن تعلّم . وربما يدعي فريق من الناس ان القادة يولدون ولا يصنعون، فانك لا تستطيع ان تصنع قائداً بالتعليم او التدريب . إلا أنني لا أوافق على هذا الرأي أبداً . فمع صحة القول ان من الرجال من يملكون في أنفسهم غرائز القيادة وصفاتها أكثر من الآخرين، وان فيهم من تعوزهم ابداً السجية التي تصنع القادة، اعتقد أن القيادة يمكن تنميتها بالتدريب . ففي المجال العسكري أرى أنه من المحتمل ان يتبع الجنود قائداً يثقون بمعارفه العسكرية أكثر من ثقتهم بآخر ذي شخصية اعظم، لكنه لا يملك تلك المعرفة الواضحة لعمله. أما الأمر بالنسبة للقائد الصغير فان مجرد اضطلاعه بالمسؤولية يبعث فيه الجرأة ليقود . ثم ان حقيقة مركزه رئيساً معترفاً به لجماعة من الرجال مسؤولاً عن حياتهم وراحتهم، لن يترك له وقتاً كافياً للتفكير في مخاوفه، وهو الامر الذي يضمن له درجة أعظم من العزم مما لو لم يكن قائداً . لقد وجدتُ، عام ١٩١٤، ان هذا هو الواقع، وكنت وقتئذٍ ملازماً حديثاً قائداً لفصيل من المشاة[١] ، وكان عليّ ان أقودهم في الهجمات على الالمان المتصمين في الخنادق، او ان أقوم بفعالية بالدوريات في « الأرض الحرام »[٢] . وفي التدريب الذي دربنيه منهم أعلى مني رتبة، في زمن السلم، اكتسبت ثقة في مقدرتي على معالجة أي موقف يحتمل ان يواجهه ضابط صغير في مثل رتبتي في الحرب . وقد زاد ذلك في معنوياتي ومقدرتي على قيادة فصيلتي وسريتي فيما بعد .

وبعبارة أخرى، يكاد ان يكون من الصواب القول ان القادة « يصنعون » اكثر مما يولدون. فقد يكون لدى كثير من الرجال الذين هم ليسوا قادة بالفطرة، شيء من الصفات اللازمة للقيادة . فيجب البحث عن ذلك وتطويره وتنميته بالتدريب . ولكن هذا التدريب لا يجري الآن الا في القوات المسلحة، أما

---

١ - الفصيل اصغر قوة عسكرية يقودها ضابط . ويتراوح عدد جنوده بين (٣٠)و(٤٠) جندي وإن السرية تتألف من مقر وثلاثة فصائل (المترجم) .

٢ - (Noman's Land) - وهي الأرض التي تفصل بين الطرفين المتحاربين .

في الاوساط المدنية فيبدو انهم يحسبون القيـــادة تنزل على الرجال من السماء كما ينزل الندى . في حين ان الواقع هو ليس كذلك ، فان للقيادة مبادىء ، كما أن للحرب مبادىء ، وينبغي ان تدرس هذه المبادىء . دعنـا الآن ننعم النظر في المهم من هذه المبادىء :

تبنى القيادة على الحقيقة والسجية . ويجب ان يكون القائد نفسه خادمـاً للحقيقة ، وان يجعل هذه الحقيقة مركزاً لغرض عام . ثم يجب ان تكون لدى القائد قوة السجية التي من شأنها ان توحي الى الآخرين بان يتبعوه عن ثقـــة . ان كلاً من الحقيقة والسجية ضروري للقائـــد ، ويجب أن تشتمل السجية على قوة الارادة .

ولكن ما هي السجية ؟. إذا اريد التعبير عنها بايجاز فهي : ان تعرف مـا تريده ، وان تملك العزم على عمله ، وان تعمله بطريقة توحي بالثقة الى الناس الذين حواليك او الذين انت مسؤول عنهم .

ويجب ان يكون القائد متفائلاً تفاؤلاً يسري تأثيره في مرؤوسيه ، وأن يكون لديه العزم على الثبـــات في وجه المصاعب . ويجب ان يبعث الثقة في النفوس ، معتمداً على المبادى والموارد المعنوية في انجاز عمله بصورة صحيحـة ، حتى عندما لا يكون هو نفسه واثقاً وثوقاً تاماً بالنتيجة المـادية . ويجب أن يكون ذا حكم صحيح في الامور ليجعل الناس يثقون به ، ومعرفة تامة بالطبيعة البشرية . وينبغي ان يكون قادراً على ان يرى مشكلاته رؤية حقيقة شاملة . ويجب ان تكون السيطرة على النفس جزءاً من كيانه .

وينبغي أن يجيد القائد اختيار الرجال ويحسن انتخاب المرؤوسين — او أن يكون في الواقع خبيراً في معرفة دخائل الناس واخلاقهم . ومن النـــاس من يظن ان التقدم في الالعاب أمر ضروري للقائد ، غير أنني أرى أنها قد تساعد على تنمية القيادة ولكنها ليست ضرورية ابداً . فليس من الضروري أن يكون المرء بطلاً في الألعاب إذا أراد ان يكون قائداً .

يضاف الى ذلك كله ، يجب ان يكون القائـد الحقيقي قادراً على السيطرة

على الاحداث التي تواجهه والتغلب عليها في النهاية . فاذا استسلم للاحداث فإن مرؤوسيه سينزعون ثقتهم منه وسوف يفقد قيمته القيادية .

وأرى ان الاختبار النهائي للقائد هو الشعور الذي يتملكك عندما تترك مجلسه بعد مؤتمر عقده او مقابلة اجريتها معه . هل تولاك شعور بالثقة وارتفاع في المعنويات ؟.

وهل أصبح واضحاً لديك ما يجب عمله ودورك في الواجب المطلوب انجازه؟ أفأنت عازم على ان تبذل جهدك لبلوغ الغرض ، أم ان شعورك هو عكس ذلك ؟

يتحدى القيادة في يومنا هذا عدد كبير من الجماعات ، وفيهم الشباب ، في ميادين كثيرة ، وطنية وسياسية وصناعية . على أن قليلين منا يستطيعون ان يقولوا اين تكمن المشكلة التي نجابهها . هل يجب ان تكون عبقرياً لتحسن الحل ؟ حقاً لا !. ان العناصر الأساسية للقيادة توجد في الإنسان نفسه ، في اخلاصه وفي ايثاره ، وفيما إذا كان لديه الحل الصحيح .

هل من علاقة للدين بالقيادة ؟ ان كثيرين من الزعماء المشهورين اليوم ذوو عقائد دينية مختلفة وليس لبعضهم اية عقيدة دينية . ولكن الجميع يدفعهم يقين باطني يستهوي اتباعهم. وكمثال على ذلك نهرو من الهند وتيتو من يوغوسلافيا وناصر من مصر وبن غوريون من اسرائيل . واذا عدنا الى التأريخ نجد ان محمداً وبوذا زعيمان ناجحان نجاحاً كبيراً في مجاليهما الخاصين ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار كثرة اتباعهما . وانني اعتقد اعتقاداً جازماً انه في جميع مرافق الحياة العامة في في أي بلد من بلدان الدمقراطية الغربية ، وعلى وفق تقاليدنا المسيحية التي توارثناها منذ أمد بعيد ، لا يستهوي القائد الكثيرين من الناس ان لم يتحل بالفضائل المسيحية .

ولكن هل في وسعنا أن نعرّف الفضائل المسيحية ؟ . لقد ألّفت كتب عديدة في هذا الموضوع ، وليس من السهل على جندي مثلي أن يدلي برأيه فيه . ولكنني مع ذلك يجب أن أحاول . يبدو أن لاهوتيي الكنيسة العظام قد بنوا

تفكيرهم على الـــترتيب الوثني للـ « الفضائل الأساسية الأربع » ، لان جميــع الفضائل الأخرى تعتمد عليها . وكانت فضائلهم الاساسية الاربع هي :

١ – الهدى – وهي عادة إرجاع جميع الأمور الى الارشاد الإلهي . والى هذه الفضيلة يستند الحكمة والانصاف وحسن التصرف .

٢ – العدالة – وهي عادة اعطاء كل فرد حقه ، حق الآلهة والإنسان نفسه . والى هذه الفضيلة تستند الواجبات الدينية والطاعة والشكران، وكذلك النزاهة والاستقامة وحسن النية نحو الآخرين .

٣ – الانضباط – وهي السيطرة على النفس لغرض تطوير الطبيعة البشرية الى أرفع المستويات وللأغراض الشخصية والاجتماعية أيضاً. وإلى هذين الفضيلتين يستند الطهر والتواضع والصبر .

٤ – الجلادة – وهي الروح التي تقاوم وتتحمّل وتتغلّب على محن الحيـاة واغراءاتها . والى هذه الفضيلة تستند الشجاعة الأدبية والمثابرة وضبط النفس .

ويبدو ان اللاهوتيين قد ملأوا هـــذه الفضائل فحوىً مسيحية ، وغيّروا تشدّدهم في الاهتمام بها بعض الشيء. وربما فعلوا ذلك لأنهم رأوا التعاليم المسيحية تساعد جميع الناس على ان يدركوا ما هو عام فيهم جميعـــاً ، ولأن هذه الفضائل الأربع هي صحيحة من الوجهة النفسانية، وهي تعالج الفكر والرغبات والارادة .

ومن الفضائل أيضاً ثلاثي القديس بولس – الايمـان والامل والبر – تلك الكلمات التي تكوّن الفضائل الدينية . والواقع انه كلما ازداد المرء « مسيحية » زادت سيطرة هذه الفضائل الدينية على دخائله .

ويمكن ان تستخلص القضية ، من الوجهة الأساسية بما يأتي : اجعل غرضك الأكبر واضحاً ، ودع عنك كل ما يعرقل بلوغ هذا الغرض ،وتمسّك بقوة بكل ما يساعدك على بلوغه ، ومن ثم ، تقـــدّم نحو إدراكه بضمير نقي وبشجاعة واخلاص وبروح مجرّدة عن الانانية .

انني آمل ان هذا التحليل القصير سيزوّد القـــارىء بآرائي في موضوع هو

غاية في الصعوبة ، إلا أنه موضوع مهم يجب ان نفهمه فهماً صحيحاً قبل ان نستمر في بحثنا .

من هم أعظم القادة في كل الأزمان ؟ انهم ولا شك مؤسسو الديانات العظمى – المسيح ومحمد وبوذا . واني ألحظ صفتين بارزتين في هؤلاء القادة الثلاثة :

احداهما – قوة التركيز

ان من الجدير بالذكر ان ثلاثتهم اعتزلوا مدة معينـــة من الزمن في حياتهم . والمفروض ان ذلك كان استعداداً لما حدث بعدئذ . ولم تبدأ رسالة عيسى إلا في الثلاثين من عمره . أما حياته في الطفولة والشبـاب فلا نعرف عنها إلا القليل . ولكننا نعلم أنه كان يبقى وحيداً لمدد طويلة يقضيها في البرية او في مكان آخر .

أما محمد (الذي ظهر سنة ٦٠٠ بعد المسيح تقريباً) فقد اعتزل الناس ردحاً من الزمن قيل أنه كان يتصل خلالها بالملـَك جبريل[١] .

وأما بوذا (الذي ظهر في نحو القرن الرابع قبل المسيح) فقـد جلس ست سنوات تحت شجرة (بوم) – وهو نوع من اشجار التين البري – وقد جاءته ، خلال مدة التركيز هذه ، الهداية التي اهتدى بها لتأسيس دينه .

واود ان أقف لحظة عند قضية «التركيز» هذه . ان القدرة على التركيز صفة ضرورية لكل قائد . وان التمرين المستمر لهذه الملكة تساعده على ضبط نفسه . انها تمكـّنه من تذليل كل مشكلة ، والكشف عن الأمور الجوهريـة التي يجب أن يبنى عليها العمل كله ، وعن التفاصيل غير الضرورية – وبعبـــارة أخرى ، تمكنه من فرز الذهب من النفاية .

والأخرى – المقدرة على اتخاذ القرار

ان المقدرة على اتخاذ القرار ضرورة أولى لكل قائد . . وفي حـــالة هؤلاء الرسل الثلاثة ، كان من الضروري لهم الوصول الى قرار قبل ان يبدأوا جهادهم.

---

١ – لقد اتصل الرسول (صلعم) بالملك جبريل فعلاً أثناء اعتزاله في غار حراء .(المترجم)

ولقد قرّر اثنـــان منهم ، وهما عيسى ومحمد ، خدمة الإنسان ورسم طريق للحياة البشرية جمعاء . أمـــا بوذا فلست على ثقة من قراره في هذا الصدد . واظن ان دينه كان بغير إلهٍ ، مع ان البوذية الحديثة قـــد تأثرت بالافكار المسيحية .

والخلاصة ، ان تعاليم هؤلاء الثلاثة قد دامت ولا شك . ولذلك فيجب أن يكونوا في أول قائمة القادة العظام . وليس من السهل ان نضيف شخصاً آخر الى هذه القائمة . وربما سنحـاول ذلك فيما بعد عندما سندرس جماعـــة من قادة الماضي – او من قادة الحاضر .

هل كانت الحياة الخاصة لهؤلاء الثلاثة احدى الاسباب لنفوذهم ونجاحهم ؟. وهل يجب ان تكون حياة القائد الخاصة فوق الشبهات ؟.

في رأيي الخاص ، في هذه القضية بعينها بل وجميع القضايا الأخرى ، ان العامـل الاكبر هو اخلاص المرء ونفوذه وكونه قـــدوة ، وخاصة فيما يتعلق بالفضائل المسيحية . ولا يهم كونه في الطبقات السفلى او في الطبقات العليـا من مجتمعنا. إنني لا أدري كيف يستطيع امرؤ أن يكون قائداً، ان لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات. فان لم تكن حياته فوق الشبهات فلا يحترمه الذين يقودهم وسيسحبون ثقتهم منه . وإذا ما حدث ذلك فستفقد قيادته تأثيرهـــا . هل انتهج هؤلاء الثلاثة نهجاً ثابتاً ؟ . سيقول الكثيرون ان (الثبات) صفة ضرورية للقيادة السليمة ، ولكن آخرين سيضيفون الى ذلك قولهم : إن (الثبات) غير ممكن دائماً . فالحياة ، كما قال هيراقليتس ، صراع بين متناقضات ، ومتناقضات لا يمكن التوفيق بينها – في عالمنا هذا على الأقل . فهناك مثلاً قانون المحبة الذي هو فرض كل مسيحي، وعلى وفق هذا القانون ينبغي ان تستهجن جميع الحروب لكونها شروراً ، كما يقول المسيحيون المسالمون (Pacifist Christian) . ولكن المحبة قد تكمن أيضاً في الدفاع عن بيتك كما يقول المسيح .

والانجيل يظهر لنا ان المسألة هي ليست فيالسهولة كما تبدو لفريق من الناس. فيمن قال المسيح (لم أجد إيماناً كهذا ، لا ، ليس في إسرائيـــل) ؟ . قال في

روماني .

ومن الذي قال وهو ينظر الى الصليب (حقاً لقد كان هذا ابن الله) ؟ . **قاله** جندي روماني أيضاً .

ومن أنقذ القديس بولص من الغوغاء ؟ جنود رومانيون ، وماذا كانت النتائج ؟[1] لقد بدا لي دائماً ان جنود العهد الجديد هؤلاء ، الذين كانوا رجالاً بسطاء مهنتهم الحرب ، يقفون رموزاً للمصاعب التي تحيق بالمسيحي في عالمنا هذا ، عالم السياسة والحرب . ان صعوبة المسيحي الأساسية هي أنه يعيش في عالم غير كامل ومضطرب . فهناك **مثال المحبة** الذي له مطاليب لا شرطية . وهناك أيضاً **حقيقة الفساد البشري** . ويمكن ان يعبر عن هذا **بقانون الحدود البشرية** ، « Law of Human Limitations » او كما يدعى باللغة القديمة ، والتي لا تفهم أحياناً ، **بقانون الخطيئة الاصلية**[2] . وهكذا فعلينا ان نعمل ضمن الموقف الذي خلقته الطبيعة البشرية كما نعرفها . وهذا يعني ، ان العدل لا يمكن ان يسود بدون موافقة القوة . وهو يعني أيضاً ان العنف يجب ان يقاوم . واني أعتقد ان المسيحي المسالم يجب ان ينسحب بالمرة من المجتمع الإنساني ، لأنه إذا رفض استعمال القوة فهل يحق له ان يطلب حماية الشرطة ؟

حقاً انها لقضية صعبة للغاية . وعلى المرء ان يفكر بامعان قبل أن ينبذ صفة الثبات الجامد كميزة ضرورية في القائد . ذلك لأن الثبات قد يكون في السعي الى الغاية بطرق تتعاكس تعاكساً تاماً ، تارة بالقتال واخرى بدونه . على أنني أعتقد بأن الثبات في القضايا المعنوية الكبرى وفي الفضائل المسيحية ، أمر ضروري لنجاح القائد في العالم الحر .

---

١ - يقصد المؤلف انه لو لم ينقذ الرومانيون القديس بولص، ولو انه قتل لما انتشر الدين المسيحي .

٢ - الخطيئة الاصلية هي خطيئة آدم وحواء - وخلاصة هذا القانون : ان الخطيئة طبيعة في البشر وقد توارثوها عن آدم وحواء ، وانهم إذا اتبعوا تعاليم المسيح فسيغفر الله لهم عن ذلك .

هل للقادة العظام صفات وفضائل بارزة ؟ ان بعض صفاتهم واضحة وقوية ، فمعرفة القائد المتقنة لعمله ولمهنته هي من أهمّ الضروريات . ثم الدراسة المستديمة ليتزود دوماً بأحدث المعلومات . ويجب ان لا يكون القائد استاذاً في مهنـــة فحسب بل يجب ان يكون دائباً على التعلم . وكما قال وليم كوبر :

(العالم فخور لأنه قد تعلـّم كثيراً
والحكيم متواضع لأنه لا يعرف أكثر .)

ان بعض صفات القيــادة هي في غاية الصعوبة ولكنهـــا مهمة مع ذلك . واحدى هذه الصفات معرفة القائد لغته الأصلية معرفة تامة . وفي هذا الصدد ، أخشى أن أكون انا نفسي قد أخطأت في بعض الاحيان . وهـــا أنذا أوضّح ما أريد :

لقد كان كثيرون من الذين اتصلت بهم في أوروبا مهتمين في معرفة حقيقـة الجنرال ديغول . ومن بـــين هؤلاء الرئيس تيتو والمستر خروشيف . وحول هذين تدور حكايتي التالية : لقد سألني كلاهما : حدثني عن ديغول ، ماذا يشبه في هذه الايام ؟

انني اعرف الرئيس ديغول معرفة جيدة و،احمل لهالمودة والاعجاب.،ويجب ان أقف عند هذا الحد فسأطيل الحديث عنه فيما بعـــد . ولقد عرفت ديغول لأول مرة أيام حرب هتلر، وذلك عند كان يبدو أحياناً (صعباً) بعض الشيء. أما اليوم فهو يختلف عمـــا كانه في الماضي كثيراً . لذلك كان جوابي الى كل من تيتو وخروشيف « لقد اصبح (ليناً) [1] » « He Has Mellowed » وعندها بدأت متاعبي .ذلك لأنه من الصعب جداً أن أفسّر لأجنبي معنى هذا الاصطلاح العريق في إنـكليزيته . واخفقت ان أوضّح لكليهما ما تعنيه هذه الكلمة . وفي

---

١ – لكلمة (Mellow) الانـكليزية معـــانٍ كثيرة فهي تعني (ناضج ،مستوي ، يانع ، لـيّن ، طري ، رطب ، رخيم ، نشوان ، ثمل) (راجع القاموس العصري) . ويستعمل هذا الاصطلاح باللغة الانـكليزية للدلالة على أن الشخص أصبح (ليناً) أو (ناضجاً) . وقــد فضلنا الكلمة الأولى في الترجمة لأنها أقرب إلى المعنى الذي قصده الكاتب . (المترجم)

حديثي مع تيتو لم أكن حكيماً حين أتيت بمثالٍ قنينة من الشراب وقلت إنها تعتّق فتصبح حلوة المذاق واللذة بتوالي الأيام . فنظر إليّ تيتو وفي عينيه ابتسامة وقال :

« وماذا تعرف أنت عن الشراب ، انك لا تشربه » فكففت عن الكلام معترفاً بعجزي .

أما مع خروشيف فلم أحاول إيضاح الكلمة . ولما أخفق المترجم في ترجمة المعنى طلبت احضار معجم . وعندما عثرت على الصحيفة الصحيحة ودقّق خروشيف النظر في الكلمة المقابلة بالروسية لكلمة (Mellowed) قال : « نعم ، فهمت ، انها تعني (نشوان) ». فاضطررت الى تغيير الحديث بسرعة ! وبعد عودتي الى انكلترة بحثت عن الكلمة في معجم اوكسفورد الموجز ووجدت ان احدى معاني كلمة (Mellowed) هي (ثمل) او (نشوان) . فقررت ان لا استعمل هذه الكلمة في المحادثات الدولية !

ان ما ننشده هو القائد الماهر . ولكن كيف يتسنى لنا أن نميّزه ؟ لا بدّ من أن ينال القائد ثقة الذين يقودهم . فالقيادة مشكلة كبيرة في عصرنا هذا وفي كل عصر آخر. وإذا ساهمنا في ايجاد الحلول الصحيحة لمعضلاتها، فاننا نكون قد حققنا ولا شك شيئاً كبيراً . لكنه من الضروري ان نعالج المشكلة من غير خوف ، وأن نقول ما نعتقد انه الصواب بعينه ، والا فان كل محاولة لحل المشكلة ستكون عقيمة .

وقبل أن نستمر في البحث أكثر من هذا أود أن ألخّص بعض أفكاري :

إن الميزة الأولى للقائد الذي ننشده هي أن يكون مخلصاً اخلاصاً عميقاً وعظيماً وحقيقياً . والاخلاص الذي أعنيه هو النوع الذي ينبعث من القائد من غير أن يشعر به . فهو فيه بالطبيعة ، وهو لا يملك الا أن يكون مخلصاً .

ويضاف الى الاخلاص نكران الذات . واعني بذلك الولاء التام للقضية التي يخدمها من غير أن يفكر في جزاء أو تعظيم .

ثم يجب أن تكون لديه قابلية للسيطرة على الأحداث التي تواجهه والتغلب

عليها . فإذا ما أخفق في ذلك فإن قيـادته ستصبح مثاراً للشبهات وذلك لأنه سيفقد احترام وثقة الذين يقودهم .

وخلاصة القول اذن انها (الرئاسة) (Captaincy) التي تهم ، أو القيادة في أرفع معانيها ، مع القـدرة على (القرار) لا يمكن المبالغة بها . وأود أن أضيف الى ذلك قليلاً من الحظ – الذي يجب أن يمسك به القـائد بكلتي اليدين وأن يستفيد منه بجرأة . لكنه يجب أن يكون للقـائد أيضاً اهتمام طبيعي في البشرية ومعرفة حقيقية بها . فالبشر هم المادة الأولية لصناعته . ويجب أن يفهم أن في الرجال قوى عاطفية عظيمة محصورة ، فينبغي إيجاد مخرج لهـذه القوى لتنطلق منه بطريقة إيجابية وبنـاءة من شأنها ان تلهب قلوب الرجال ، وتثير خيالهم فإذا تمكّن القائد من ذلك واستطاع السيطرة على تلك القوى وتوجيهها نحو غرض عـام ، أصبح في وسعه تحقيق أعظم المنجزات . الا انه إذا واجهنا هذه المشكلة البشرية بفتور وبطريقة غير صحيحة ، فـلا يمكن أن نحقق إلا الشيء القليل . وهذا هو الدرس الأول للقيادة ، سواء أكان ذلك في المجـال العسكري أم في المجـال المدني . وينبغي أن لا ننسى ان الجندي والعامل هما نفس الرجل . واني أعترف أن في تطبيق القيادة عليهما اختلافاً . فالعامل يجب أن (يُقنع) ولا يمكن أن (يُؤمر) للقيام بعمل لا يريد أن يعمله .

ولا شك انه من المستحسن دائمـاً اقناع الجندي أيضاً بان ما تريده أن يفعل هو الشيء الصحيح ، لكنه في آخر الأمر يمكن أن يؤمر وعليه أن يطيع . وعلى الرغم من هذا الاختلاف فبينهما وجه للمقارنة .

انني كلما أنعمت النظر في معضلة القيـادة هذه زدت يقيناً بان عناصرها الأساسية هي « الرجل » وإخلاصه وإيثاره ومقدرته لادراك حالات كل مشكلة ومن ثم اتخاذ القرار الصحيح في شأنها .

لقد سمعت مرة ان بعض القادة بعث بتقرير خـلال موقف حرج في المعركة يقول :

« سنفعل كل ما هو ممكن حالاً – أما المستحيل فيتطلب وقتـاً أطول

بقليل ». أظن ان هذه الحكاية قالها المشير سليم (SLIM) الا انني لست واثقاً من ذلك . ولا شك انه ليس « من المستحيل » ايجاد الحل لمشكلة القيادة الصعبة هذه ، ولكن ذلك يتطلب بعض الوقت .

وهنا دعني أكرر ثانية ، وأخشى أن أسبب الملل للقارىء بهذا التكرار ، ان جوهر القضية كلها ينحصر في « الرجـــل » نفسه ، قابليته لاتخاذ القرار الصحيح ، ومعرفته بالطبيعة البشرية .

وعلينا الآن أن نبحث في بعض أنواع القيادة . وهاأنذا أبدأ بالقيـــادة العسكرية .

الباب الثاني

القيادة العسكرية

انطباعات عنها

ان غرضي في هذا الباب القصير[1]، تزويد القارىء بمقدمة موجزة عن موضوع القيادة العسكرية قبل النظر في عدد من الأمثلة التي تبين كيفية ممارسة هذه القيادة في الماضي . وهناك نقطة تجدر ملاحظتها ، وهي انه بينما يدلّ عنوان الكتاب على «القيادة» (Leader ship) بوجه عام فانني قررت الاشارة إليه في الحقل العسكري بـ « القيادة العسكرية » (Command) ولقد فعلت ذلك للتأكيد على الطريقة المختلفة التي يجري بها ادارة الرجال في المجالين العسكري والسياسي . فالقائد العسكري يتمكن من اصدار الأوامر في حين أن القائد السياسي لا يستطيع غير الإقناع .

لقد كتبت ما فيه الكفاية في (مذكراتي) عن أساليبي الخاصة في القيادة العسكرية ، فلا أرى ثمة ضرورة لتكرار ذلك . ولكن ، بما اننا سندرس عدداً من القادة العسكريين في الباب القادم ، فمن المفيد أن أذكر آرائي العامة في موضوع القيادة العسكرية .

---

١ ـ MILITARY COMMAND

لا شك ان القيـــادة العسكرية تسهل كثيراً عندما يكون القرار النهائي السياسي والعسكري – في يد واحـدة ، تلك هي يد القائد العسكري نفسه . وهناك أمثلة كثيرة لذلك من الماضي البعيد . مثل هانيبال ، القرطاجي العظيم ، والقيصر (دكتاتور روما) وجنكيزخان (امبراطور المغول) .

وفي العصور التي تلت هؤلاء أمثلة جيدة أخرى . فهناك غوستاف أدولف الذي ولد سنة ١٥٩٤ . وقـد أصبح ملكاً على السويد وهو في السابعة عشر من عمره . وبرهن الجيش السويدي تحت قيـــادته على انه أفضل من جميع الجيوش الأخرى في أوربا . وكان غوستاف قاسياً في ازاحة القادة غير القديرين وترقية الضباط الأحدث منهم . وقد اعتبر ان الكفاية هي أجدى للظفر من القـــدم. وكان يتحقـّق من أن معنويات جنوده وإخلاصهم لا يتأثران ، بلا مبرر ، من جراء سوء التجهيزات أو الجوع أو قلة الرواتب . وربمـــا كان القادة الآخرون ألمع من غوستاف في المفاهيم السوقية (الاستراتيجية) والتعبوية (التكنيكية) ، لكن هذا كان ولا شك من أعظم صانعي الجيوش الذين نعرفهم في التاريخ .

ثم هناك شارل الثاني عشر الذي أصبح ملكاً على السويد سنة ١٦٩٧ وهو في الخامسة عشرة من عمرة . ولكن التاريخ لا يمكن أن يعدّه أحد القـــادة العسكريين العظام . واني لا أجد دليلاً واحداً يشير الى انه رأى بوضوح ما كان يريد إنجازه . وقد بالغ في تقدير القيمة العسكرية لحلفائه وقدّر المقاومة الروسية العظيمة دون قدرها . وكان جاهلاً جهلاً تاماً بالسياسة الدولية . ومع ان شجاعته البدنية كانت عظيمة حقـاً ، الا انه كانت تعوزه الحكمة والذكاء ، مما أدّى إلى وقوعه في الأسر بيد الأتراك . وأحسب انه كان آخر ملك قاتل فعلاً في خط القتـــال مع جنوده وقتـــل [1] في المعركة على رأس جيشه . فقد أصابته رصاصة في رأسه من أحـد القناصين ، أثناء حملته العسكرية ضد النروج سنة ١٧١٨ . ولطالما ساءلت نفسي عن رأي الناس في السويد بهـــذا

---

١ – بعد ان وقع أسيراً بيد الأتراك عاد الى بلاده وقاد حمـــلة عسكرية على النروج فقتل هـــناك .

الملك ، فان تقديري الخاص عنه انه كان قليـل الاهتمام في أرواح جنوده، وانه أوصل بلده إلى حافة الخراب .

ثم هناك نابليون بالطبع . لقد خالف إحدى قواعد الحرب الأولى القـائلة « لا تسر الى موسكو » وسنشير إليه ثانية في هذا الباب .

ولكن الملوك والأباطرة في يومنا هذا لا يتولون القيادة في الميدان . واننـا نجد العلاقة بين القـائد وجيشه في الماضي قليلة الشبه بما هي عليها اليوم . فان العباقرة العسكريين العظام في تلكم الأيام كانوا يهيئون معداتهم الحربية بأنفسهم، ومن ثم يشقـّون طريقهم إلى الظفر من غير ان تعترض سبيلهم السيطرة السياسية. اما اليوم فالأمر يختلف اختلافاً كبيراً. وأظن أن التبدّل قد حدث في بريطانية بعد موت كرمول في أيلول ١٦٥٨ . فقد فرض ذلك القـائد العظيم دكتاتورية على انكلترة . وعندما سرّح الجيش النموذجي الحديث كان الناس قد ملـّوا من الجيوش الثابتة الكبيرة . ومنذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا ، فضّلت الأمـة البريطانية ان تدخل الحرب وهي غير مستعدة،بدلاً من أن تسلمّ القوة إلى جندي في زمن السلم . وربما كانوا على صواب . وإن الإدارة العليا للحرب في العالم الحر اليوم هي في أيدي السياسيين ومن ورائهم البرلمان . وعلى كل من رؤساء أركان القوات المسلحة ، سواء أكان جندياً أم بحاراً أم طياراً، أن يتعلم فنون السياسة – وهي إثارة الإعجاب ،والاقناع والمناورة (وهي في السياسة تشبه الدسيسة)، وأخيراً تسوية الأمور . ويجب أن يتعلـّم نقـاط ضعف رئيسه السياسي ، الذي تجتمع في يده المسئوليتان العامة والنهائية – وذلك حق وصحيح .

لعلك تقول : ولكن هذا كله صعب للغاية ! وهو لا شك كذلك . وقـد زاد ذلك في تعقيدات الحرب كثيراً . ويجب أن يتعلـّم الجندي والسياسي فهم أحدهما الآخر . فكثيراً ما يميل كل منهما إلى تجاهل صعوبات الآخر .

لقد اقتضت القيادة العسكرية دوماً مهارة فنيـّة ، وقوة وخصالاً روحية . وكلا هذين ضروري للقائد . فقد كان للقادة العسكريين العظام في المـاضي معلومات عميقة بآلية الحرب وبطرق إدارة المعركة وكانوا قادرين على استقطاب

أرواح وصفات جنودهم واجتذابها نحوهم . ومـــارس هؤلاء القيادة العسكرية على مستويين :

آ - بواسطة القيادة العليا المعروفة .

ب - بواسطة المرؤوسين غير المعروفين .

فمن القادة المعروفين - جنكيزخان ومالبرو وولنغتون، ونلسون ونابليون. كل هؤلاء كانت عندهم معلومات متقنة بآلية الحرب وبالطبيعـــة البشرية . وهناك القادة الصغار غير المعروفين - ضباط الوحدات وضباط صفها - اولئك الذين يقودون جنودهم الى الأمام، او يمسكون مواضعهم حتى النفس الأخير لكي يساعدوا على نيل الظفر في مـكان آخر ، والذين يموتون في الغالب من غير ان يعرفوا . وهؤلاء هم الذين يكسبون المعركة في النهايـــة وذلك بابداعهم الذاتي وبشجاعتهم - وأحياناً على الرغم من قادتهم .

والواقع ان كلا النوعين متممان أحدهما للآخر - القائد العام العظيم المعروف والقائد غير المهم المجهول . فليس لاحدهما قيمة بدون الآخر .

لقد كان النجاح حليف القائد المعروف ان كانت له معرفة صحيحـة بادارة الحرب واهتمام حقيقي بالبشرية ، وكان ذا إبداع ذاتي وخيال واسع وعزم على نيل الظفر ، وربما كان لديه أيضاً شيء من الحظ وقد استفاد منـه بشجاعة الى اقصى حدود الاستفـادة . فان لم تكن للقائد مثل هذه الصفات كان نصيبه الفشل .

ان (او ليفر كرومل) (Oliver Cromwel) مثال جـــدير بالبحث . فعندما بدأت الحرب الأهلية كان يقود رعيلاً[1] مؤلفاً من ٦٠ خيالاً . وقد قاتل وهو يقود ذلك الرعيل في ايجهل (Edgehill) سنة ١٦٤٢ . وفي كانون الثـاني ١٦٤٤ كان برتبة فريق ، ومع فيرفاكس (Fairfax) القائد البـارز في جيش البرلمان . وبعد معركة (ورسستر) سنة ١٦٥١ اصبح الرجل الأول في انكلترة.

---

١ - الرعيل اصطلاح عسكري يطلق على اصغر قوة من الخيالة او الدروع يقودها ضابط . وهو يعادل فصيل المشاة .

وإنني أشك أنه كان رجلاً محبوباً ، ولكنه كان جندياً عظيماً ، وقد دفعته الظروف الى الامام ليصبح زعيماً وطنياً . وبقي بعدئذٍ في السلطة خمس سنوات تولى خلالها أرفع منصب في الدولة . غير أنه لم يظهر طيلة هذه السنوات مقدرة جيدة في الحكم ومات سنة ١٦٥٨ .

ثم هناك (مالبرو) (Marlbourough) الذي ولد سنة ١٦٥٠ . لقد تلقى دروسه في مدرستي – مدرسة سنت باول في لندن – وكان عبقرياً في العسكرية وذا مقدرة دبلوماسية عظيمة . واليه يعود الفضل في نهوض الجيش البريطاني حتى أصبح في مقدمة جيوش اوربا . وقد درس مالبرو الجانب الإنساني من الفن العسكري ، واهتم اهتماماً عظيماً برفاهة قواته ، وفي المعركة ، كان يسيطر دوماً على الموقف ويبقى هادئاً وواثقاً بنفسه حتى النهاية . كان مالبرو حقاً أحد القادة العسكريين البارزين . ومات سنة ١٧٢٢ .

وبعد نحو مائة سنة ظهر ولنغتون (Wellington) . وكان قائداً ممتازاً في الميدان . وقد ولد سنة ١٧٦٩ ، وهي نفس السنة التي ولد فيها نابليون ، مع أن الاثنين لم يلتقيا في الحرب حتى معركة واترلو ، وكان نابليون آنذاك ظلاً لشخصه السابق . وكان ولنغتون جندياً عملياً الى حد كبير ، وقد درس علم الحرب في الوقت نفسه ، دراسة جدية . ومات سنة ١٨٥٢ .

هذا ، وانني أظن ان مالبرو وولنغتون كانا من أحسن الجنود الذين انجبتهم أمتنا ، بل وربما أية أمة أخرى . وان ما كتب عنهما كثير الى درجة ربما كان من الوقاحة ان أزيد على ذلك .

لقد قررت ان لا أبحث في هذا الكتاب عن القادة العسكريين في حرب هتلر ، والذين لا زالوا أحياء يرزقون سواء في ذلك الذين خدمت تحت امرتهم أم لم أخدم . إلا أنني سأستثني واحداً منهم فقط الا وهو (الآن بروك) (Alan Brook) . فلو عدنا الى الصفات التي اجملتها في الباب الاول وافترضناها أساسية في كل قائد – وهي « الرجل » واخلاصه وإيثاره ومقدرته على إدراك حالات كل مشكلة يواجهها والتوصل الى قرار – فاني أعتقد ان الآن بروك يملك

هذه الصفات كلها . على انني اشك إن كان سيصبح ذلك القائد الماهر في الميدان ، كما كان رئيساً لهيئة الأركان الامبراطورية العامة . ذلك لأنني لا أظن أنه كان سيستميل الجنود بطريقة صحيحة . وقد كان ممتازاً كنديد عسكري لتشرشل عندما كان رئيساً لمجلس رؤساء أركان القوات البريطانية المسلحة . وسنبحث في هاتين الشخصيتين تشرشل والآن بروك في باب آخر .

انني أود ان أقول هنا كلمة عن (هيغ) (Haig) ، ذلك القائد الذي أثار اهتمامي دائماً . وربما كان ذلك لأننا تولينا نفس المنصب – منصب القائد العام للقوات البريطانية في شمال غربي أوربا – وربما أيضاً لأننا واجهنا مشكلة مماثلة .

وكان هيغ القائد العسكري الوحيد في الميدان الذي اعتقد ان الحرب العالمية الاولى يمكن ان تنتهي سنة ١٩١٨ . وقد رأى أنه لاجتناب استمرار الحرب مدة أطول ، يقتضي القيام ببعض المجازفات في صيف ١٩١٨ ، تلك المجازفات التي كان يتعذر التفكير فيها قبل ذلك . وكان في الإمكان القيام بهذه المجازفات لأن مقاومة الألمان كانت قد اوشكت على الانهيار . وقد أقنع هيج المارشال فوش ليوافق على هذه الخطة ونفّذت فعلاً .

لقد عملت أنا على وفق هذه الفلسفة العامة تماماً في آب ١٩٤٤ ، عندما طالبت بوجوب إنهاء الحرب في تلك السنة ، قائلاً إن الألمان كانوا في الرمق الأخير . لكنني عجزت عن إقناع الامريكيين على قبول المجازفة ، مع أنها كادت ان تكون معدومة على كل حال . وبالنظر لعدم تنفيذ ما اقترحته ، استمرت الحرب حتى سنة ١٩٤٥ مما أدى الى زيادة مشاكلنا السياسية بعد الحرب ، وضياع عدد كبير من الارواح الشابة ضياعاً فاجعاً . وكانت المشكلة الأساسية هنا هي ان القيادة العسكرية الامريكية كانت متجهة اتجاهاً كلياً نحو الفوز في الحرب . ولم تكن تسمح للاعتبارات السياسية بعد الحرب أن تؤثر في القرارات العسكرية عندما كانت الحرب مستمرة . ولم تصدر الى آيزنهاور حسبما أعلم أية توجيهات سياسية من رؤسائه السياسيين أو عن رؤساء

الاركان البريطانية – الامريكية المشتركة . غير أن الظفر العسكري وحده لا يكفي أبداً . فالحرب يجب ان يكون لها هدف سياسي ، ويجب ان تنتج عالماً اكثر سلماً من ذي قبل . فإن لم يحدث ذلك فاننا نكون قد استبدلنا عدواً بآخر ليس إلا . وهذا ما حدث عندما انتهت حرب هتلر . لقد ارتكبت القيادة العسكرية هذا الخطأ في حربين عالميتين ، حرب قيصر وحرب هتلر . وعلى قادة المستقبل ان يدركوا الحقيقة الاساسية التي تقضي بازدواج العوامل العسكرية والسياسية في الحروب ، وإلا فالنتيجة ليست إلا مجزرة لا فائدة منها ، ولا سيما في عصرنا الذري هذا .

ومما هو جدير بالملاحظة ان القادة العسكريين العظام في التاريخ كانوا قلائل على العموم . وكان يقتضي نشوب حرب لظهور هؤلاء ، . وقد برهن بعضهم على عظمته بعد تدريب قليل جداً . وكان من ظواهر التاريخ العجيبة على مرّ العصور ان الحوادث هي التي خلقت الرجال دائماً ، ولم يكن للعمر غير تأثير قليل فقد جاءت الفرصة مبكرة لفريق منهم ومتأخرة للآخرين . وكان فريق منهم حاضرين عندما سنحت لهم الفرصة ، فانتهزوها وقبضوا على ناصيتها بأيديهم واستفادوا منها الى أقصى حدود الاستفادة . في حين ان الآخرين لم يفعلوا ذلك . وكان لجماعة منهم حظ أوفر من غيرهم بينما لم يجد الباقون الفرصة المناسبة ليبرهنوا على مقدرتهم . فنابليون كان يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عندما قهر شمال ايطاليا سنة ١٧٩٦ . وكان (ولف) (Wolf) في الثامنة والثلاثين عندما استولى على كيوبيك . ونجد في الكفة الأخرى من الميزان ان مالبرو كان في الرابعة والخمسين عندما قاتل في معركة بلنهايم (Blenheim) ، و (ابركرومبي) (Aber Crombie) قاد حملة عسكرية قصيرة ، ولكنها ممتازة ، في مصر وهو في الثامنة والستين من عمره . وكان اللورد روبرتس (الذي ولد سنة ١٨٣٢) في الثامنة والستين عندما أرسل ليقود القوات البريطانية في حرب جنوب إفريقيا سنة ١٩٠٠ . وانه لمن الطرافة حقاً ان أتصوّر أنه لو سئل طالب مدرسة او حتى رجل ناضج ، في السنين المقبلات ان يذكر اسم أعظم

قائد افرنسي ظهر في حرب هتلر ، فسيكون جوابه « اللواء ديغول » مع أن هذا لم يتولَّ في المعركة غير قيادة فرقة مدرعة ، وكان ذلك لمدة قصيرة فقط !.

والآن دعنا نقف برهة عند نابليون ، الذي هو من أعظم القادة في كل العصور . ما الذي مكّنه من ان يقود وهو في سن السابعة والعشرين ، جيشاً مستقلاً في الميدان ويخوض غمار الحرب بنجاح ؟ . كان عبقرياً ، استفاد الى درجة كبيرة من الدراسة التمهيدية التي تلقاها وهو ضابط في المدفعية . وقد استطاع مبكراً ان يطبّق عملياً النظريات العسكرية التي بدأت تظهر وقتذاك . وفي سن العشرين اشترك في الثورة الافرنسية . وفي سنة ١٧٩٤ اصبح لواءاً وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وفي تشرين الاول ١٧٩٥ اخضع جماعة من الغوغاء الثائرين في باريس ، واستطاع بفهمه السريع للموقف واصداره الأوامر توّاً ، واطلاقه النار على الثوار بقسوة ، ان ينقذ الجمهورية . وفي السنة التالية ، سنة ١٧٩٦ ، عهدت اليه قيادة الجيش الافرنسي في ايطاليا ، وكانت الجمهورية وقتئذ مدينة اليه كثيراً .

كان نابليون مثالاً لرجل أتته فرصة القيادة مبكرة . وقد أعدّ نفسه لها ، وكان حاضراً عندما جاءت فانتهزها واستفاد منها الى اقصى حدود الاستفادة . وبلغ المركز الذي بلغه بمعرفته العميقة للطبيعة البشرية اكثر من دراسته للقواعد والاستراتيجية . وفي سنة ١٧٩٦ استطاع ، وهو لا يزال شاباً ان يلهم رث الثياب متمرداً ، قليل الزاد ، ويبعث فيه القوة والاندفاع ويجعله يقاتل . وقد تمكن من أن يسيطر على قادة أكبر منه سناً واكثر تجربة ، مبرهناً بذلك على مقدرته في علم النفس .

لقد قال ميكيا فيلي : «إن الحظ هو المتحكم في نصف أعمالنا تاركاً لنا الخيار لإدارة النصف الآخر » . ونابليون لم يجد صعوبة مع هذا النصف الآخر ، وسرعان ما تردد صدى اسمه في أوربا كلها . ولكن يجب ان نسجّل هنا أنه كان مدفوعاً بتأثير طمع اناني شرير ، وليس بحثاً عن المثل العليا شأن كرومول. وقد سقط في الأخير ، ربما من جراء طمعه وأنانيته .

وأود أن أذكر هنا نقطة أخيرة : كان القادة العامون وضباطهم الاقدمون ، في الايام الغابرة ، يشجعون جنودهم ويقودونهم في الجبهة ، وليس من الخلف كما كان يفعل دوق بلازاتورو (Plaza Toro). وقد قرأنا عن كثيرين من القادة ، في عهد ولنغتون وقبله ، وفي الحرب الاهلية الاميركية وحرب القرم وحرب جنوب إفريقية ، أنهم مارسوا قيادة أدبية فعلية في الجبهة ، إذ كانوا مع الجنود ، وكان هؤلاء يرونهم في أخطر ساعات المعركة . ثم تحسنت وسائط المواصلات الداخلية بعدئذ فتغير الامر ، وصار القادة يديرون الحركات من مقر بعيد في الخلف . وقد كتب أحد المؤرخين العسكريين المشهورين ان اسلوب القيادة الـ (بلازا توري) من الخلف لم يساعدنا على الفوز في المعارك في حرب قيصر عندما كان من النادر رؤية القائد العام في المنطقة الامامية خلال المعركة . وربما شوهد ضابط برتبة عميد ولكن ليس برتبة أعلى !. انني أؤيد هذا الانتقاد ، واعتقد ان الامر قد تحسن من هذه الوجهة في حرب هتلر . ومع ذلك ، فليست ثمة شك في ان الحرب العصرية بجميع تعقداتها الهائلة ، قد أدت الى ضياع التماس بين القادة وجنودهم .

ولما كانت القيادة العسكرية اساساً معضلة بشرية كبرى فلا يمكن الحصول على نتائج جيدة منها ، ما لم يكن بين القائد المعروف وضباط الوحدات وجنودها ، ثقة وعطف متبادلان . ويجب ان يشاهد الجنود قائدهم كثيراً في المنطقة الامامية . يظهر مما تقدم ان فن القيادة اليوم يتطلب من القائد الذي بيده السيطرة العامة على المعركة ، ان يدير الحركات بهيئة اركان صغيرة جداً من مقر تعبوي[1] متقدم في ميدان القتال ، ولا ينبغي ان يديرها من الخلف باسلوب « بلازا توري » مع هيئة اركان كبيرة ، اولئك الذين يجب ان يبقى معظمهم على مسافة بعيدة في الخلف .

---

١ - Tactical Headquarters - وهو مقر أمامي ينشأه القائد قريباً من الجبهة ليشرف منه على المعركة . ويقتصر هذا المقر على القائد وعدد قليل من ضباط ركنه مع وسائط المخابرة اللازمة . (المترجم)

ويجدر بنــا ونحن نتكلم عن هيئـــات الاركان ، ان نتذكر جميعاً أن الفريق (يوليسوس غرانت) (Ulysses Grant) قـــد قاد سنة ١٨٦٤ خمسة جيوش امريكية، كانت تتحرك في منطقة تبلغ مساحتها خمسة اضعاف مساحة اوربا، بهيئة اركان لم يتجاوز عددهم أربعة عشر ضابطاً !.

والآن دعنا ننتقل فننتخب عدداً من القادة الذين يتفق مسلكهم مع غرضي، بغية اختبارهم بايجاز .

الباب الثالث

القيادة العسكرية - أمثلة

يتعلم الجندي القسم الأعظم من مهنته بالدراسة النظرية . وتتخلل ذلك أوقات قليلة من الخبرة العملية في الميدان ، يبني خلالها أعماله ، وخاصة في البداية ، على ما درسه وتعلّمه . وعندما يلتحق بالجيش يزوّد بعددٍ من كتب التدريب والكراسات التي يرى فيها ان مبادىء الحرب قد رسمت على صورة قابلة للقراءة مع قواعد لتطبيقها . وقد يبدو له كل شيء سهلاً لأول وهلة ، إلا انه يتعلم فيما بعد ان الأمر ليس من السهولة كما ظن في بادىء الأمر ، وان الكتب لا تعلّمه الشيء الكثير عن مبادىء القيادة. وهو يميل الى التفكير بان المبادىء المدونة في الكتب هي نتيجة تجارب الحروب الحديثة ، وهذا خطأ كبير لأن هذه المبادىء قديمة قدم الزمان . لقد كان نابليون نفسه ينصح ضباطه أن يقرأوا حروب القادة العظام مراراً وتكراراً . واننا نقرأ في كتاب « الأمير » لميكيافيلي انه :

«لتمرين الفكر يجب أن يقرأ المرء كتب التأريخ ليدرس فيها أعمال الرجال المجيدين وسيرتهم في الحروب ، وليختبر أسباب ظفرهم واندحارهم » .

ان هذه نصيحة لا يمكن تقديم أحسن منها إلى كل دارسٍ لفن الحرب .

فلنتبع الآن هذه النصيحة ولنلقَ نظرة سريعة على عدد قليل من قــادة الماضي، ولنرَ هل نستطيع أن نكشف سر نجاحهم – أو لماذا أخفقوا ؟.

ان قادة القرن العشرين يلائمون غرضي أكثر من غيرهم ، لان تجاربي الخاصة في القيادة العسكرية تقدم أحسن الفائدة من وجهة التحليل الانتقادي لأعمالهم . على اننا يجب أن نبحث في قائدين من قـــادة العهود السابقة – جنكيز خان من القرن الثاني عشر، والذي تعدّ حروبه مثالاً ممتازاً لمبدأ قابلية الحركة ،وفون مولتكه Von Moltkee من القرن التاسع عشر، والذي كان أول من أوجد مبدأ « الأمة في السلاح [1]» . وسأبحث في هذين القـــائدين باختصار يكفي لإيضاح التشابه بينهما وبين قادة القرن العشرين ، وللبرهان على ان القادة العسكريين ، على مر العصور ، بنوا حركاتهم على مبادىء الحرب نفسها التي نطبّقها اليـوم – وهو الأمر الذي يبرهن في الحقيقة على مـــا سبق ان قلته من ان هذه المبادىء قديمة قدم الزمان .

جنكيز خان

لم تظهر السنين الذي أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية قيادة عسكرية بارزة ، برغم ما حـدث فيها من حروبٍ كثيرة ، وسفكت فيها دماء غزيرة . وأظن ان الصليبيين كانوا أعظم مجهود عسكري في تلك الأيام، وربما كانت الحملات الصليبية شريفة في غاياتها، الا انها لم تنتج دروساً في فن القيادة[2].

وبالنظر لعدم تيسّر القيادة الحاذقة في هذه الحملات فقد استخدم الرجـــال

---

١ – « The Nation in Arms » وهو المبدأ الذي يقضي بوجوب إعداد الأمة كلها للحرب كوسيلة للفوز بها . وقد نشأ هذا المبدأ بعد أن أصبحت الحروب إجماعية ، لا تقتصر على القوات المسلحة في الميدان بل تشترك فيها الأمة بأسرها .

٢ – هذا في جانب الصليبيين ، أما في الجانب الاسلامي فقد برز السلطان صلاح الدين الأيوبي قائداً عظيماً استطاع ببراعته العسكرية الفائقة من دحر الحملات الصليبية الواحدة تلو الأخرى وانقاذ البلاد الاسلامية . (المترجم) .

المقاتلون كالدروع وأهملت قابلية الحركة ، واعتبرت القوة النارية قليلة القيمة، وأعطيت للمباغتة أهمية ثانوية .

ثم ولد جانكيزخان سنة ١١٦٢ بعد الميـــلاد . وكان ابن ملك ثانوي أو رئيس من رؤساء الرعاة المغوليين . وقد توفي أبوه وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره . وفي هذه السن المبكرة وجد الولد (الرئيس) ان من الضروري أن يقاتل من أجل السيادة — وقـــد نجح في الحصول عليها . وفي الأربعين سنة التي أعقبت ذلك قاتل باستمرار حروباً قبائلية ، لكنه لا تتيسّر لدينا سجلات عن الانتصارات الكبيرة التي حققها فيها. وفي هذه الحروب تعلّم مهنته، واكتسب المهارة العظيمة التي أخذ يظهرها فيما بعـــد . وفي سنة ١٢١٣ حقّق ، وهو في الحادية والخمسين من عمره، نجاحه الكبير الأول بإسقاطه الامبراطورية الصينية. وكان الصينيون قد اتخذوا خطه الدفاع الثابت مهملين قابلية الحركة[١] والمهارة في الميدان ، وذلك كما فعلت الدول الأوربية في الحرب العالمية الأخيرة . ولـكي يدافع الصينيون عن بلادهم وضعوا ثقتهم كلها بالسور العظيم . لكن جنكيزخان اخترق هـــذا السور في ثلاثة أماكن ، واكتسحت قواته بعدئذٍ الامبراطورية الصينية . وقضى السنوات الست التالية في إعادة تنظيم الجيش المغولي، وبنتيجة توحيد المعرفة الصينية والوحشية المغولية انشأ جهازاً حربياً لم يشهد التـــأريخ له مثيلاً من قبل . وقد أطلق على القوات المغولية اسم « القطيع الذهبي » وكانت هذه تقتصر على الخيالة وحدها، وكان سلاحها الرمح والسيف والقوس والمنجنيق المستعمل للصولة[٢] . وكانت القوة النـــارية كثيفة ودقيقة ، ويسبق كل هجوم مغولي قصف بالمقذوفات دائماً . أما قابلية حركة هذه القوات فـكانت عظيمة إلى درجة لا يمكن أن تصدّق .

---

١ — قابلية الحركة — (Mobility) — هي قابلية قوات الجيش على التنقـل في مختلف أنواع الأراضي في الحرب . (المترجم)

٢ — الصولة (Assault) هي الحمـلة على العدو من مسافات قريبة لغرض التماس والاشتباك به . (المترجم)

وكان من عوامل النجـــاح الكبرى أساليب الاستخبارات . فـكان المغول يستخدمون تعبوية الرتل الخامس و، يستهدفون اضعاف معنويات العـدو بالدعاية وبالاستعانة بالخونة . وقـــد استعملوا الرعب أيضاً وسيلة لاضعاف المعنويات ، ويرى المؤرخون ان جنكيز خان كان مسئولاً في غزوه للصين ، عن هلاك نحو ١٨ مليوناً من الناس . وصار الخوف الذي يبعثه اسم المغول بعدئذ عاملاً كبيراً في فشل الدفاع .

ولا شك ان التأريخ سيذكر ان جنكيزخان كان أكثر قادته العسكريين وحشية ، وان كان البعض قد نافسه في هذه الصفة في الأزمنة الأخيرة . غير انه يمكن القول ان وحشيته كانت منطقية ، فقـــد كانت تستهدف اضعاف إرادة العدو على القتـــال ، وإثارة الحماس في أفراد قبائله القساة الوحشيين في الوقت نفسه . لذلك يجب أن تضاف صفـة الوحشية إلى الصفات الأخرى التي يتحلى بها هذا القائد .

ان دراسة حروب جنكيزخان تظهر لنا انه كانت لديه معلومات عن مبادىء الحرب[1] نفسها التي نطبّقها اليوم – وهي المبـــاغتة وقابلية الحركة والتحشّد والأمن والعمل التعرّضي والاهتمام بالمعنويات . وبالإضافة إلى هذه المبادىء كان يسعى لادامة هدفه بعزم وثبات . ويحرص دائماً على التـــأكد من أن كل هدف مرغوب فيه سوقياً (استراتيجياً) يمكن تحقيقه تعبوياً بالقوات المتيسّرة لديه . فـكان يرفض رفضاً باتاً التـورط في مخاطرات إذا وجدها فوق طاقة جيشه . انني أضع هذا القائد المغولي جنكيز خان في الصف الأمامي للجنود العظام – وأعدّه قائداً عسكرياً من أعلى طراز . وتعد حمـــلاته العسكرية نماذج في فن الحرب . وقـــد امتدت فتوحاته من الهنـد في الشرق حتى بولندة والمجر في الغرب . ومات سنة ١٢٢٧ . واستمر قواده بعـد موته على القيام بحمـــلات

---

١ – ان مبادىء الحرب – هي المبادىء التي يستهدي بها القـــائد في الحرب . وهي توخي الهدف والتعرض والمبـــاغتة والأمن وتحشيد القوة والاقتصاد في القوة والتعاون وقابلية الحركة . ويضيف إليها بعض الجيوش مبدأ ادامة المعنويات والمرونة والشؤون الادارية . (المترجم)

عسكرية باهرة في الغرب ، فاحتلوا روسيا المركزية حتى موسكو . وفي سنة ١٢٤١ بدأ غزوهم الناجح لبولندة والمجر . ثم استدعيت الجيوش المغولية لتعالج المشكلات الداخلية في بلادها الأصلية . ولولا ذلك لكان من المحتمل احتلال القوات المغولية سهل أوربا بأسره احتلالاً دائماً .

ما هو الدرس الذي يجب أن نتعلمه من ذلك كله ؟ . لا شك انه يجب أن لا نستهين بالقوات الآسيوية . فمن مناطق آسيا الشاسعة قد تأتي مرة أخرى قوة غازية يجب أن يستعد العالم الغربي لمجابهتها .

فون مولتكه

سأتخطى الآن نحو ٦٠٠ سنة. وقد رأت هذه الحقبة كثيراً من الشخصيات الممتازة تمرّ على المسرح العسكري – أمثال روبرت بروس وادورد الثالث وهنري الخامس وتورين ومالبرو ونابليون ونيلسون وولنغتون وروبرت لي .

ان هؤلاء القادة العظام معروفون جيداً . وقد كتب عنهم المؤرخون كثيراً إلى درجة لم يعد معها في الحقيقة غير القليل الذي يمكن أن أفيد به القارىء .

وفي الأزمنة القديمة ، بل والى أيام مالبرو وولنغتون ، أرسلت بريطانية « فريقاً » إلى ما وراء البحار ليقاتل حروبها . ولم تكن الأمة البريطانية منظمة للحرب أو مهيأة لها. وربما لم تعرف جموع الناس غير القليل عما كان يجري في العالم .

وكانت بروسيا أول أمة أدركت مفهوم « الأمة في السلاح » ، فدعنا إذن نخطوا إلى تلك الحقبة – الحقبة التي احترف فيها الألمان الحروب .

كان مولتكه رئيساً للأركان العامة لبروسيا من سنة ١٨٥٧ إلى ثلاثين سنة بعدها . وقد لعب دوراً كبيراً في شؤون بلاده العسكرية تحت رئاسة رئيسه بسمارك ، كما لا يخفى ذلك على القارىء .

وكان بسمارك يرى ان مصير بروسيا وتأسيس امبراطورية المانيا لا يمكن أن

يتقرّر الا بالحرب ، وانه يقتضي لهذا الغرض انشاء دولة عسكرية . وقد بدأ في تحقيق هذه المهمّة بمعونة (رون) وزير حربيته وفون مولتكه رئيس الأركان العامة .

وكان مولتكه أستاذاً في التنظيم . وقد انتفع كثيراً من التجارب الماضية . وأدرك انه إذا صمّمت الدولة على أن تحارب يقتضي لها اعداد قوة الأمة البشرية لتحقيق مقتضيات الحرب . ويجب أن تكون منظمة النقل الوطنية ملائمة للتنقلات الواسعة التي تتطلبها الحرب . وفي سنة ١٨٧٠ كان مولتكه قد نظّم النفير الالماني تنظيماً يساعد على وضع مليون جندي ، مجهّزين تجهيزاً كاملاً للقتال ، على حدود فرانسة خلال اسبوعين من استلامهم الأمر .

وكان مولتكه في السابعة والخمسين من عمره عندما أصبح رئيساً للأركان العامة لبروسيه سنة ١٨٥٧ . ولم يكن قد قاد حتى كتيبة واحدة . إذ كان ضابط ركن ليس الا . وتنم صورته عن مظاهر موروثة مع جبهة عالية . وهو يبدو كثير الشبه بالدارس والمفكر – وقد كان حقاً كذلك .

وقد أعطى مولكته للحرب مفهوماً جديداً . إذ استفاد من السكة الحديد لزيادة قابلية الحركة التعبوية والسوقية . وكان نابليون قد اضطر من جراء نقص الطرق وضعف الاستخبارات الى حشد كتل الرجال في النقطة الحاسمة لإنزال ضربة مركّزة ، وهذا هو أسلوب الخطوط الداخلة[1] في الحقيقة . أما مولتكه فبالاستعانة بوسائط النقل والمواصلات الجديدة (وهي السكة الحديد) ، ابتدع أسلوباً جديداً الا وهو أسلوب الانفتاح المنتشر على الخطوط الخارجة[1] . إن لهذا الأسلوب فائدة أخرى إذ يمكن الاستفادة من السكك الحديدية في نقل القوات بسرعة من الغرب إلى الشرق وبالعكس ، وهذا مما يساعد على المرونة

---

١ الخطوط الداخلة : وهو أسلوب سوقي يعمل به القائد في الحرب عندما يهاجمه العدو وبعدة ارتال ، فيدافع إزاء بعضها بقوات قليلة ويهاجم أحدها بقوات فائقة وبعد أن يتغلب عليه يهاجم رتلاً آخر وهكذا . أما أسلوب الخارجة فهو الذي يعمل به المهاجم إذ يتقدم على المدافع بعدة أرتال مستهدفاً ارتاله والتغلب عليه . (المترجم)

الاستراتيجية في حالة الحرب على جبهتين . بل وصرّح مولتكه مرة" ان التنظيم والتطوير الصحيحين لمنظومة السكك الحديدية هما أهم من تشييد تحكيمات الحدود . ومما لا شك فيه انه كان على صواب .

وقد أدى تطوير منظمة النقل الى ضرورة تحسين منظمة القيادة . فاصبح في الامكان ادامة جيوش اكبر في الميدان . وصارت الجيوش تتنقل وتحارب على جبهات أوسع من ذي قبل . وغدا من الضروري زيادة المرونة في السيطرة على الجيوش. وكان نابليون يطلب من مارشالاته الطاعة العمياء ، ولم يكن ليستفيد من الفردية[1] إلا قليلاً . ونجم عن ذلك ان قواده ، عندما كانوا يعملون وحدهم يخفقون في الغالب . أما مولتكه فقد درّب قادته على أن يفكروا ويعملوا حسب إبداعهم الذاتي، بانين حركاتهم على وصاياوتوجيهات عامة . وقد أعطى قواده وضباط ركنه تدريجياً « خطاً عاماً » على الارض ليعملوا عليه . وهكذا تكونت هيئة الاركان الالمانية العامة التي صارت تعد فيما بعد منظمة مشؤومة تخطط للحروب العدوانية، وتقحم نفسها في مختلف أنواع الدسائس. ولكن مهما قيل عن هيئة الاركان الالمانية العامة، فانها كانت الرائدة لاعمال الاركان العسكرية كما نعرفها اليوم . وكانت تتمتع بمنزلة عظيمة — وقد حطمها هتلر أخيراً وربما كان على صواب في ذلك .

كانت قيادة مولتكه خلال حرب ١٨٧٠ إزاء فرنسه تختلف كثيراً عن قيادة القادة الآخرين الذين درسناهم . فقد أدار الحركات من مقر بعيد في الخلف . وكانت استراتيجيته تمتاز في دقة التخطيط ودقة الاستحضارات ، اكثر من كونها تنطوي على خيال واسع او براعة في المناورة . وقد عرف بأن الافرنسيين لم يتهيأوا للحرب، ولكن ليس بالدرجة التي ظهرت فيما بعد. فقد قرأنا أن المجندين الافرنسيين ملأوا مراكز النفير والقلاع من غير بزات عسكرية او سلاح . وان هيئة الاركان الافرنسية لم تهيأ مناهج ملائمة للتنقلات . وان احدى الكتائب الافرنسية نزلت من القطار في إحدى مدن الحدود التي كان الألمان قد احتلوها

---

١ — يعني المؤلف بذلك ان نابليون لم يكن يتبع اسلوب اللامركزية في القيادة .

قبل مدة وجيزة ! ومقابل هذا كله ، قـدّم مولتكه ارتاله ببطءٍ نحو الحدود الافرنسية وعلى جبهة واسعة ، ولكن بعد أن تحقق من اسناد بعضهـــا للبعض الآخر . ويبدو انه لم تكن لديه خطة شاملة كبرى للحملة . وكان مقصده التقدم بثبات، وفي نظام معركة جيد والاشتباك مع الافرنسيين اينما يصادفهم. وكان على ثقة من ان انفتاحــه على الخطوط الخارجيـــة سيضمن له السيطرة على المعركة وسيحقق له الظفر — وقد حقق له الظفر حقاً. ولم تكن خطته ملهمةً ، ولكن الحوادث برّرت نجاحها — وهو أمر لم يتحقـّق لخططٍ اخرى كانت اوسع خيالاً في مفهومها من خطته .

مـا هي منجزات فون مولتكه في فن القيادة العسكرية ؟ لا شك أننـــا اصبحنا في عهـــده على عقبة التنظيم الذي يعبىء الموارد الوطنية ويهيأ « الأمة للحرب » . وقـد مهّد السبيل الى قابليـــة الحركة السوقية ، بتحسين شبكات السكك الحديدية . وابتدع أسلوباً جديداً للقيادة . كل ذلك متفق عليه . وقد أعد للحرب عدتها ، ولكن ليس من الواضح لدينا إن كان في وسعه ان يحسن استعمالها إزاء خصم ماهر ؟— ولا أحد يستطيع ان يدعو نابليون الثالث خصماً ماهراً !.

هل نستطيع ان نجعل مولتكه في الصف الأمامي للجنود العظام ؟ . أشك في ذلك فقد كان رئيساً عظيماً للاركان العامة، وكان منظماً ومفكراً لكنــه من الصعب ان نقول انه كان عبقرياً في المعركة .

القادة العسكريون في القرن العشرين

الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨

الآن وقد بلغنا عصر « الأمة في الحرب » ، أرى ان نخطو الى الأمام خمسين سنة أخرى ، لنصل الى حرب قيصر (١٩١٤ – ١٩١٨) تلك الحرب التي تعرف عموماً بالحرب العالمية الاولى . وقد ظهر في الحرب القـــادة الذين يمكن البحث

فيهم . وسأختار اثنين من قادة الجبهة الغربية في فرنسة ، وهي الجبهة التي خدمت فيها من آب ١٩١٤ حتى نهاية الحرب – فيما عدا فترة قضيتها في انكلترا المعالجة من جرح بليغ . وان القائدين اللذين اخترتهما أصبحا في عداد الأموات .

فرينج French

انني لم أتعرّف بهذا القائد، وان كنت قد خدمت تحت قيادته منـــذ الايام الاولى لشهر آب ١٩١٤ ، بل وإني لم اشاهده أبداً . وان ما سأذكره هو خلاصة لما سمعته عنه من الآخرين في ذلك الوقت او بعدها ، وبنتيجة لدراستي للمـدة التي قضاها قائداً عاماً للقوات البريطانية في الجبهة الغربية .

كان فرينج جندياً خيّالاً . وقد نال شهرة واسعة في حرب جنوبي إفريقيا . وعندما التحقت بالجيش سنة ١٩٠٨ كان فرينج يعدّ احسن قائد محارب لدينا. وقد رُقّيَ بعدئذ الى منصب رئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية ، لكنه استقال في مارس ١٩١٤ بعد ان ارتطم بالقضية الايرلندية . على انه استدعي إلى الخدمة الفعلية في آب ١٩١٤ ، ليقود قوة الحملة البريطانية التي تقرّر ارسالها الى فرنسة لتقاتل جنباً الى جنب مع الجيش الافرنسي .

ولم يكن فرينج ماهراً في فن القيادة، لكنه كان جندياً بطبيعته، وموهوباً بشيء من قوة الخيال . ولا شك انه احتاج الى جميع صفات الجندية التي كان يستطيـع ان يجمعها في أثناء المدة التي قضاها قائـداً عاماً للجيش البريطاني في فرانسه – تلك الفترة التي لم تدم طويــلاً اذ استغرقت من آب ١٩١٤ حتى نهاية ١٩١٥ . وكان فرينج وقتئذٍ في الثانية والستين من عمره اذ ولد سنة ١٨٥٢ .

ولكن لماذا أخفق فرينج؟. لإيجـاد الجواب على هذا السؤال من الضروري ان نلقي نظرة سريعة على ما حدث في الشهور الثمانية عشر التي تولى خلالها القيادة.

عندما وصل فرينج الى فرانسة مع قوة الحملة البريطانيـــة في آب ١٩١٤ لم يكن يعرف الشي الكثير عن الخطط الافرنسية ، كما لم يعرف عنها أي شخص آخر في لندن . فقد كانت هذه الخطط في طي الكتمان . لكنه علم بأن النفير

الافرنسي كان خاطئاً . فان هذه الامة قد اعتمدت دوماً على طريقة النفير الواسع النطاق[1] لإعداد جيشها، وفي آب ١٩١٤ لبّى الدعوة فوراً أكثر من مليون من جنود الاحتياط ، واحتشدوا في المستودعات التي كانت تعاني نقصاً في التجهيزات والسلاح والضباط .

وكانت التعاليم العسكرية الافرنسية تقضي بالهجوم دائماً : « تحيا فرانسة ! الى الامام ! » وقد قام الافرنسيون بالهجوم ابتداءاً من ٢٠ آب في المنطقة الواقعة جنوب ميتز (Metz). وكان المشاة يرتدون البزات الزرق والحمر ، وضباط المدفعية البدلات السود المطرزة بالأشرطة الذهبية. وكانت الخيالة تتدرع بالدروع أحياناً . وكان الغزو الألماني قد بدأ ، ولكن الافرنسيين هجموا قبل ان ينجلي الموقف ، وقبل ان يعرفوا فيما إذا كانت الأحوال ملائمة للهجوم أم لا ؟ فكانت خسائرهم فظيعة . ففي تلكم الهجمات التي لم يكن لها موجب، والتي شنت على طول الحدود الافرنسية ، بلغت خسائرهم اكثر من ٣٠٠٠٠٠ جندي خلال مدة قصيرة . ومن المحتمل ان الألوان الزاهية للبزات العسكرية الافرنسية قد ساعدت على زيادة الخسائر وفي الوقت نفسه كانت اصطدمت بالقوة الساحقة لحركة الاحاطة الالمانية المندفعة في بلجيكا ، بالجناح الايسر لجبهة القتال الافرنسية البريطانية . وكان المفروض ان يقوم الجناح الأيسر هذا ، الذي يشتمل على الجيش البريطاني ، بالهجوم على الألمان . ولكن الجيش البريطاني لم ينجُ من الكارثة التي أحدقت به، الا بالقرار الذي اتخذه السير جون فرينج، للانسحاب، بالتعاون مع الجيش الافرنسي الخاص الذي كان في يمينه (والذى كان يقوده الفريق لانريزاك (Lanrezac) ، وبالمقاومة العنيدة التي ابداها المشاة البريطانيون، وبالنيران الصائبة التي صبتها بنادقهم على العدو.

إن جميع هذه الأمور المتعلقة بالجيش الافرنسي كانت معروفة لدى السير جون فرينج. وإني لا أدري ما الذي أثرته حركة الجيش الافرنسي في تفكيره،

---

١ – وهي الطريقة التي تسمى بالافرنسة « Levée en Masse » أي النفير بالجملة .

٢ – « Vive la France! En Avant !»

وهل بقي يثق بالفريق جوفر الذي كان قائداً عاماً للجيوش الافرنسية، ومسئولاً عن الخطة الاستراتيجية في الجبهة الغربيـة . لكنه كتب إلى جوفر في ٢ أيلول ١٩١٤ عارضاً عليه استعداده لزجّ الجيش البريطاني بأسره في المعركة ، فيما إذا استدار الافرنسيون ودافعوا أمام الألمـان على خط المارن (Marne) . الا ان جوفر رفض هذا العرض . وقد وقعت بعدئذٍ معركة المارن بالفعل، ولكن ليس بناءاً على الإبداع الذاتي لجوفر ، بل اضطرّه إلى ذلك اللواء كاليني الحاكم العسكري لباريس .

وقد أعقب ذلك ، اتساع جبهة المعركة حتى البحر الشمالي – وهو ما يسمى أحياناً بـ « السباق إلى البـحر » – وما عاناه الجيش البريطاني في قتـاله في بلجيـكا ، ولا سيما في معركة ايبرس (Ypres) الأولى في خريف وشتاء سنة ١٩١٤ .

وفي نهاية ١٩١٤ حدث توقف بين القوات الجبـارة للطرفين ، وامتد خط الخنادق من سويسرا حتى البحر الشمالي، واستحوذ الجمود على جبهة القتال. وحلّ الشتاء على الجنود المتعبين، وشل الاعياء الجيوش المتحاربة – الالمانية والافرنسية والبلجيكية والبريطانية – فتحوّلت الحرب إلى حرب الخنـادق . وسيطرت الأسلاك الشائكة والرشاشات على ميدان المعركة، وحاول القادة في كلا الجانبين عبثاً ، اختراق الجبهات المتقابلة ، فلم يهتدوا إلى حل لذلك ، ولم تثمر محاولاتهم غير ضياع المزيد من الأرواح . وفي سنة ١٩١٥ حاول السير جون فرينج مخلصاً إسناد الفريق جوفر الذي كان المسئول عن الاستراتيجية في الجبهة الغربيـة كما سبق ان قلت . فقاده إخلاصه إلى مخاطرات وخيمة ، كالهجوم في نيف شابيل (Neuve Chapelle) في مارس ١٩١٥ ذلك الهجوم الذي بلغت فيه خسائر البريطانيين ٢٠٠٠٠ جندي بدون أن يحصلوا على نتيجة تذكر . ثم حـدثت معركة (لووس) (Loos) في أيلول ١٩١٥ ، وكان في ذلك الخذلان النهائي لفرينج . فقد أديرت هذه المعركة إدارة سيئة ممـا أدّى إلى وقوع ٩٥٠٠٠ من الخسائر في الجيش البريطاني .

وكانت الحرب المنهكة تأكل الأرواح البريطانية بسرعة أذهلت الحكومة البريطانية في لندن ، فعزل فرينج عن قيادته في كانون الأول ١٩١٥، وعهدت إليه بقيادة القوات المرابطة داخل الجزر البريطانية . وحـل محلّه في القيادة السير دوكلاس هيك (Doglas Haig) .

أما جوفر فقد بقي سنة أخرى في منصبه ، وفي كانون الأول ١٩١٦ رقّي إلى رتبة مشير ثم عزل عن قيادته .

هل كان فرينج قائداً عظيماً ؟ . إن جوابي هو « كلا » . فعلى القائد أن يفحص الحقـائق والموقف والظروف ليتوصل إلى خطة العمل الصحيحة ، وفرينج لم يتوصّل إلى الحل الصحيح . وكان ضحيّة ظروف ثبت أن معالجتها كانت فوق طاقته ، مما أدّى إلى إخفاقه . وربما كان إخلاصه لجوفر عظيماً ، ولكن ذلك لا يعتبر حرباً ! .

وعلى المرء أن يضيف إلى ذلك كله ان القـدر شاء أن يكون فرينج قائداً برتبة عالية جداً في بداية حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ . فإننا البريطانيين ، نبـدأ حروبنا دوماً بسلسلة من الكوارث المروّعة ، وذلك لاننا نهمل إعـداد القوات المسلّحة في زمن السلم . وعندما تنشب الحرب لا تتيسّر لدينا القوى البشرية المدرّبة ، أو المعدات اللازمة لخوض غمارها ويقتضي لنـا الاستمرار في الحرب سنة أو سنتين يجري خلالها تبديل القائد العام في الميدان ، لأن رؤساء الوزارات يحبون القادة العسكريين الذين يربحون الحرب . وهم على حق ، أليس من واجب هؤلاء القـادة ربح الحروب ؟. إن الدرس المستنبط من ذلك هو أن لا تكون ضابطاً كبير الرتبة في بدء الحرب ! لقد كنت أنا برتبة لواء في بداية حرب هتلر سنة ١٩٣٩، وكنت ولا شك في منطقـة الخطر . ولكنني بقيت مع ذلك حتى النهاية . وكقاعدة عامة ، ربما كان آمن لك أن تكون عقيداً جيّداً وشاباً ، في الأدوار الأولى من الحرب حيث لا يعرفك السياسيون ولا الصحافـة .

هيـغ

كان هيغ مثل فرينج جندياً خيالاً . وفي سنة ١٩١٤ تولّى قيادة منطقة اولدرشوت العسكرية . ثم عهد إليه بقيادة الفيلق الأول وتم نقله إلى فرانسه ، وذلك في آب من السنة نفسها . وكان وقتئذٍ في الثالثة والخمسين من عمره. وإنني لم أتعرّف إليه .

كان هيغ « غربياً » (Westerner) على حد تعبير تلكم الأيام . أي انه كان يعتقد بحماس ان الجبهة الغربية في أوربا هي الجبهة الحاسمة . ففيها ، وفيها وحدها ، يمكن ربح الحرب أو خسرانها . وإنه ينبغي إرسال جميع مواردنا في القوى البشرية والمعدات الحربية إلى ميدان المعركة في الغرب . وإن التفكير في أية استراتيجية « شرقية » هي خارجة عن الصدد . وكان في وسعه طبعاً أن يشير إلى حملة غاليبولي كمثال لعقم الاستراتيجية الشرقية . وقد بدأت هذه الحملة في ٢٥ نيسان ١٩١٥ ، وانتهت في ٨ كانون الثاني ١٩١٦ بإخلاء جميع القوات المشتركة فيها . وكانت خسائرها فادحة جداً . أما رأيي في مغامرة غاليبولي فهو انها كانت مغامرة ممتازة . ولو انها دبّرت تدبيراً صحيحاً منذ البداية لكان من المحتمل نجاحها . ولكنها لم تدبّر تدبيراً صحيحاً فكان نصيبها الفشل . ثم خلي الميدان « للغربيين » يرأسهم رئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية (سر وليم روبرتسون) وهيغ . فاستمروا في الحرب المنهكة — التي كانت تفتك بقوى الجيوش والأمم . ولم يكن فيها استراتيجية أخرى كما لم تكن فيها غير تعبئة قليلة . وكانت الحرب في الواقع امتحاناً جباراً لقابلية التحمّل .

وفي تموز ١٩١٦ جاءت معركة السوم (Somme) التي استمرت حتى تشرين الثاني ، وكانت الخسائر البريطانية تنوف على ٤٠٠،٠٠٠ جندي — سقط منهم في اليوم الأول من المعركة ٦٠٠٠٠ جندي ، بما في ذلك القتلى البالغ عددهم ٢٠،٠٠٠ .

وفي ربيع ١٩١٧ أصيب الجيش الافرنسي بخسائر فادحة جداً في هجوم

قام به قرب نيفيل (Nivelle) .وحدث من جرّاء ذلك تمرّد خطير بين صفوف الجنود وتدهور شديد في المعنويات . وقد طلب بيتان (Petain) الذي حل محل جوفر في قيادة الجيوش الافرنسية ، المزيد من الفعالية من الجيش البريطاني ليخفف الضغط عن الافرنسيين . فاستجاب هيغ لطلبه ، ولكن بشيء من الاحجام . ثم حدثت معركة ايبرس الثالثة التي بدأت في تموز ١٩١٧ واستمرت الى ما بعد الشتاء ، وبلغت ذروتها في الاستيلاء على عارضة باشندال (Passchendaele) . وكان الخريف ممطراً جداً فاستمرت الامطار تتساقط بلا انقطاع تقريباً . فانقلبت الارض الى مستنقع ، وحارب الجنود وماتوا في الوحل – وغرق كثيرون منهم في حفر القنابل . وكان مجموع الخسائر البريطانية نحو ٢٥٠،٠٠٠ جندي .وظل الجنود البريطانيون يتذكرون « باشندال » والرعب يملأ قلوبهم – بل لا زالوا يذكرونها حتى اليوم .

ثم جاءت المعركة البارعة الوحيدة في اختبار التحمل العظيم هذا – معركة كامبري (Cambrai) . ان أحسن من كتب عن هذه المعركة هو الكاتب العسكري ليدل هارت في الجزء الاول من كتابه الممتاز « الدبابات » الذي صدر سنة ١٩٥٩ . واستخدمت في كامبراي كتلة واحدة للمرة الأولى . وقد بدأت هذه المعركة بنجاح عظيم يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ ثم انتهت نهاية سيئة بعد نحو عشرة أيام ، وذلك من اخطاء القيادة العليا في إدارتها . فضاعت بذلك منا فرصة كبيرة . ولكن معركة كامبري كانت ، مع ذلك ، علامة بارزة في تاريخ الحرب البريطاني .

وبدأت أرقام الخسائر التي حدثت سنة ١٩١٧ تفعل فعلها في رئيس الوزراء المستر لويد جورج . وكان هذا قد بدأ يشك في كفاءة هيغ بعد معركة السوم ، ثم زاد شكه بعد باشندال ، وها هو ذا الشك يتضاعف الآن ، وكان ذلك يعني ان هيغ قد بدأ يفقد ثقة رئيسه السياسي . ولا ريب ان هذا الشك كان عائقاً كبيراً في ادارته للحركات .

وهكذا انتهت سنة ١٩١٧ نهاية سيئة بالنسبة لهيغ . ولكن كثيرين

سيقولون ان ثباته وصلابته وقيادته عام ١٩١٨ هي التي ساعدت على انهاء الحرب في تشرين الثاني من تلك السنة بانهيار المقاومة الالمانية . فبعد دحر ثلاث هجمات ألمانية كبرى سنة ١٩١٨ ، جرت أولاها في ٢١ مـــارس في السوم والثانية في ٩ نيسان في ليز (Lys) والثالثة في ٢٧ مايو في شمـان دي دام (Chemin Des Dames) – وقد اشتركت في جميعها وأنا برتبة رائد – بعد هذه الهجمات الثـلاث الفاشلة استيقن هيغ بان الحرب يمكن أن تربح ، بل يجب أن تربح في سنة ١٩١٨ ، إذا أحسنـّا التصرّف في خططنا .

ولكن ربح الحرب سنة ١٩١٨ كان يتطلب قراراً جريئاً وركوب المخاطر . وقـــد نشر كتاب ممتع جداً في الولايات المتحـــدة الامريكية سنة ١٩٥٩ يسمى « قرارات القيادة ». وهذا الكتاب عبارة عن دراسات قام بها جماعة من المؤرخين العسكريين . وقـــد نبّهني إليه جون نورث لعلاقته بحركة آرنيم التي جرت في أيلول ١٩٤٤ . وكان المؤرخون قـــد قرّروا ان معركة آرنيم كانت مناورة استراتيجية جريئة ، كان لها ما يبرّرها تبريراً تاماً . لكن النقطة الجديرة بالملاحظة ، هي أن المؤرخين يقارنون الموقف بعد الظفر العظيم في نورماندي في آب ١٩٤٤ مع ذلك الذي حـــدث في فرانسه في صيف ١٩٤٨ . وكان هيغ القائد العسكري الوحيد الذي أيقن بان الحرب العـالمية الأولى يمكن أن تنتهي وتربح سنة ١٩١٨ . واننا نقرأ في كتاب قرارات القيـــادة الصحيفة ٣٤١ ان هيغ كتب ما يلي في صيف ١٩١٨ :

« ان الاخطار التي كان الإقدام عليها قبل شهر واحد يعتبر جريمـــة ينبغي تحمّلها الآن كواجب من الواجبات » .غير ان فوش الذي كان وقتئذٍ قائداً أعلى في الجبهة الغربية ، لم يكن واثقاً ك (هيغ) من أن الحرب يمكن أن تنتهي سنة ١٩١٨ . وقد أقنعه هيغ بأن يكون جريئاً ، وثبت انه كان مصيباً في رأيه ، إذ انتهت الحرب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ .

كان هذا إنجـــازاً عظيماً من منجزات هيغ . وكما كتب جون نورث سنة ١٩٥٩ :

« إن من المحتمل جداً ان هيغ قد أنقذ العالم من سنة حرب أخرى ، لا بد وان خسائرها في المدنيين والعسكريين على السواء ، ومن جراء المرض وتخريبات الحرب على العموم ، كانت ستجعل أرقام باشنداال تبدو وكأنها قزم أمامها »

ان هذا القول لا يختلف فيه إلا القليل من الناس – بل هو في الواقع دون الحقيقة. وأود ان أضيف الى ذلك فأقول انه بعد ست وعشرين سنة تماماً حدث الموقف نفسه . ونحن الآن نعاني من جرّاء عجز القيادة الامريكية العليا بعد الظفر العظيم في نورماندي في آب ١٩٤٤ – كما ذكرنا ذلك في الباب الثاني .

هذا واني أجد صعوبة كبيرة في القرار على المكان الذي يستحقه هيغ في التأريخ كقائد عظيم لا شك انه ارتكب اخطاء ، وقد مني الجيش البريطاني تحت قيادته بأفظع الخسائر . وفي وسعي القول انه كانت تعوزه قوة الخيال . ولكنه كان رجلاً ذا خلق متين ، شجاعاً وذا عزم عظيم . فهو لم ينثنِ في الشدائد والمحن . وكان ثابت الرأي ، لا تتزعزع ثقته بنفسه. وكانت له أساليب خاصة في إدارة الحرب، يطبّقها من دون هوادة . وقد أدت أساليبه إلى الظفر، ولكن المرء لا يسعه الا أن يشعر انه ربما كان في الإمكان إنجاز كل ما قام به بأساليب أحسن .

ولا شك ان الجنود كانوا يؤمنون به . وقد يعتقد البعض ان هذا القول غريب . لأن هيغ كان رجلاً خجولاً . وفي رأيي الخاص انه لم يختلط مع المراتب لأنه كان يجد صعوبة في التحدث إليهم . وان الحكاية التالية توضّح هذه النقطة :

كان من عادة هيغ أن يفتش القطعات وهو صامت صمتاً تاماً . فلا يكلّم أحداً أبداً . ويقال ان أحد ضباط ركنه أشار عليه ذات مرة أن يتحدث مع جندي أو جنديين اثنين أثناء التفتيش ، إذ ان ذلك مما سيترك انطباعاً حسناً لدى الجنود . وبناء على هذه المشورة سأل هيغ أحد جنوده أثناء تفتيشه « أين

بدأتَ هذه الحرب [1] ؟» فأجابه الجندي « انني لم أبدأ بهذه الحرب وأظن أن القيصر بدأ بها » .

وقد علمت بانه قرر بعد هذه الحادثة ان خطته السابقة في السكوت كانت مصيبة . ولكن برغم ذلك كله ، استطاع هيغ أن يوحي إلى الذين كانوا تحت إمرته شيئاً من ثباته وشجاعته . هذا وقد ناقشنا اثنين من الشخصيات العسكرية البريطانية المعروفة جيداً في حرب قيصر وهما فرينج وهيغ . وهناك شخصيتان افرنسيتان مرّتا على مسرح تلك الحرب وهما جوفر وفوش . وقد عزل الأولان في كلتا الحالتين ، وهما فرينج وجوفر وبقي هيغ وفوش إلى الأخير . وأخيراً أودّ أن أختم هذه الفترة بالاستشهاد بعبارة للسير ونستون تشرشل ذكرها في الجزء الثاني من كتابه « الأزمة العالمية » وهي :

« ستروي هذه الفصول سقوط كثيرين من الرجال البارزين من المقامات العالية . وربما كان من المفيد في هذا الصدد ، أن نحذّر القارىء من الأحكام الجائرة أو غير المناسبة . لقد ساهم هؤلاء جميعاً في أدوارهم ثم سقطوا . ولا يعرف الا الذين نجحوا منهم بأي التواءات الحظ الخفيّة ودوراته قد تخلصوا من مصير مماثل » .

دعنا نترك ذلك كما هو .

وقد يقتضينا الأمر أن نتذكّر هذه الكلمات من وقتٍ لآخر كلما تقدّمنا في البحث .

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥

لقد بلغنا الآن العهد الذي ارتقيت فيه أنا نفسي مركز القيادة العالية ، والذي ولّيت فيه أخيراً منصب الرئيس المحترف للجيش البريطاني . وإني لا أريد أن أناقش صفات ومقدرة أي قائد من قادة حرب هتلر الذين لا زالوا أحياء يرزقون ،

---

١ – « Where did you start this War ? »

سواء منهم الذين خدمت معهم أو تحت أمرتهم أو لم أخدم . وسأختار بدلاً من ذلك لغرض الاختبار جنديين هما الآن في عداد الأموات، وهما غورت (Gort) ويفل (Wavell) . وقد اخترت هذين القائدين لا لأنهما لا يتمكّنان من الإجابة عليّ ، بل لانهما يفيدان في إيضاح غرضي. فالإثنان كانا من القادة العامين في إحدى ساحات الحرب . وسترى انه من الصعب اختيار شخصين آخرين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً كهذين :

غورت

لقد عرفت غورت منذ سنة ١٩٢٠ ، ولكنني لم أكن من أصدقائه المقرّبين، وأشك ان كان أي شخص آخر كذلك. وكنت في تلكم الايام احترم رأيه كثيراً، ولطالما سعيت في الحصول عليه . ولكن بعد أن زادت معلوماتي بمرور الزمن ، نتيجة القراءة والتجربة ، بدأت الشكوك تساورني في مقدرة غورت . لقد كنت أتطلّع إلى الامام . وأدرس بإمعان ما يكتبه وقتئذٍ المفكرون العسكريون الذين كانوا يحلّلون الماضي باستمرار، ويطبقون دروسه على المستقبل. فبدا لي ان غورت ينقصه الفكر الثاقب . كان يحب التفاصيل إلى درجة انه كان لا يرى الغابة لانشغاله بأشجارها [1] . وقد قام بدراسة عميقة لاستراتيجية حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ وتعبويتها. وكان، وهو القائد العام لقوة الحملة البريطانية في فرانسه سنة ١٩٣٩ – ١٩٤٠، يناقش باسهاب معارك سنة ١٩١٤ ، والطريقة التي أدار بها هيغ الحركات من سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب . إذ كان شديد الإعجاب بـ (هيغ) . وكان دارساً لـ (فوش) وكثيراً ما كان يردّد أقواله المشهورة ، ومن بينها هذه العبارة التي يفضلها بنوع خاص : « أجنحتي أحيطت، مركزي ينسحب ، إذن ، يجب أن أهجم ! » إن ذلك لم يثر اهتمامي كثيراً ، فقد كنت أريد أن أسمع من قائدي العام آراء حكيمة عن المعارك المقبلة مع

---

١ – Couldn't see the wood for the trees .

الألمان ، وكيف يجب أن تدار الحركات سنة ١٩٤٠ وليس ١٩١٤ .

وعندما اختـــار هوربليشيا غورت ليكون رئيساً لهيئـــة الأركان الامبراطورية العامة في أواخر سنة ١٩٣٧ ، كان الضباط الأقدمون في الجيش البريطاني يعرفون انه غير أهل لهذا المنصب . فـــلم يكن بارعاً في فن القيادة ، وكان يعوزه الخيال الواسع وقوة التصوّر فكان ضابط وحدة من الدرجة الأولى ، ولم يقد قطعة تزيد على اللواء .

ولقد أقمت في بيته مرتين . كانت الأولى في دلهي سنة ١٩٣٥ عندما كان مديراً للتدريب العسكري في الهند . وكان معه وقتئذٍ ابنه الذي كان في حينه تلميذ مدرسةٍ بهيج . وكانت الثانية في كمبرلي سنة ١٩٣٧ عندمـــا كان آمراً لكلية الأركان. وكانت معه في البيت ابنته الفاتنة . وكان من الصعب ، في تلكم الأيام ، ان تحمله على الكلام عن أي شيء عدا المـــاضي . وهو لم يترك لديّ انطباعاً في أي وقت كان ، يدلّ على انه شخص سعيد . فقد انتهى زواجه نهاية محزنة . وفقد بعدئذٍ ابنه حوالي ١٩٤١ . وبعد أن تقلّد منصب رئيس هيئـــة الأركان العامة الامبراطورية لم ينسجم مع وزير الحربية المستر هوربليشيا . وإني لم أعرف الكثير عن ذلك قبل بدء حرب هتلر . لكنه كان يبدو لي دومـــاً ، ان هوربليشيا انتهز الفرصة سنة ١٩٣٩ ليتخلّص من غورت بتعيينه قائداً عاماً لقوة الحمـــلة البريطانية . وهو لم يكن أهلاً لهذا المنصب أيضاً . وكنا نحن الضباط الأقدمون نعرف ذلك جميعـــاً . وكنت وقتذاك برتبة لواء وقائداً للفرقة الثالثة .

وعندما تولى قيادة قوة الحملة البريطانية في ايلول ١٩٣٩، كان في الثالثـــة والخمسين من عمره . وكان قائدا فيلقيه[١] ديـــل (Dill) وبروك (Brock) (وهو اللورد بروك الآن) . وكان ديل أقدم منه في الجيش ، كما كان الإثنان

---

١ – الفيلق قوة عسكرية تتألف من فرقتين فأكثر – والفرقة تتألف من ثلاثة ألوية وعدد من وحدات وكتائب الصفوف الساندة والخدمات. أما اللواء فيتألف من ثلاثة أو أربعة أفواج أو وحدات . (المترجم)

يمتازان عليه كثيراً في المعلومات العسكرية العامة وفي فن القيادة العليا . وهذا مما صعّب عليه الأمور . ومع ذلك فقد مضى في طريقه بهدوء . ويبدو ان ذلك لم يكن ليزعجه ، ولكن المشكلة هي أن موقفاً بعيداً جداً عن الواقع كان يسود جبهتنا في الشتاء الاول من الحرب . ولم يكن في مقدور غورت ان يدخل شيئاً من الواقعية في شؤوننا . فلم يتخذ التدابير لإحاطـة رؤسائه السياسيين والعسكريين في لندن علماً بالموقف الحقيقي في فرانسة . ولم يتذمر أبداً ، ممـا أدى الى خلق شعور في لندن ان كل شيء على ما يرام في الجبهة الغربية .

والواقع ان كل شيء كان بعيداً جداً عن أن يكون على ما يرام . ولم يكن غورت ليشغل فكره في معالجة المشكلات الكبرى ، بل كان يفكر دومـاً في مستويات أوطـأ – حول الجنود وتفاصيل تجهيزاتهم وملابسهم ، وكيف يجب حمل الخوذة الفلاذية وكمّامة الغاز والخ ... وكان موضوعـه الكبير « دوريات القتال » وتدريب الجنود على كافة أنواع الاستخبارات . وكل هذه الأمور كانت في الحقيقة من مسؤوليات آمري الأفواج وآمري ألويتهم ، وليست من واجبات القائد العام . ثم جاء التعرّض الالماني يوم ١٠ مارس ١٩٤٠ . عندمـا انفجرت الأزمة على الجيوش الافرنسية والبريطانية وتطورت بشدة متزايدة . لقـد بذل غورت جهده آنذاك للتعويض عن عدم الواقعية التي كانت تسود أحوالنـا من قبل ، ولكن محاولاته جاءت متأخرة . فكثيراً من الاجراءات التي كان ينبغي القيام بها من قبل لم تكن قد نُفِّذت. على أن صفات غورت الخاصة بدأت وقتئذ في الظهور . فسرعان ما أدرك ان لهذا الأمر نهاية واحدة لا غيرها – وهي أن الافرنسيين سينكسرون . فمن واجبه لذلك إعادة أكثر مـا يمكن من الجيش البريطاني الى انكلترة ليعيشوا ويقاتلوا يوماً آخر .

لقد اعتقدت دوماً أن غورت بلغ ذروة مجده يوم ٢٠ مارس ١٩٤٠ . ففي ذلك اليوم وصل رئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية آيرونسايد(Ironside) الى مقر القيادة العامة ، وهو يحمل أوامر من الوزارة في لندن تقضي بانسحاب قوة الحملة البريطانيـة جنوباً نحو فرانسة ، لتدافع هنـاك الى جانب الجيش

الافرنسي . وكانت هذه خطة ورقية ليس إلا ، ولا يمكن تطبيقها أبداً . وقد رفض غورت تنفيذها ، وكان مصيباً في ذلك . على أنه نظّم هجوماً مقـــابلا صغيراً جنوب آراس (Aras) ، وكان له تأثير مدهش في إجبار القوات الالمانية على التقدم بحذر في تلك المنطقة . ومن غريب الصدف ان رومـل كان هو الذي يقود تلك القوات . وبدأ غورت في اليوم الثاني (٢١ مارس) في وضع الخطط للاخلاء من دانكرك . وقد استطاع ان يخلي ربع مليون جندي الى بريطانية . ولكننا تركنا خلفنا في فرانسة وبلجيكا جميع تجهيزات الجيش ومعداته الحربية، تلك التجهيزات والمعـــدات التي كانت تعطى لإنتاجها أسبقية في المعامـــل البريطانية في حينه .

ولم يستخدم غورت في قيادة القوات في الميدان مرة أخرى. وقد شعرنا جميعاً بالأسف عليه . فقد كان رجلاً مستقيماً ذا خلق متين ويتصف بصفاتٍ ممتـازة كالشجاعة والنزاهة . وقد استخدم فيما بعد حاكماً لجبـل طارق ، ثم ارسل الى مالطة ليشغل فيها منصب الحاكميـــة أيضاً . وفي كلتا الحالتين كرّس جهوده بنشاط لا ينضب الى تنظيم الدفاع ، وهو واجب يلائمه كل الملائمة .

وأخيراً ذهب الى فلسطين مندوباً سامياً عـام ١٩٤٤ . وكان وقتئذٍ رجلاً مريضاً جداً . ثم مات من مرض السرطان بعد ذلك بقليل .

كان غورت في الحقيقة كبش الفداء لمكيدة سياسية . فقـــد استفاد منه هوربليشيا واستغله لأغراضه الخاصة، وبعد ان نشر له دعاية واسعة في الصحافة، عيّنه اخيراً قائداً عاماً ليبعده عن وزارة الحربية، فيخلو له الجو لحل مشاكله السياسية الخاصة . ولو عهد الى غورت بقيـادة فرقة ، وتركت له الحرية ليشق طريقه بنفسه بهدوءٍ في سلـّم الحياة العسكرية لما ترقّ الى منصب أعلى من قائد فيلق حسبما أرى . ولكن بدلاً من ذلك ، دفع هذا الضابط الطيب بسرعة الى أرفع المناصب ، فوق رؤوس ضباطٍ آخرين يمتازون عليه كثيراً بقدرتهـم ، ثم نبذ في الأخير . — فيا له من رجل تعس . . !

وأخيراً ، مهما كانت نتيجة غورت ، فيجب ان لا ننسى أنه أظهر شجاعة

وعزماً في أوج أزمة حياته العسكرية في مارس ١٩٤٠ – عاملاً العمل الصحيح لبريطانية . ولو أخفق في تلك اللحظة ربمـــا حلت الكارثة بالجيش البريطاني ، ولكنه لم يخفق والحق يقال .

ويفـــل

عندما بدأت حرب هتلر في سنة ١٩٣٩ كان ويفل في السادسة والخمسين من عمره . وكان رجلا يختلف عن غورت اختلافاً كبيراً . بدأ حياته العسكرية في كتيبة بلاك ودج (Black Watch) . وكان مثقفاً ثقافة عالية ، وكاتبـاً مجيداً وشاعراً بعض الشيء . ولقد خدمت تحت قيادته وأنا برتبة رائد ثم برتبة عميد، فصرت أعرفه حق المعرفة، وأعجب كثيراً بثقافته الواسعة واستقامته وخصاله العسكرية . وكان طبعاً أقدم مني في الجيش كثيراً ، لكنه لم يكن يجعلني أشعر بذلك في أحاديثنا . وقد أصبحنا بالنتيجة أصدقاء مخلصين . كان ويفل في حياته العسكرية الاولى ، بل حتى صيف ١٩٣٩ عندمـــا باتت الحرب قريبة وأرسل على عجل ليتولى قيادة الشرق الأوسط ، كان يعدّ قائـداً خلق لأمور جسام .

لكنه عزل بالنتيجة عن قيادته في تموز ١٩٤١، وأبعد الى الهنـد حيث عيّن قائداً عاماً هناك بدلاً من اوكنلك (Auchinleck) الذي ارسل الى القاهرة – أي ان الاثنين تبـــادلا وظيفتيهما – على ان اوكنلك بدوره سقط من الحظوة بعدئذ ، فقد عزل عن قيادة الشرق الأوسط في آب ١٩٤٢ بعـد ان أمضى في هذا المنصب مدة لم تتجاوز السنة الواحدة الا قليلا ، وأعيد الى الهند . وهكذا فالشخصان اللذان تبادلا منصبيهما سنة ١٩٤١، وجدا نفسيهما في الهند سنة١٩٤٢ فيا لمشيئة القدر !

وفي صيف ١٩٤٣ استبدل اوكنلك ويفل ثانية في منصف القائد العـــام في الهند ، واصبح ويفل حاكماً على الهند في تشرين الأول ١٩٤٣ .

وهكذا فقد ارتقى ويفل من ملازم ثانٍ في كتيبة (بلاك ودج) الى منصب

القائد العام في الشرق الأوسط في الحرب ، ثم أصبح في الاخير الحاكم العـام في الهند ! أليس ذلك بكافٍ ؟ . كلا ، ليس في ظروف الحرب السائـدة آنذاك .
كان ويفل جندياً ، وعزل عن قيادته عندما كان مشغولاً في حركات فعلية مع العدو . وتلك صدمة لا يتغلب عليها الجندي بسهولة . وقد كان وقعهـا عليه شديداً ، لكنه تحملها بصبر عجيب ، وكان مستعداً للاستمرار في الخدمة في أي وظيفـة يستطيع ان يفيد منها .

كان ويفل مفكراً كبيراً ، ذا عقل نيّر وبعد نظر استراتيجي عظيم . وكان مجيداً للكتابة . وفي سنـة ١٩٣٩ القى محـاضرات في كمـبرج في موضوع « القيادة وفن القيادة » . وكانت محاضراته أحسن ما قرأته في هذا الموضوع . (وقد نشرت سنة ١٩٤١).وأظن ان أحسن كتاب الّفه هو كتاب « اللنبي — دراسة في العظمة » . ونشر في أيلول ١٩٤٠ .

لماذا أخفق هذا الجندي اللامع ؟. أظن ان لذلك سببين :

الأول : لم يكن قاسياً الى الحد اللازم مع مرؤوسيه الذين كان يعتقد أنهم لا يصلحون لأعمالهم .

وقد تحدثت معه حول هذا الموضوع، ونحن نمشي على ظهر البـاخرة (كوين ماري) سنة ١٩٤٩ عندما كنا عائدين من نيويورك . ولما أبديت له رأيي وقلت انني اعتقد أنه كان مخطئاً في الحالات التي تناقشنا حولها، بقي صامتاً برهة من الوقت أكملنا خلالها دورتين على سطح الباخرة — طولها أكثر من نصف ميـل على ما أظن . ثم التفت نحوي وقال « ربما كنت مخطئاً ! »

ولقد تمتعت بسفرتنـا تلك كثيراً — وكان السبب الرئيسي لذلك هو لأنني كنت برفقته . إذ كان رفيقاً ساراً وكنت أميـل اليه ميلا شديداً . وبالاضافة الى حديثنا على سطح الباخرة، كنا نلعب (البردج) كثيراً في الأماسي. وكان لاعباً مجيداً لكنه كان بطيئاً . كان يحب التفكير أثناء اللعب أسوة بما كان يفعله في حياته العسكرية .

الثاني — يبدو انه لم يتمكـّن من إقامة علاقة طيبة مع رؤسائه السياسيين .

فهؤلاء يضغطون على الجندي دائماً في الحرب للقيام بمغامرات جريئة ، تكون في الغالب شديدة الخطورة ، ولا تتيسّر لها الموارد العسكرية . غير انه من واجب القائد المسئول أن يبدي رأيه القطعي في هذه المغامرات الخطرة من الوجهة العسكرية - إذ يجب أن يقول، إن كان ثمة أمل في نجاحها أم أنها ستفشل حتماً ؟ . وإذا ما أبدى القائد رأيه في المغامرة، وأمره رئيسه السياسي بالقيام بها على الرغم من ذلك ، فينبغي تنفيذ أمره . ولكن يجب أن لا ننسى ان أي رئيس سياسي لا يصدر أمراً للقيام بحركة عسكرية إذا كان ثقل الرأي العام العسكري بأجمعه ضدّها .

إن المغامرة اليونانية في ربيع سنة ١٩٤١ مثال يستحق الذكر في هذا الصدد . فقد زار وزير الدولة للشؤون الحربية (إيدن) ورئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية (ديل) الشرق الأوسط في شباط ١٩٤١ ، وأشار على ويفل بوجوب إرسال قوات إلى اليونان لمساعدتها في صد هجمات الألمان إذا غزوا تلك البلاد - وقد وقع هذا الغزو حقاً في ٦ نيسان . ولكن التدخل البريطاني في اليونان لم يكن له أمل من النجاح في الوجهة العسكرية . وكانت نتيجته الوحيدة كارثة من الدرجة الأولى . وهذا ما حدث بالضبط . وأعقبتها كارثة ثانية في كريس في مايس ١٩٤١ .

وعندما تقرّر التدخل في اليونان لم يرفع ويفل صوته بالاحتجاج على ذلك . وكان الأجدر بجندي لامع مثله أن يعرف ان مثل هذا التدخل لا يكتب له النجاح . لكن ويفل لم يعترض على ذلك ، بل ترك لدى رؤسائه انطباعاً يدلّ على ان لهذا التدخل أملاً معقولاً في النجاح . ولتهيئة القوات اللازمة لليونان اضطر الى إضعاف جبهته في الصحراء جنوب بنغازي، وترك هناك قوات ناقصة التدريب نسبياً ، وذلك خلافاً للمشورة القوية التي أبداها الفريق أوكنور (O 'Connor) القائد المظفر لقوة الصحراء الغربية ، ظاناً من أن أي هجوم ألماني لإنقاذ الطليان لا يمكن أن يبدأ قبل مرور شهرين على الأقل . ولكن هتلر قرّر إرسال رومل إلى إفريقيا بفرقتين مدرّعتين . وشنّ رومل هجومه يوم

٣١ مارس ، أي قبل اسبوع من غزو الألمان لليونان . وفي أواسط نيسان طرد الألمان قواتنـــا من برقة نحو الحدود المصرية وحاصروا طبرق . وفي ١ مـــايو طردونا من اليونان ثم من كريت في ١ حزيران .

وعندئذ فقدت الحكومة في لندن ثقتها في ويفل . فعزل عن قيادته في ٥ تموز ١٩٤١ . لقد اعتبرت دائماً تدخلنا في اليونان خطأ كبيراً . فهو أدى بالنتيجـة الى خسائر فظيعة جداً في الرجال والمعدات في اليونان وكريت وفي برقة .

وأظن ان حكم التاريخ في هذه القضية هو ان ويفل قد تساهـل في موافقته على اجراء حركات مخطرة ساقه اليها رئيسه السياسي . ولا أعني بذلك أنه كان عليه ان يستقيل ، فالاستقالة في الحرب لا محل لها من الاعراب . كل ما كان عليه ان يفعل هو ان يخبر حكومته انها إذا أمرت باجراء حركة كهذه فيجب أن تعلم أن نصيبها الفشل . وعندئذٍ سيواجه الرئيس السياسي قراراً صعبـاً . ومن المؤسف ان رئيس هيئة الاركان العامة الامبراطورية كان قد وافق على حركة التدخل البريطاني في اليونان . ومع ذلك ، فلو عارض ويفل واخوانه القـــادة العامين في الشرق الأوسط هذه الحركة لما كان في الامكان القيام بشيء يذكر . واني أظن ان رئيس هيئة الاركان العامة الامبراطورية (ديل) شعر بعدئذٍ ان إجراء الحركة المذكورة كان خطأ .

ان قصة ويفل غريبة حقـاً . ففي الاسبوع الأول من شباط ١٩٤١ دمّرت القوات التي كانت تحت أمرته القوات الايطالية في الحبشة وافريقيـــا ، فصار يعرف في الجيش البريطاني بأسره يومئذٍ بالقائد المظفر العظيم الأوحد . وكان اسمه يتردد في كل بيت في بريطانيـــة . وإذا به بعد خمسة اشهر – أي في الاسبوع الاول من تموز ١٩٤١ – يعزل عن قيادتـــه لأن الحكومـــة فقدت ثقتها به .

وان حكومة تشرشل الائتلافية التي عزلته عن قيادته ، عيّنته في خريف ١٩٤٣ حاكماً على الهند . وكانت الحكومه تجد وقتئذٍ صعوبـة كبرى في إملاء هذه الوظيفة . ثم فقدت حكومة اتلي العمالية ثقتهـــا به أيضاً ، فاستدعته في

مارس ١٩٤٧ .

وهكذا فانه عندما ارتقى المناصب العليا لم يبقَ فيها مدة طويلة. واصبحت حياته سلسلة من الصدمات . وأظن أنه كانت تعوزه الصلابة اللازمة لمقاومة المغامرات التي عرف في قرارة نفسه انها غير صحيحة . ثم أنه لم يكن يجيد مناقشة السياسيين ، وهو أمر يجب ان يفعله القائد دوماً .

ومما هو جدير بالذكر ان انتصارات ويفل الرئيسة الوحيدة كانت ضد الطليان في جنوب إفريقيا – في الحبشة ومصر وبرقة . فهو لم يقاتل الألمان أبداً حتى هاجم روميل قوته بفرقتيه المدرعتين جنوبي بنغازي في ربيع ١٩٤١ ودمرها . فهل من الممكن أنه قدّر قوة الالمان دون قدرها عندما قبل مسؤولية مغامرة اليونان ؟

وعندما ترك الشرق الأوسط وذهب الى الهند ليتولى القيادة العامة هناك ، عهدت اليه فيما بعد مسؤولية جميع الحركات في جنوب شرقي آسيا. وقد سمعت من يقول أنه لم يقدّر قوة اليابانيين حق قدرها ، بل حسبهم عدواً من الدرجة الثانية . في حين أنه اتضح لي مما قرأته عن هؤلاء، انهم كانوا لا يقلّون قوة وجسامة عن أي عدوٍ جابهه الجيش البريطاني . وأظن ان الجيش الامريكي يؤيد ذلك .

وعلى كل حال ، كان على ويفل ان يواجه كوارث غير قليلة في جنوب شرقي آسيا ، عندما تولى القيادة هناك – كسقوط سنغافورة في شباط ١٩٤٢ واندحارات حملة بورما الاولى في مارس – نيسان ١٩٤٢، وكثير من الضربات الأخرى المميتة للحكم البريطاني في آسيا . اظن ان ولف (Wolf) هو الذي قال « الحرب هي خيار المصاعب » . وقد كتب كلاوزج (Clausewitz) يقول« الحرب ميدان الحظ ، فما من ميدان من ميادين الفعالية البشرية يجب أن يحسب فيه حساب لهذا العامل الدخيل أكثر من الحرب » . ولا شك ان هذه الاقوال تنطبق على ويفل حق الانطباق. فقد احدقت به المصاعب خلال السنين التي تولى فيها القيادة العامة، وكذلك عندما كان حاكماً عاماً في الهند . وانني لم

أنفك عن الاعجاب بشجاعته ونزاهته في يوم من الايام ، وكنت احمل له أعظم المودة . وان وفاته بمرض السرطان بعد تركه الخدمة الفعلية قد سبّب لي أسىً عميقاً ، وفقدت بوفاته صديقاً لا يعوّض .

خلاصة

أين نقف الآن من مسألة القيادة العسكرية هذه ؟. لقد القينا نظرة موجزة على عدد من القادة، ودرسنا اساليبهم ولاحظنا اسباب نجـاحهم وفشلهم . رب قائل يقول : انني بحثت هـذا الموضوع نفسه في سلسلة من القصص القصيرة غير المتصلة – وهي التي تسمى بالقصص الاستطرادية . لكنني لا أظن ان في الإمكان معالجته بوضوح بطريقة أخرى . وان ما يهمنا الآن هو :هل ظهر شيء في هذه الدراسة ؟ وهل استطعت ان أقول شيئاً مهماً عن القيادة العسكرية يمكن أن يكون جديداً على بعض قرائي على الاقل – ليس على كلهم طبعاً . ربما اوضحت ان بعض الشخصيات العسكرية المشهورة في الأزمنـــة الحاضرة لا يبلغون المستويات التي انشدهـا . لا ضير في ذلك ما دمت قد ذكرته بطريقة لا تسبب الإساءة – وأرجو أن لا أكون قد سبّبتها .

ويلاحظ انني قد حصرت البحث في قادة الجيش، ولم أتطرق الى قادة القوة الجوية والبحرية . لأنني وجدت من الأفضل ان احصر التحليـــل في مجـالات استطيع فيها ان اتكلم بشيء من المعرفة . ولكن الدروس تنطبق على قـــادة القوات المسلحة الأخر . والآن دعني أحاول تلخيص نتائج بحثي :

لقد ذكرت ان مبادىء الحرب اليوم هي نفسها كما كانت أيام جنكيزخان . إلا أن تعقدات الحرب الحديثة جعلت تطبيقها اصعب من ذي قبـل . فالحرب اليوم عمل يتطلب درجة عالية من الاختصاص. وعلى من ينشد الارتقاء الى القيادة العليا ، ان يدرس الفن العسكري دراسة عميقة ، وان يزوّد فكره بكل مـا تحتاج اليه مهنته ، ليكون مستعداً حينما تسنح له فرصة القيادة .

ويجب ان يكون رجلا ذا قرار وعمل. وان يكون رائده الهدوء في الأزمات

والقرار في المعركة فعدم القرار والتردد خطأان ينبغي ان يجتنبهما كل جندي . اما إذا ارتكبهما القائد العام فتلك جريمة لا تغتفر .

ويجب ان يكون القائد ماهراً في الحكم على الرجـال ، وخبيراً في اختيار المرؤوسين ، وقاسياً في معالجة عدم الكفاية في المعركة – حيث تكون أرواح الجنود على كف عفريت. فالقائد الماهر هو ليس الذي يربح المعارك فحسب ، بل يجب ان يربحها بأقل خسائر في الارواح .

ويجب ان يكون مستعداً للمجازفة عندما يشجّع الموقف على العمل بجرأة ، وإن لم يكن متأهباً للاندفاع من المعلوم ليقبض على ناصيــة المجهول ، عند سنوح الفرصة ، فسيفقد قسماً من ثمار الظفر .

وهناك ، طبعاً ، صفات كثيرة اخرى يمكن تعدادها . ولكن دعنا نذكر الآن واحدة فقط . يجب ان يكون القائد مستقيماً حتى الاستقامـة ، وان يقول الحقيقة العسكرية الى رؤسائه السياسيين آملاً ان يكونوا بدورهم مستقيمين معه . غير أنه يجب ان يفهم ان الإدارة العليا للحرب تنحصر بأيدي السياسيين ، فيجب ان يسعى الى تحسين علاقاته مع رؤسائه السياسيين – كما يجب على هؤلاء تحسين علاقاتهم معه – مهما بدا ذلك صعباً ، بل مستحيلاً ، الى كلا الطرفين . فالدسيسة في الحرب او السلم لا يمكن تبريرها سواء أقام بها الجنود أم السياسيون .

ان تجاربي في القيادة العسكرية كانت واسعـــة . فقد أمتشقت سيفي في المعركة وقـدت فصيلي على مواضع الألمان سنة ١٩١٤ . وابتدأت بقيادة وحدة فرعية قوامها ثلاثون جندياً ثم قدت بالتعاقب كل قدمة من قدمـات الجيش حتى جحفل الجيوش[1] البالغ عدد أفراده نحو مليونين من الجنود في شمال غربي أوربا سنة ١٩٤٤ . لذلك فمـــن المناسب ان أذكر نتائج تجاربي في مجـــال القيادة العسكرية العليا – إذ ان تحليلي في هذا الباب يخص هذا النوع من القيادة .

وعند دراسة قادة الايام الغابرة ، ومقارنتهم مع قادة العصر الحاضر يجب أن

---

١ – انـ قدمات الجيش التي يقودهـــا الضابط بالتسلسل هي : الفصيل والسرية والفوج (او الكتيبة) واللواء والفرقة والفيلق والجيش ثم جحفل الجيوش المؤلف من مجموعة جيوش .

لا ننسى ان الوقت قد تغير . ويمكن القول على العموم ان مالبرو وولنغتون ربحا حروبهما وحدهما . أما اليوم فالقائد العـــام في الميدان هو رئيس فريق (Team) – وفريق كبير أيضاً .

فالقيادة اليوم معقدة أكثر من الماضي بكثير . ويجب ان يكون للقـــائد العام هيئة أركان جيدة ، ورئيس أركان ممتاز لينسق فعاليتهم . ويجب أن يعرف القائد جنوده كما يجب ان يميّزه هؤلاء . واني لا أعتقـــد ان الطريقة التي أديرت بها المعارك في الجبهة الغربية في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ كانت ستنجح في حرب هتلر . ويتضح للقارىء مما كتبته في هذا الباب انني لم أرَ فرينج أو هيك أبداً، مع اني خدمت في فرانسه طيلة حرب ١٩١٤–١٩١٨ ، عدا سنة واحدة قضيتها في انكلترة لمعالجة جروحي .

وما من قائد عام عصري يستطيع النجاح في قيـــادته إذا أخفق في فهم العوامل البشرية في الحرب. **فينبغي ان يكون دارساً للطبيعة البشرية،ومدركاً حق الادراك الحقيقة القائلةان المعارك تكسب في قلوب الرجال أولاً – وان التزام جانب العدل امر حيوي عند إدارة الرجال ، والنساء ايضاً .**

واني أعتقد انه يجب ان يكون لدى القـــائد العام للجيوش الكبيرة في الميدان ، يقين باطني مبني على العقل ، لكنه يعلو مع ذلك فوق العقل . ان هذا الحس هو الذي يمكنه في لحظة معينة من المعركة – وهي اللحظة المناسبة – من اختصار الطريق الى هدفه فيبلغه في وقت أسرع واضمن من القـادة الآخرين ، الذين لا يقلون عنه حرصاً ولكنهم دونه الهاماً .

وفي وسع المرء ان يعبّر عن ذلك بطريقة اخرى – هناك ثلاثة أنواع من القادة في الرتب العليا :

١ – اولئك الذين عندهم ايمان والهام لكن تعوزهم القدرة اللامتناهيـــة للاهتمام والتهيؤ للأحداث المتوقعة – تلك الصفة – التي هي سر النجـــاح في الحرب .

هؤلاء يفشلون .

٢ – اولئك الذين يملكون الصفة الاخيرة الى درجـــة العبقرية ، وأحسن مثال لهذا النوع من القادة ولنغتون .

٣ – او لئك الذين يملكون هذه الصفة وهم ملهمون بإيمان ويقين يمكنانهم ، بعد إعداد كل ما استطاعوا اليه من وسائل الاعداد ، من ركوب المخاطر حين يتطلب الموقف عملا جزئياً . ان في الحرب لحظات إذا أراد القائد ان يكسب كل شيء وجب عليه ان يفعل كل شيء .

وقد ضرب نلسون احسن مثل لذلـــك ، حين اخترق خط سنت فنسنت (St . Vincent) ، وحين شنّ هجوماً في معركة النيل عنـــد حلول الظلام وتحت وابل من نيران البطريات الساحلية ، وكذلك اللحظة الحرجة في معركة الطرف الأغر .

وما من قائد كان احرص من نلسون على التهيؤ للاحداث المتوقعة . لكنه ما من أحد كان أقدر منه على تمييز اللحظة التي يجب ان يترك فيهـــا شيئاً الى الحظ والايمان ، بعد إنجاز كل ما يمليه العقل .

واخيراً في وسعنا ان نلخص ذلك بما يلي : إذا أراد القائد العام النجاح في ممارسة القيادة العليا في الحرب ، وجب ان يكون ذا مقدرة لامتناهية لبذل الجهد والتهيؤ المتقن . ويجب ان يكون ذا يقينٍ باطني يسمو أحياناً فوق العقـــل . وإذا ما قاتل (وربما لمدة طويلة من أجـــل التفوق) وناله ، فستحين عندئذٍ اللحظة المناسبة للعمل الجريء . فاذا ما حانت هذه اللحظة ، فهل يقـدم على المجازفة ، فيندفع من المعلوم ليقتحم المجهول وليسيطر عليه ؟ ان الاختبار النهائي لفن القيادة العليا ، يكمن في الإجابة على هذا السؤال .

الباب الرابع

القيادة السياسية

الفرد وكرومول

من الصعب على جندي مثلي أن يعالج هذا الموضوع ، لكنه لا بد من ذلك إذا أردنا أن تكون لدراستنا قيمة تامة . واني أميل إلى أن أبدأ البحث في وجوه الاختلاف بين الزعامة السياسية والقيادة العسكرية .

أعتقد ان الغرض النهائي من السياسة هو أن تحسن استعمال السلطة على الرجال . واني استنتج من ميكيافيلي أنه ليست ثمة مبادىء في هذا الأمر ، وانه يجب أن تمارس السلطة بلا تردّدٍ أو شك. كما أستنتج من اكتون (Acton) ان السلطة تضعف أخلاق صاحبها وتنزع به نحو الفساد . لا شك ان ميكيافيلي كان يكتب عن دول زمانه ،تلك الدول التي كانت الدكتاتورية فيها هي القاعدة. أما اليوم فقد حلّت محلها المجموعات الدولية ذات المبادىء الدمقراطية والقومية بكل ما فيها من تعقدات كثيرة . ولذلك فان اراءه تكاد لا تنطبق على العالم الدمقراطي الحديث .

ويبدو لي في الغالب ان الزعيم السياسي اليوم يرنو إلى السلطة إلى درجة تجعله يميل

إلى إهمال المبادىء . فالمسيح وهو أعظم القادة في جميع العصور [١] ، قدّم إلى تابعيه مجموعة من المبادىء ومثالاً من نفسه لا ينسى . وهذا ما يجب أن يفعله القادة الوطنيون في يومنا هذا . وهو ما ينقصنا على ما يظهر . وعلى القادة الوطنيين في العالم الحر ان ينظروا إلى التصادم بين السلطة والمبدأ بمنظار أحسن .

ويمكن إيضاح الفرق بين القيادة العسكرية والزعامة السياسية بسهولة – فالقائد العسكري يستطيع أن يقودالذين يرأسهم،في حين أن الزعيم السياسي يجب أن يستعمل أساليب الاستمالة والاقناع . ويجب أن يكون للإثنين رأي متوازن توازناً جيداً ، وان يعرف كل منهما بالغريزة متى يجب أن يكون جريئاً ومتى يجب أن يكون حذراً . وينبغي أن يكون كلاهما قادراً على تقدير القيمة الحقيقية للاخبار الطيبة أو السيئة التي تنهال عليهما في أوقات الشدة . وان الشجاعة والقوة الفكرية حيويتان لكليهما .

لقد سألت ذات مرة صديقاً لي ، وهو في الحقيقة ضابط من القادة ، ومن الذين يعرفون وايتهول[٢] (White Hall) معرفة طيبة ويعملون فيه بالطبع . سألته : ما هي الصفات الأساسية التي يراها لازمة للنجاح في القيادة السياسية . فأجابني بلا تردّد « حيوية عظيمة وغرور هائل » . ثم نظر إليّ وفي عينيه ابتسامة . أحسب انه كان يظن انني أملك هاتين الصفتين كلتيهما . وإنني أوافق على صفة « الحيوية » فهي ضرورية للقائد في كل مجال لكي يثابر على العمل . لكنني قلت له ان ما يعنيه بـ « الغرور » في الحقيقة هو « الثقة بالنفس » .

لقد كان القادة العسكريون الناجحون دائماً من الواثقين بإنهم سيحققون هدفهم . وقد اكتسبوا هذه الثقة من مقدرتهم على النظر في كل قضية في أبسط أشكالها ، واكتشاف الأمور الجوهرية القليلة اللازمة لحلّها بنجاح ، تلك العناصر التي يجب أن يبني عليها العمل كلّه ، ثم القرار على كيفية إنجاز هذه

---

١ – راجع تعليقنا على ذلك في مطلع الباب الأول .

٢ – مقر الحكومة البريطانية في لندن .

الأمور الجوهرية القليلة . وهم لم يسمحوا أبداً لأكداس التفاصيل ان تغمر الأمور الجوهرية للنجاح . ان ثقة هؤلاء القادة بأنفسهم هي التي الهمت جنودهم بالقوة ، وجعلتهم يشعرون انهم أقوى من العدو – وهي التي ولـّدت فيهم الإرادة القهّارة . وهذه القوة هي التي تثير أرواح الجنود وتلهب حماستهم وتجعلهم يؤمـّنون بان ما يطلب منهم يمكن تحقيقه . وهذه القوة لا يمكن أن تتولـّد – ولم تتولـّد أبداً – الا بنتيجة تماس القادة الشخصي بجنودهم .

لقد اعتدت ، وأنا قائد ، أن أتحدث إلى الجنود ، وأن أخطب في جموعهم الكبيرة فأخبرهم ماذا سنفعل ، وما هي خططي لذلك ، ومـا هو دورهم في الحركة كلها ؟ . وإذا ما عرف الجنود ما يراد منهم عمله ، ولماذا ، ومتى ؟ فانهم لا يقصّرون أبداً عن القيام بدورهم .

انني لا أرى الزعماء السياسيين في العالم الحر يمارسون هذه الناحية من نواحي القيادة ، في حين أنها تظهر في بعض بلاد العالم الشيوعي . ولا أرى زعماءنا يبدون نفس الاهتمام الذي يبديه الشيوعيون في العلاقات البشرية ، أو يدركون مثلهم ان « الرجال » هم العناصر المهمة في القضية ، أو يحاولون شأن الآخرين إثارة نفوس الرجال – اللهم الا ما قد يحدث عند اقتراب موعـد الانتخابات ، وعندئذ تجري المجادلة بالرشوة أكثر من أية وسيلة أخرى .

انني أجهل كيف يخاطب الزعيم السياسي الناس الذين يريدهم أن يتبعوه ، إذ لم يسبق لي أبداً ان حضرت اجتماعاً سياسياً . ولكن من البديهي انه يريد الناس أن تصوّت له في الانتخابات ، لأن ذلك سيعطيه « قوة » . أمـا القائد العسكري فهو لا يعتمد على الأصوات للحصول على القوة التي يحتـاج إليها . فهو يعرف ان في الرجال قوى عاطفية عظيمة محصورة ، وانه ينبغي إيجاد مخرج لهـذه القوى لتنطلق منه بطريقة إيجـابية وبناءة من شأنها أن تلهب قلوب الرجال وتثير خيالهم . ولذلك فانه يسعى لاكتساب قلوب أولئك الذين يقودهم ، فهناك تكمن قوته .

وثمة فرق آخر بين الزعيم السياسي والقـائد العسكري ، وهو ان السياسي

يماطل ليتأكد من أن ما يفعله مقبول سياسيـــاً لدى أنصاره . وتبدو خططه للجندي شديدة التعقد. فالجندي مدرّب على مبادىء البساطة والقرار والعمل . واعتقد ان كليهما مصيبان عندما يعملان في حقلهما الخاص . ولكن ميـل الزعيم السياسي لاجتناب القرار هو أشد ما يكرهه الجندي . فهو لا بـد وان يؤدي الى المزيد من التعقدات وفقدان البساطة والتي هي عامل مهم في الفن العسكري.

ومهما كان الامر ، فان من الجدير بالملاحظة ان للأكثرية الساحقـة من خيرة القادة العسكريين البريطانيين خبرة سياسية . فكرومول كان عضواً في البرلمان قبل ان يمتهن الجندية .

وكان لمالبرو خبرة في الدسائس السياسية اكثر من الخدمة العسكريةحين بدأ حياته في القيادة العليا .وعندما كان في أوج قوته أدار سياسة بريطانيا الخارجية من مقره في الميدان . ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا أنه كان عبقرية كما سبق أن قلنا عنه . أما ولنغتون فقد كان عضواً في البرلمانين الايرلندي والبريطـاني . واصبح بالفعل رئيساً للوزراء ولكن لمدة قصيرة .

وللسياسي ، بداهة ، بعض الميزات على الجندي . فهو دومـاً في الخدمـــة الفعلية إن صح هـذا التعبير – في حين أن فرص الجندي في السلم لممارسة مهنته قليلة . وحتى إذا مارسها فانه سيفعل ذلك بشكل صنعي . ومن الصحيح القول إننا نحن الجنود ، كثيراً ما نكون عرضة لأن نهمل او نستهين بصعوبات الزعيم السياسي في وقت السلم . فنحن نملّ من بطئه في اتخاذ بعض التدابير السياسية المجمع على أنها جوهرية . لأننا ننسى ان السياسي يجب أن يهيأ الرأي العام،وأن يتوقع الاعتراضات من المعارضة، وان يفكر فيما تنطوي عليه القضايا من مشاكل مالية . وللجندي ميزة كبيرة على السياسي وهي أنه لا يطلب منه ان يوضح للرأي العام أسباب أعماله .

هذا ، ويتعذر على الجندي ان يفهم الكثير مما يحيط بالزعامـة السياسية في عالم اليوم.وغالباً ما يبدو لي أنه ما دام مفهوم المسيحيةالعالمية قد مضى، وحلت محله الوطنية او القومية، فقد أضاعت الأمم مثالالوحدة والاستجابة الىالزعامة

السياسية – لا سيما وأنه ليس للزعماء السياسيين وسائل فعلية لإجبار الناس. لكنه عندما لايتمكن الزعيم السياسي من ان يلزم الناس على اتباع آرائه، فنجاحه يتوقف على ماهيته وسجيته وشخصيته.

واني أفترض أن هنا فرقاً بين السياسي ورجل الدولة، كما ان هناك فرقاً بين السياسي والجندي. ألم يقل أحدهم مرة: ان عين السياسي ترقب الانتخابات القادمة، وعين رجل الدولة تنظر الى الجيل القادم؟. وعلى الجندي الماهر، حين يكون في القيادة العليا، أن يمدّ النظر الى معركتين قادمتين، وان يخطط لا لربح المعارك فحسب بل الحروب أيضاً. وربما كان في هذا درس لساسة الاحزاب.

ان هذه ليست إلا مقدمة موجزة لموضوع كبير جداً. وأرغب الآن في إلقاء نظرة سريعة على رجلين يختلفان اختلافاً كبيراً عن بعضهما في السجية. وقد كان كل منهما قائداً سياسياً وقومياً لأمتنا – الاول قبل أكثر من الف سنة والثاني قبل نحو ثلثمائة سنة.

الفرد العظيم وكرومول

لقد وضعت هاتين الشخصيتين معاً لأن كلاً منهما حكم بريطانيا مدة من الزمن في حياته – الفرد ثماني وعشرين سنة وكرومل خمس سنوات. وقد توفيّا وهما شابان نسبياً، إذا كان الفرد في الخمسين من عمره وكرومل في التاسعة والاربعين.

ويمكن ان يوصف الفرد أنه كان من أعظم الرجال في جميع العصور. وربما كان أعظم ملك حكم بريطانية. مضافاً إلى ذلك ان مملكته لم تنقرض بموته. فقد دامت أعماله من بعده، إذ استمر بها ابنه الاكبر ادورد وحفيده أثيلستان (Athelstan). وهذان قد حققا معاً لبريطانيا وحدة لم تعرفها من قبل.

أما اوليفر كرومول فكان رجل أزمات. وقد خلق ليحكم. لكنه سعى ليفرض إرادة الأقلية على الشعب البريطاني. وأخفق في تأسيس دولة مخلصة

وموحدة – كما فعل الفرد . وقد انقرض بموته كثير من منجزاته ولكن ليس كلها كما سنرى . وهو لم يبجّل بعد موته (سنة ١٦٥٨) كألفرد . بل ان جسده اخرج من القبر في كانون الاول ١٦٦٠ ورفع بالسلاسل في تايبرن. ثم علّق رأسه على عمود فوق سطح قاعة ويستمنستر لكي يزدريه الناس .

دعنا نرى الآن ما عسى ان نتعلمه من حياتيهما .

الفرد العظيم

عندما تسوق سيارتك منحدراً نحو ونجستر (Winchester) وأنت قادم من التون (Alton) ، ترى في أسفل المنحدر تمثال ألفرد وهو مواجه الطريق الرئيسي الذي يشق البلدة ومتجه صوب القلعة . لقد أقيم هذا التمثال في مكان ملائم يستحيل على المسافر أن يخطأه . وأريد بذلك ان يتذكر المسافر ملكاً من اعظم الملوك في التأريخ البريطاني . فهناك يقف ألفرد ، سيفه بيده ، يراقب عاصمته القديمة. وقد أمسك السيف مستقيماً في يده اليمنى وهو مرفوع الكتف، وبدا في قبضته صليب يمكن أن يراه الجميع . انه يذكّرني بلحظة في حفلة التتويج ، أخذ فيها رئيس الأساقفة سيف الدولة من محراب كنيسة وستمنستر وقدّمه الى الملكة بهذه العبارات :

« أقيمي العدل بهذا السيف وامنعي الظلم »

وهذا هو ما فعله ألفرد والحق يقال . ان تمثاله يثير اهتمامي دائماً فلا أمرّ به إلا وأقف لحظة لأرمقه بعين الاحترام .

ولد ألفرد سنة ٨٤٩ بعد الميلاد في وانتاج (Wantage) ، بعد ثلثمائة سنة من استقرار السكسون في ويسكس (Wessex) للمرة الأولى . وعندما كان ولداً صغيراً أخذه أبوه الملك أثلولف (Ethelwulf) في رحلة الى الحج في روما . وربما كان بتأثير تلك الرحلة في اوربا ومناظر مدينة روما العظيمة وخرائبها هي التي ولدّت فيه الإلهام الذي بعثه في الاخير على تعليم نفسه وشعبه فنون المعرفة والنظام . وفي روما تلقى درسه الأول في القراءة ، ثم

اضطر ، وهو لا يزال صبياً على التخلي عن كتبه، ليصبح جندياً فعالاً يقاتل مع أخويه الكبيرين ، الدانماركيين الذين كانوا يعيثون في أراضي انكلترة فساداً .

وسرعان ما اكتسب ، ، وهو في هذه السن المبكرة ، قلوب جنود جيش ويسكس الجفاة ، الذين كانت أكثريتهم الساحقة من القرويين والفلاحين . وقد كان من السهل عليه وقتئذٍ ان يشترك في الدسائس على اخويه اللذين أصبح كل منهما ملكاً بدوره . ولكن عظم روحيته وإيثاره التام جعلاه يفعل عكس ذلك تماماً . فقد ساند مخلصاً كلا أخويه وكرّس جميع جهوده لخدمة بلاده وملكه . وفي سنة ٨٧١ ، عندما كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ومعاوناً لأخيه الثاني في القيادة ، استطاع بفضل ابداعه الذاتي وحضور ذهنه بالدرجة الأولى من ان يكسر الجيش الدنماركي الذي كان قد غزا ويسكس شر كسرة في معركة أشدوان (Ashdown) في بيركشاير (Berkshire) . وقد توفي أخوه بعدئذٍ ، في السنة نفسها ، فأصبح ألفرد ملكاً وهو في الثانية والعشرين من عمره .

لكنه تسلّم موقفاً صعباً . فقد كان أعداؤه يفوقونه كثيراً في العدد ، ولم تكن بلاده منظمة لحرب إجماعية شاملة على الدانمارك الذين كانوا يمتازون عليه كثيراً في قوتهم البحرية . وفي السنوات الخمس الاولى من حكمه قاد شعبه التعس في معارك مستمرة على الدنمارك رافضاً الاستسلام الى الاعداء الكافرين[1] . وفي سني الكفاح هذه شعر ألفرد بالحاجة الى اسطول انكليزي يستطيع به أن يهاجم الغزاة، ويحبط خططهم قبل ان ينزلوا على الساحل الانكليزي. ويبدو انه كان يعرف بطبيعته انه إذا استطاع أن يكسب الوقت، وان يحافظ على معنويات شعبه فسيفوز في النهاية .

وبعد الظفر الذي حقّقه في آشدوان استطاع أن يتنفس الصعداء من فعالية الدانماركيين في شمال انكلترة ووسطها . واستفاد من ذلك استفادة تامة ، فأعاد

---

١ – لم يكن الدانمارك وقتئذ قداعتنقوا الدين المسيحي وكان السبب الأول لهجماتهم على بريطانية القضاء على المسيحية فيها .

تنظيم قواته المؤلفة من الفلاحين ، وعمل على تنفيذ خطته الرامية على تشكيل الاسطول. وقد نجح بعض الشيء في سنة ٨٧٦ وتمكّن من طرد الجيش الدانماركي من مملكته . ولكن الدانماركيين عادوا في السنة التالية بقوة ساحقة وهزّموا الفرد وجيش ويسكس هزيمة كبرى فاضطر هو نفسه إلى الهروب ليتفادى الأسر ، واختبأ في جزيرة اثلني (Athelney) في سمرست (Somerset) . وفي هذا المكان نشأت أسطورة الكعكة المحروقة في كوخ الراعي [١] .

ومن مخبأه في سمرست ، بدأ فوراً في إعادة تنظيم جيشه الذي كان قد تشتّت . فأرسل الرسل إلى جنوده ليجتمعوا في ملتقى يقع في وادي نويل (Knoyle) ، وهناك التحق بهم الفرد بعد أسابيع عدة من عيد الفصح سنة ٨٧٨ . وتحرّكت القوة كلها بعدئذٍ شمالاً والتقت بالقوات الدانماركية الممتدة في السهول الواقعة شمال وورمنستر (Warminister) فغلبتهم غلباً حاسماً . فألقى الدانماركيون بعدئذٍ أسلحتهم ووافقوا على قبول السلم .

وهنا أظهر الفرد جميع الفضائل المسيحية التي بنيت عليه حياته . فبدلاً من أن يقضي على أعدائه القساة الخونة بالسيف ، عفى عنهم وأطعمهم وساعدهم في حل مشاكلهم . وقد اعتنق ملك الدانمارك النصرانية وأصبح اشبيناً [٢] له .

والآن ، بلغنا نقطة تطوّر التأريخ البريطاني . فلقد رأى الفرد انه إذا تابع فوزه بطرد الدانماركيين من انكلترة فانهم سيعودون في وقت آخر ، وسيسعون للانتقام؛ لذلك فانه منحهم وطناً في انكلترة وأقنعهم على الاستقرار فيها وترك القتال والإخلاد إلى السكينة . وبذلك مهّد السبيل إلى حضارة النورسمان [٣] (Noresman) واعتناقهم الديانة المسيحية . وربما كان هذا أعظم عمل سياسي

---

١ - خلاصة الأسطورة ان ربة الكوخ الذي كان الفرد مختبئاً فيه ، طلبت منه ذات يوم ، وهي ذاهبة الى الخارج ، أن يراقب الكعكة التي تركتها على الموقد . فلما عادت وجدت الكعكة قد احترقت لأن الفرد كان يفكر في أمور جسام انستة الكعكة على النار .

٢ - (God Father) - وهو الشخص المسئول عن التثقيف الديني للمسيحي .

٣ - وهو الاسم الذي كان يطلق قديماً على الدانماركيين والاقوام الاسكندنافية .

قام به أي ملك إنكليزي . وقد أدرك الفرد انه ما لم يكن في الخطط العسكرية هدف سياسي واضح وضوحاً تاماً، فإن الحرب لا تنتج غير مذابح لا فائدة منها. ويبدو ان ألفرد كان سابقاً لعصره بألف سنة . وقد كان في وسعنا أن نعمل بشيءٍ من تفكيره في النصف الأول من القرن العشرين ! على ان ألفرد لم يخامره أي وهم عن المستقبل ، فقد كان في الإمكان نزول جيوش دانماركية أخرى على الساحل البريطاني لتدمير مملكته . فبينما كان يمد يد الصداقة إلى الدانماركيين المغلوبين ، استعد لصد الهجمات الجديدة التي قد يشنّها إخوانهم الآخرين من البحر . فياله من رجل عاقل ! . فأعاد تنظيم جيشه وبنى أسطولاً من السفن الحربية . ولما نزل جيش الـ (الفايكنك[1]) (Viking) على الساحل الانكليزي للغزو والنهب، أمكن التغلب عليهم وطردهم من البلاد شر طردة . وهكذا أنقذ ألفرد انكلترة بحكمته ومهارته العسكرية وأعطى إلى المسيحية أملاً جديداً .

وربما كانت عظمة ألفرد الحقيقية تتجلى في السلم أكثر من الحرب .

وهو كجندي يمكن أن نضعه ، بالتأكيد ، في الصف الأمامي من الرؤساء العسكريين – فقد كان قائداً عظيماً ذا قلب قوي وجلد هائل ومعرفة حقة في التنظيم للحرب على صعيد قومي . لقد كان الجنود في أزمنة التأريخ كلها يتبعون دائماً القادة الناجحين ، ولكن ها هنا قائد يلاقي كثيراً من الهزائم ومع ذلك فإن فلاحي انكلترة الجفاة يثقون به ويتبعونه حتى إلى الموت عند الضرورة . ففي وقت المحنة تتّحد روح الانسان ونفسه وأخلاقه وحيويته وشخصيته لتحقّق له الظفر في الأخير .

وكان ألفرد زعيماً وطنياً بارزاً في وقت السلم . فبعد جيلين من الحروب أصيبت بلاده بالدمار – فالمزارع أتلفت والريف خرّب والأديرة أحرقت ، وأصبح الناس في حالة يرثى لها من الجهل والفقر والتعاسة . وفي ذلك الوقت

---

١ – وهم القرصان الاسكندنافيون .

ظهرت فوائد رحلته إلى روما عندما كان صبياً . فقد عقـــد العزم على تعليم شعبه وإعادة بنــاء مملكته . إلا انه تعلـّم هو نفسه أولاً قبل أن يبدأ في تعليم الآخرين .

في الأيام الأولى من حياتي العسكرية كان قائد مشهور – يقود فيلقـــاً في الجبهة الغربية في حرب قيصر ١٩١٤ – ١٩١٨ – يردد الشعار الآتي :

« علم المعلمين مـــا يعلمونه
قبـــل أن يعلـّموا الجنود »

ما كان أعظم صوابه !. وهذا ما فعله ألفرد حقــاً . إذ تعلـّم كيف يصمم البيوت ويبنيها ثم علـّم هذه المهنة الى العمال . وتعلـّم القراءة ، ثم ترجم بنفسه لى لغة بلاده كتب الديانة المسيحية للاديرة والمعلومات العلمية التي تزود شعبـه بالمعرفة والحكمة .

ما كان أعظمه رجلاً !. كان على العموم مسيحياً صادقاً ، يمارس كل الفضائل المسيحية التي نعرفها اليوم . أما منجزاته فلا يمكن ان تنسى . وقد عامــل الآخرين كما كان يريدهم ان يعاملوه . فهزم أعداءه ولم يخلق له أعداء . وقد حكم بقوة السجية والمثال . ومات سنة ٨٩٩ وهو في الخمسين من عمره . وربما كان السبب في موته المبكر ان قواه انهكتها حياة كادت ان تكون كفاحاً وخطراً مستمرين . ولم يترك بغضاً في قلب أحد يدفعه الى الثأر منه بعد مماته . وعاشت مملكته واعماله من بعده . ولقد قال عنه مؤرخ :

« كان له الفضل الاول في تكوين انكلترة اكثر من أي رجل آخر » .

وإني أضعه في الصف الاول من القــادة العسكريين والوطنيين ، وهو أمر خارق للعادة في رجل واحد . وقد قاد بريطانيا قيادة نبيلة ، القيـــادة التي ننشدها الآن .

اوليفر كرومول

لنأتِ الآن الى رجل يختلف عنَ الفرد اختلافاً كبيراً .

ان تمثال اوليفر كرومول يقف كحارس خارج مجلس العموم البريطاني في لندن. ويبدو هذا المكان محلاً غريباً لتمثال رجل تعذّر عليه ان يحكم عن طريق البرلمان ، فطرد ثلاثة برلمانات ، واصبح دكتاتوراً في الاخير . وهو يظهر في تمثاله واقفاً يمسك الانجيل بيد وسيفه بالآخر – وقد احسن استعمال كليهما لغرض من الأغراض .

وغير بعيدٍ عن هذا المكان يقوم تمثال إبراهام لنكولن ، مشرفاً على عتبة كنيسة ويستمنستر،وهو مؤمن قوي الإيمان بالحكومة الانتخابية والشرائع وفي حق الاكثرية بالحكم.ليت شعري ماذا كان رأيه في كرومول الذي لم يجد أية فضيلة في أكثرية صندوق الاقتراع السري – ذلك الاسلوب الانتخابي الذي هو الجوهر الأساسي للديمقراطية .

وتمثال سمطس (Smuts) أيضاً لا يبعد كثيراً عن هذا المكان . ولطالما تمنيت ان أناقشه حول كرومول .

ولد اوليفر كرومول في هانتنكتون (Huntington) يوم ٢٥ نيسان ١٥٩٩ . ولا يعرف غير القليل عن طفولته وشبابه . ولكننا نقرأ أنه كان يزور بيت عمّه في هنجنبروك (Hin Chin Brooke) – ويعتقد البعض ان من المحتمل جداً أنه لاقى هناك الامير شارل الشاب الذي كان يصغره بسنة واحدة، والذي كان كرومول المسؤول الأول عن إعدامه فيما بعد . ولما كان قد نشأ صبياً في الريف فقد أحب الخيل ، وسرعان ما أصبح من فرسان الصيد البارعين . وان معرفته هذه بالخيل نفعته فيما بعد كما سنرى .

تعلّم اوليفر في مدرسة نحو وفي نيسان ١٦١٦،عندما كان في السابعة عشر من عمره ، ذهب الى كلية سدني ساسكس (Sidney Sussex) في كمبرج ، لكنه لم يبقَ هناك غير سنة واحدة، لم يحصل خلالها على أية شهادة.وكان ذلك

من جراء وفاة أبيه في حزيران ١٦١٧ . وعاد الى هانتنكتون لتصفيـة أعمال المقاطعة وإدارة أملاكه . وبعد ان انتهى من ذلـك ذهب الى لندن ليدرس الحقوق ليتسنى له بذلـك إدارة شؤونه الخاصة من غير ان يستعين بمستشار قانوني . ومن الممكن أنه شهد أثناء وجوده في لنـدن إعدام سير والتر رالي (Walter Raleigh) في ساحة القصر وذلك فيتشرين الاول ١٦١٨. إلا أننا لا نملك دليلا على ذلك ، ولا ندري مدى التأثير الذي أحدثه إعـدام رالي في تفكيره .

وبينما كان في لندن تعرّف الى ابنة تاجر غني من تجار المدينـة اسمه سير جون بورشير (John Bourchier) فتزوّجها . وكانت الفتـاة تكبره بسنة واحدة وقد صارت له زوجة وفيّة . وأنجبت ثمانية أطفال مـات منهم ولدان وهما صغيران ، وبقي ستة ، وهم ولدان ريشارد وهنري وأربع بنات .

ويبدو انه كان كثير المرض في اول حياته الزوجية . ويعتقد أنه عانى في تلك السنين أزمة روحية تعرّض خلالها الى نوبات من الكآبة والكابوس . وقد بدأ تأثير حياته الدينية السابقة التي عاشها في مدرسته وفي كمبرج ، وأحاديثه الكثيرة مع ابن عمّه (هامبدن) (Hampden) ، يظهر فيـه، فدخـل في منازعة عنيفة مع نفسه ، بعد سنوات قليـلة من زواجـه . ويبدو أنه ليس لكفاحه الروحي أي سجل – لكنه خلق بنتيجة هذا الكفاح خلقاً جديـداً ، ووجد الراحة النفسية التي ينشدها – وذلك إما بطريقة التحليـل المنطقي او ربما بشيء من التجربة الشخصية على ما أظن .

وهنا لا بد من ذكر صفـة أخرى من صفاته . لقد كان اوليفر حـاد المزاج سريع الغضب يثور فجأة ، وقد يسوقه ذلك في كثير من الأحيـان الى الخشونة والعنف . ولكن ديانته كانت تساعده في هـذه الأحوال فيندم على أخطائه بسرعة .

وهكذا عاش أوليفر حياته الريفية ، يدير مقاطعته ويركب الخيـل لصيد ابن آوى ويزهو بصقوره . وكانت الأخبـار تنتشر ببطاءة في تلك الأيام .

ولكنها كانت محيّرة في الغالب . ومن المحتمل جداً ان السياسة الخارجية للملك جيمس قد حيّرت أوليفر . ثم مات هذا الملك المسنّ فارتقى العرش الصبيّ ، الذي كان قد التقى به في هنجكبروك ، باسم شارل الأول . وتزوّج الملك الجديد فتاةً كاثوليكية في الخامسة عشر من عمرها ، وكانت أختاً لملك فرانسه وقد جاءت هذه بكثير من الرومان الكاثوليك إلى القصر الملكي في لندن مما أثار نقمة أوليفر . وكانت الملكة اليزابث قد أيدت حرية الدين ونادت باستقلال انكلترة عن الكنيسة البابوية في روما[1] . وكان أوليفر قليل الاعتبار للملك جيمس ، فإذا بابنه الملك الجديد شارل لا يختلف عن أبيه . وقد وصلت اشاعة إلى هانتنكتون تفيد ان الملك لا يؤمن بالله ويستهزىء بالبرلمان . ففكّر أوليفر في الأخبار الواردة من لندن تفكيراً عميقاً ، ويبدو انه بدأ يشعر شيئاً فشيئاً ان من واجبه ، وهو المسيحيّ المحب لبلاده ، ان يساهم بعض الشيء في هذه الأحداث التي كانت تزعجه . فرشّح نفسه للبرلمان وانتخب عضواً عن هانتنكتون في كانون الثاني سنة ١٦٢٨ .

واجتمع البرلمان يوم ١٧ مارت وقام فيه أوليفر بدور صغير . فألقى خطبة واحدة في شباط ١٦٢٩ حول الشؤون الدينية . وكانت تلك أول خطبة له في ذلك المجلس الذي سيطر عليه فيما بعد ثم حطّمه في الأخير . ومن الممتع ان نتصوّر التأثير الذي أحدثته التجربة الأولى للاجراءات البرلمانية فيه . فقد انتهت دورة انعقاد ذلك المجلس في شجار يوم ٢ مارس ١٦٢٩ بعد أن رفض المجلس السماح لرسول الملك (Black Rod) بالدخول إلى القاعة[2] .

---

١ – كانت الملكة اليزابث (بروتستانتية) المذهب في حين أن الملك جيمس وابنه شارل كانا كاثوليكيين . وان اختلاف مذهبهما عن مذهب أكثرية الشعب البريطاني كان السبب الأول في المشكلات التي يتحدث عنها المؤلف .

٢ – يسمى رسول الملك بـ (Black Rod) (ومعناه القضيب أو الصولجان الاسود) — لأنه اعتاد أن يحمل قضيباً أسود في يده . وان مجيء رسول الملك إلى باب البرلمان تقليد من تقاليد البرلمان البريطاني . فعند بدء كل دورة انعقاد للبرلمان يحضر هذا الرسول ويدق بابه بالقضيب الأسود ، فلا يفتح له الباب للدلالة على حرية البرلمان ، وانه لا يحق للملك التدخل في شؤونه .

وقرأت شكوى قدّمت على الملك، فأرجأ الملك البرلمان وبقي عاطلاً عن العمل احدى عشرة سنة .

وفي هذه السنين التي حكم شارل خلالها من غير برلمان ، سادت البلاد نقمة متزايدة . وقضى أوليفر تلك السنين في مقاطعته يدير مزرعته ويبدي اهتماماً متزايداً في الشؤون المحلية . وقد اضطرته الأوقات غير المستقرة لأن يتخلّى عن الأراضي التي يملكها ، ففي مايو ١٦٣١ باع ممتلكاته في هانتنكتون واستأجر مزرعة صغيرة في سنت ايف (St . Ives) على بعد بضعة أميال من نهر أوز (Ouse) . وليست لهذه السنين الإحدى عشرة من حياته غير سجلات قليلة . ولكننا نعلم انه كان قد أصيب بيأس شديد من جراء سير الأحداث في انكلترة . وفي سنة ١٦٣٦ مات عمه السير توماس ستيوارت (Thomas Stewart) فورث أوليفر مقاطعة (Ely) وانتقل إلى بيت في البلدة قرب كنيسة سنت ماري (St . Mary) .

ثم جاءته أخبار مثيرة من اسكتلندة . فالملك شارل الذي كان يدعي أن من حقه ، بوصفه ملكاً ، ادارة شؤون العقائد الدينية والعبادة ، أصدر مع رئيس الأساقفة (Laud) كتاباً جديداً للصلاة . فرفض الاسكتلنديون هذا الكتاب ورفضوا أن تكون لهم أية علاقة مع روما . كما رفضوا قبول أية مراسيم لم يصادق عليها البرلمان والجمعية العامة لكنيسة اسكوتلندة . وزاد في الطين بلّة ان الكنيسة الاسكوتلندية طردت القسس ، فقرّر شارل اجبار الاسكوتلنديين على الطاعة وانشاء جيش لهذا الغرض . إلا انه لم يكن لديه المال اللازم ، فكان لا بدّ له من الرجوع إلى البرلمان . وفي أوائل سنة ١٦٤٠ صدرت بيانات تدعو إلى مجلس عموم جديد .

وشعر أوليفر ان أحداثاً عظيمة وشيكة الوقوع. وقد شمّ كحصان الحرب المعركة القادمة . ولا ندري هل شعر وقتئذٍ ان نقطة تحوّلٍ في حياته قد اقتربت . كان في الحادية والأربعين من عمره، ورجلاً يختلف اختلافاً كبيراً عن الشاب صاحب المقاطعة الذي كان سنة ١٦٢٠ ، بل حتى عن الرجل الذي ذهب

إلى ويستمنستر قبل احدى عشر سنة كعضو في البرلمان .

ولم يكن أوليفر قد وجد نفسه . ومن المشكوك فيه انه اهتدى إليها حقاً طيلة وجوده في هذه الدنيا . على انه اكتسب ، في الغالب ، فلسفةً وقانوناً في الحياة . وكان ذا إيمان ديني عاطفي . أما رأيه في السياسة فكان محايداً بين الحزبين وهو شبيه برأيي حتى سنة ١٩٥٩ ، وفي السنين الاحدى عشرة التي قضاها في الريف صار يعرف نفسية الفلاحين الانكليز أصحاب الأراضي(١) وشيئاً عن نفسية الشعب البريطاني أيضاً . وكانت تلك سني الاختبار النفسي والتأمل – وربما سني اليأس ، حتى أعطته الأحداث في اسكوتلندة أملاً .

وعندما التأم البرلمان في نيسان ١٦٢٠ طالب باصلاحات لاعتداءات الملك على حرية البرلمان وامتيازاته وعلى حرية المواطنين وأملاكهم ، وعلى أعمال رئيس الأساقفه ومجالسه الدينية . إلا ان الملك شارل لم ينفّذ أياً من هذه المطاليب بل حلّ البرلمان في ٥ مايو بعد انعقاده بثلاثة أسابيع . وعرف هذا المجلس فيما بعد بـ « المجلس القصير » .

ثم تحوّل شارل على اسكتلنده ، لكن جيشه اندحر في ٢٨ آب في نيوبرن (New Burn) على نهر التاين (Tyne) . فاضطر عندئذٍ إلى دعوة برلمان جديد ليجمع المال .

واجتمع البرلمان الجديد ، المعروف بـ « البرلمان الطويل » في الثالث من تشرين الثاني ١٦٤٠ ، فسيطر عليه بايم (Pym) الذي كان من أتباعه أوليفر كرومول العضو الجديد من كمبردج . وكانت الثورة قد بدأت تنتشر – وكان في هذا المجلس شخصيات كثيرة اشتهرت فيما بعد خلال الحرب الأهلية ، في الجانبين المتخاصمين ، جانب الملك وجانب البرلمان . فكان المجلس لذلك أشبه

---

١ – (Yeoman Farmers) وكان هؤلاء يملكون أراضيهم الزراعية ويسمّون (Gentleman Farmers) تمييزاً لهم عن الفلاحين الفقراء الذين كانوا يعملون أجراء في أراضي هؤلاء، وعند أصحاب المقاطعات الزراعية الكبيرة. (المترجم)

بالعرض العسكري الذي يسبق يوم المعركة .

ولا حاجة هنا لسرد كل ما حدث بعدئذٍ . فقد طالب البرلمان باستمرار بحقوقه وامتيازاته فوافق شارل أولاً ثم عدل عن كلامه . وجاءت بعدئذٍ الحماقة تلو الحماقة ، حتى بلغت الأزمة ذروتها في كانون الثاني ١٦٤٢ عندما ذهب الملك إلى البرلمان مع اربعمائة من الجنود المسلّحين للقبض على خمسة أعضاء اتهمهم بالخيانة . وعندما دخل القاعة وجد ان الرجال الخمسة قد خرجوا . وكان شارل في عمله هذا ، قد تخطّى الحدود ولم يعد في وسعه أن يتراجع . وانحطّت منزلته إلى درجة لم يعد معها رجل الشارع يثق بشرفه أو حكمته . وفي ١٠ كانون الأول ١٦٤٢ ترك الملك لندن ، ولم يرجع إليها حتى الوقت الذي حوكم فيه وأعدم سنة ١٦٤٩ .

وطالت المفاوضات بين الطرفين مدة ستة أشهر ، ولكنهما كانا يستعدان للحرب في الوقت نفسه . وعيّن ايسكس (Essex) قائداً عاماً لقوات البرلمان وأقام شارل مقره في نوتنكهام .

ولم تكن الحرب الأهلية التي كانت توشك أن تبدأ ، حرباً اجتماعية كما تصوّرها فريق من الناس ، بل كانت صراعاً بين طرفين منقسمين حول المسائل السياسية والدينية . ولكن الاختلاف بين هذين الطرفين كان شبيهاً ببعض الانقسامات الاجتماعية .

واني لا أود البحث في تفاصيل حوادث الحرب الأهلية التي بدأت في أواسط ١٦٤٢ واستمرّت إلى أن تمّ إسقاط شارل نهائياً واعدامه في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩ . وكان ابنه شارل الثاني المقيم في هولنده وقتئذٍ يدبّر المؤامرات في اسكتلندة مع أتباع الكنيسة المجمعية (Presbyterians) . فلما أعدم أبوه نصّب توّاً ملكاً ، بعد وصوله إلى ابردين في حزيران ١٦٥٠ . ثم بدأت ما تسمى أحياناً بالحرب الأهلية الثانية ، التي انتهت باندحار ساحق للجيش الاسكتلندي الملكي في معركة ورستر (Worcester) يوم ٣ أيلول ١٦٥١ — وهرب قائده شارل الثاني إلى فرانسه . ولم تكن الحرب الأهلية للمرة الثانية

في الواقع غير ثورة ملكية في اسكتلنده . ولم يظهر لها الشعب الانكليزي غير اهتمام قليل .

ولقد أنهت معركة وستر حياة كرومول العسكرية . ويجب البحث في هذه الناحية من حياته قبل النظر في حياته الباقية ك(حامي حمى الدولة) (Lord Protector) . لم يكن كرومول جندياً بالمهنة ، إذ لم يكن في انكلترة جيش محترف منذ حرب المائة سنة . ومع ان الجيوش أرسلت إلى خارج انكلترة في عهد جيمس وشارل، إلا انها كانت مؤلفة من المرتزقة والفرق الإجبارية[1] . ولم يكن يتيسّر للدفاع المحلّي في انكلترة غير قوات (المليشيا) وحدها . ثم انشأت الملكة اليزابث لهذا الغرض العصابات المدرّبـــة ، لكن تدريبها كان يقتصر على يوم واحد في الشهر ، وخلال فصل الصيف فقط .

وكانت القوات المتخاصمة لشارل والبرلمان تشترك في صفة واحدة، وهي أنه لم يكن لدى الاثنين جيش ذا كيان او قادة ذوي خبرة . كما أنه لم تكن لديهما شهرة عسكرية يمكن أن يستند اليهـــا . ولا يخفى أن الظفر في حـــالة كهذه يكون حليف الطرف الذي يهيأ أحسن جهاز مقاتل واعظم قائــد . ولم يدر في خلد أحد أن الصراع سيكون بين الأمير روبرت الذي كان في الثالثـــة والعشرين من عمره ، وقد قاتل بتميّزٍ في أكثر من حرب واحدة ، وبين اوليفر كرومول الذي كان في الثالثة والاربعين من عمره ، والذي كان مزارعاً في وقت ما ثم قائداً لرعيل مؤلف من ستين خيالاً ، وقد اكتسب معلومـــاته العسكرية الوحيدة عن الحرب بقراءة كتب غوستاف ادولف ملك السويد . وربما كان من حسن حظ اوليفر أنه عاش في عهد تطوّر في فنون الحرب ، إذ كانت فنون الحرب التقليدية وقتئذٍ في بوتقة الصهر . غير أنه كان يتحلى بصفـــات نفعته كثيراً عندما تولى القيادة .

فقد كان رجلاً عملياً ذا مقدرة عظيمة في التنظيم . ثم كان يعرف السبيل الى

---

١ - (Press Gan Gs) - وهي جماعات اعتادت السلطات أن تجمع أفرادها بطريقة اجبارية وتلحقهم بالقوات المحاربة عند الحاجة .

قلوب رجاله . وان وجود هاتين الميزتين لديه جعل منه ضابط تجنيد ماهر ، ومدرباً من الطراز الأول . وقد زوّد بريطانية بتنظيم عسكري سليم ، وبجيش ذي ضبط . وحوّل فلاحي الريف في انكليا الشرقية (East Anglia) الى جيش حديدي – وهنا يكمن حقه الاول في العظمة العسكرية .

ثم انه جعل من نفسه قائد خيالة ماهر ، وان حبه للخيل الذي سبق أن أشرنا اليه ، وغرائزه الخاصة جعلاه يشعر بأهمية قابلية الحركة التي تمتاز بها الخيالة والتأثير الذي يحدثه قتال الصدمة[1] الناجم عن هجومها في الزمان والمكان المناسبين . وينبغي أن يعدّه التأريخ قائد خيالة من الصنف الأول .

أما في المجال التعبوي فقد كان مرناً يعدّل حركاته حسب تطور الموقف . ومع أنه كان سريع الغضب ، ويتهوّر في بعض الأحيان إلا انه كان يبدو هادئاً في المعركة هدوءاً غريباً . وكانت لديه الملكة لرؤية معضلته في ضوء الحقيقة . وكان في وسعه ان يكون جزئياً للغاية وحذراً للغاية . ان المهارة العظيمة في القيادة العسكرية تتجلى في المقدرة على تسهيل كل مشكلة ، وكشف الاسس التي يجب ان يبنى عليه العمل بأسره – على ان يتبع ذلك القرار والعمل . وان توفر مزايا البساطة والقرار والعمل معاً هو الدليل الساطع على العبقرية العسكرية – وذلك ما كان يملكه كرومول .

واني أعتقد أنه لولا اوليفر كرومول لخسرت قوات البرلمان الحرب الأهلية . فلو خيّب أمل انكلترة في ذلك الوقت ، فان الحرب الاهلية كانت ستؤدي الى عودة قوات ستيوارت[2] تساعدها قوات من اسكوتلنده وربما من ايرلنده ومن الدول الاجنبية أيضاً . وقد كان الصراع يعتمد على عزيمة او ليفر كرومول التي لم تهن في أي وقت كان .

---

١ – (Shock Action) – وهو الهجوم السريع الذي كانت تقوم به الخيالة في الحروب القديمة على مشاة العدو فتحدث بين صفوفهم تأثيراً يشبه ما يحدثه هجوم الدبابات في الحروب الحديثة .

٢ – عائلة ستيوارت هي عائلة الملك شارل وهي اسكوتلندية الأصل .

واحسب أن اللطخة الرئيسة في شهرته العسكرية هي أن حملته العسكرية في ايرلنده جرت بقسوة متناهية يصعب الصفح عنها - فلا يمكن نسيان مذبحة حامية دروغيدا (Drogheda) الفظيعة التي قتل فيها حتى الرهبان. وهو بعمله هذا لم يخطىء بحق الإنسانية فحسب، بل بحق الحكمة العسكرية أيضاً. وقد اتضح فيما بعد ان مذابح دروغيدا لم تكن رادعة للعدو بل كانت سبباً في استفزازه.

ومع ذلك، فالى هذا الحد الذي بلغناه في بحثنا عن كرومل يجب ان نقر له بالافضلية، وان نضعه في الصف الامامي للقادة العسكريين العظام.

وبعد معركة ورستر في أيلول ١٦٥١ كان كرومول في الثانية والخمسين من عمره، والرجل الأول في انكلترة. وكان الجيش كله يؤيده بقوة، والبلاد تهتف له. وقد أصبح معقد آمال الشعب البريطاني، وصار بيده زمام المبادأة. فلنر الآن كيف نهج خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته - حتى وفاته في أيلول ١٦٥٨ - وهي الحقبة التي كانت بيده خلالها السلطة العسكرية العليا، والتي تولى فيها بعد نيسان ١٦٥٣، السلطة السياسية العليا أيضاً.

لقد شعر اوليفر بمسؤولياته، الا أنه انتظر من البرلمان ان يقيم الحكومة على أساس صحيح. ولكن انتظاره كان عبثاً.

وجاءت الأزمة في نيسان ١٦٥٣. عندما كان المجلس يناقش لائحة لنوع من التمثيل البرلماني، وقد أوشكت القراءة الثالثة لهذه اللائحة أن تقرأ. وكانت هذه اللائحة تمنح أعضاء المجلس الحق في الاحتفاظ بمقاعدهم، وتخولهم صلاحية إبعاد أي عضو ينتخب الى إحد المقاعد الشاغرة إذا كانوا لا يوافقون عليه. ولم يكن اوليفر في المجلس وقتئذ، لكنهم أرسلوا في طلبه على عجل. وأخبره الرسول بما كان متوقعاً ان يحدث. فترك غرفته في ويتهول ليذهب الى ويستمنستر[1]، بعد ان أمر جماعة من جنود كتيبته الخاصة ان تتبعه. ودخل المجلس، واصغى الى النقاش تاركاً الجنود في الخارج. وكان وهو يصغي يزداد

---

١ - مكان البرلمان البريطاني.

غضباً شيئاً فشيئاً . ولما نهض رئيس المجلس أخيراً ليعلن القراءة الثالثة ، نهض اوليفر في الوقت نفسه ، وصب جام غضبه على الاعضاء قائلاً لهم بصريح العبارة « سأضع حداً لثرثرتكم . انكم لستم ببرلمان » . ثم صاح « ليدخل الجنود »

وملأ الجنود القاعة فسحبوا الرئيس من كرسيه ورفعوا الصولجان[1] من مكانه ، وطردوا الاعضاء الى الخارج ثم أغلق باب المجلس وذهب اوليفر الى البيت .

وكان ذلك نهاية البرلمان الطويل . ولم يبقَ بعدها برلمان او حكومة في البلد – فيما عدا الرجل الذي كان قد نصبه البرلمان قبل سنة قائداً عاماً لجيوش انكلترة واسكوتلنده وايرلنده . وغدا اوليفر كرومول آنذاك الحاكم الفعلي لبريطانية .

وجدير بنا أن نمعن النظر في حياته حتى ذلك التاريخ لقد كانت حياة لامعة من الوجهة العسكرية . ولكن التأريخ يرى أنه ارتكب خطأين كبيرين :

الأول – توقيع حكم الإعدام بشارل الأول . والثاني – العمل الاستفزازي الذي ادى الى حل البرلمان بالقوة العسكرية . وقد ارتكب هذين الخطأين مضطراً على ما أظن . وكان البرلمان قد حصّل من شارل الاول الحق في ألا يُحل إلا بموافقته . لكنه لم يعد ، تلك الهيئة التي اكتسبت هذا الامتياز الا بالاسم ومع انه كان في الإمكان توجيه البرلمان بأناةٍ نحو حل نفسه بنفسه ، إلا أن مزاج أوليفر الحاد لم يحتمل ذلك ، فطرده بالقوة .

وأصبح كرومول بعدها كملك في الحقيقة . ويرى البعض انه كان في وسعه الحصول على الملكية متى شاء، لو كان راغباً في ذلك . ولكن لم يكن ثمة دليل على انه رغب فيها . وقد عزم على أن يحكم انكلترة بطريقته الخاصة – كحاكم عسكري (Lord General) . ولم يكن برلمانه ناجحاً . فقد التأم يوم ٤ تموز ١٦٥٣ وحلّ نفسه بنفسه في ١٢ كانون الأول من السنة نفسها ، لأنه عجز عن العمل مع كرومول . وقد سمّي بـ « البرلمان الصغير » كما سمّاه البعض

١ – الصولجان رمز لقوة البرلمان .

بـ « برلمان باربون » (Barebone Parliament) .

وفي ١٦ كانون الأول ١٦٥٣ اقسم اوليفر اليمين بصفته حـامي حمى الدولة (Lord Protector) وحكم في الاشهر الثمانية التي تلت ذلك بواسطة اللوائح . واجتمع البرلمان الاول في العهد الجديد في ٣ أيلول ١٦٥٤ ، فحدث خلاف بينه وبين اوليفر حول قضية السيطرة على الجيش . وقد رفض اوليفر المساومة حول هذه القضية . وكان البرلمان يرى أملاً ضعيفاً في إقامة حكومة مستقرة،مـا لم يكن له القول الفصل في شؤون البلاد . في حين ان أوليفر كان يرى ان ذلك سيؤدي الى الفوضى . فحل البرلمان في ٢٢ كانون الاول ١٦٥٥ .

وهكذا أصبحت لديه سلطة لم يملكها أي ملك انكليزي منـذ عهد وليم الفاتح . لكن سلطته كانت مستمدة ، في الحقيقة ، من سيطرتـه على الجيش . وصارت خطته بعدئذٍ إيجاد نوع من البرلمان يوصي لكنه لا يفرض ارادته .

وكان الشكل الجديد للحكومة ينطوي على تقسيم انكلترة الى احدى عشرة منطقة،يرأس كلاً منها ضابط برتبة لواء – وكان ذلك تدبيراً بوليسياً، إلا أنه لم يكن من الوجهة الإدارية غير كارثة . وقـد اضحت « انكلترة المرحة » مكاناً كئيباً تحت حكم الضباط القادة .

وفي سنة ١٦٥٦ دعت الحاجة الى تدارك المال اللازم للحرب مع اسبانيـة ، فاستدعى اوليفر برلماناً جديداً التأم في ١٧ ايلول . والغى حكم الضباط القادة . وفي مايو ١٦٥٧ نظمت الدولة بشكل جديد ، فأعيدت الحكومة البرلمانيـة ، واسّس مجلس جديد للوردات وكان يحق لحامي حمى الدولة ان يرشح اعضاءه . ولكن هذا الاسلوب لم ينجح ، ولما رأى اوليفر ان الخلاف بين المجلسين اوشك ان ينشب ، حلّ البرلمان في ٤ شباط .

ان كل هذه المشكلات انهكت قوى اوليفر ، فنـام في الفراش في مارس يعـاني من خرّاج خطر . وبقي مريضاً طوال صيف ١٦٥٨ . وفي آب من تلك السنة ماتت ابنته المدللة اليزابث كليبول (Elizabeth Claypole) . فاذهـله الحزن واشتد عليه المرض ، فمات في ٣ ايلول ١٦٥٨.

انني أضع كرومول ، كرئيس عسكري ، في أعلى المراتب . أما كرئيس سياسي ، وكزعيم وطني فلم يحالفه النجاح كما حالفه كقائد عسكري . فقد جرّب بين سنتي ١٦٥٣ و ١٦٥٨ خمسة أساليب مختلفة للحكومة ففشلت جميعها . وبذل اقصى جهوده للبناء ، لكنه اضطر دوماً الى التخريب . وكان يؤمن بحكومة من الشعب تعمل للشعب ، لكنه لم يكن يريدها حكومة يختارها الشعب ، لأن الشعب لم ينتخبه . وقد حاول عبثاً أن يفرض حكم الأقلية على الاكثرية . وكان مرتجلاً عظيماً ، فحاول يائساً وسيلة بعد أخرى فإذا بها تفشل في يديه .

ولكن كيف كانت نهايته ؟

في ١٠ كانون الأول ١٦٦٠ صدر في مجلس اللوردات والعموم الأمر الآتي :

« تستخرج باسرع ما يمكن ، جثث اوليفر كرومول وهنري آيرتون وجون برادشو وتوماس برايد ، من قبورهم ، سواء أكانوا قد دفنوا في ويستمنستر أم في مكان آخر ، وتسحب على باب الى تايبرن[1] (Tiburn) » .

وفي تايبرن علقت الجثث ، وهي في أكفانها ، ثم دفنت تحت المشانق . وقد قطع رأس كرومول وعلّق على عمود فوق سطح قاعة ويستمنستر لكي يراه الناس . وبقي الرأس معلقاً حتى سنة ١٦٨٤ .

وتخطر لي عن اوليفر كرومول فكرة أخرى : هل كان يبالغ في تطبيق الانجيل يا ترى ؟ فقد كان يوفق بين كل عمل من أعماله وفقرات من الإنجيل .

انني أتذكر بهذه المناسبة سيدة عجوز أقامت معنا ذات مرة (أنا وزوجتي) في البيت . وفي صباح ذات يوم قرأت في إحدى الصحف ان اسم ابنها ذكر شريكاً لزانية في حادثة طلاق . فاعتكفت في غرفتها ثلاثة أيام ومعها الانجيل ، محاولة ان تعثر على فقرات او عبارات من الكتاب المقدس تشير الى امكان الغفران عن ابنها لعمله هذا . ولما أخفقت في مسعاها ، ارسلت في طلب محاميها ، ووضعت وصيّة جديدة حرمت فيها ابنها من الإرث .

---

١ ــ محل في وسط لندن كانوا يعدمون فيه الناس في ذلك الزمن .

ان المرء لا يمكن ان يعمل بهذه الطريقة في هذه الدنيا غير الكاملة . والغرض من الانجيل ان يكون دليلاً ، وليس مجموعة قوانين ينبغي أن تتبع بصورة جازمة.

واني أرى أنه كان في وسع كرومول ، بمزيد من الصبر والاقناع ، وبشيء من الحلم في حل المشكلات ، وبالدهاء بدلاً من القوة ، كان في وسعه بهذه الوسائل كلها ان يجعل خاتمة حياته السياسية أفضل مما كانت . لقد كانت احدى الأسباب التي صيّرته جندياً ناجحاً هو عدم وجود حلفاء له ، اولئك الذين يدفعهم شعورهم القومي الضيق الى الميل نحو المساومة في القضايا الجوهرية وتسويتها . لقد اكتسبت انا تجربة في هذه المشكلة !. وعندما أصبح كرومول سياسيا كان عليه ان يساوم . ولم تكن المساومة من طبعه .

وقبل وفاته ببضعة أيام سمّى اكبر اولاده ريشارد خلفاً له حامي حمى الدولة – ولكن نظام الحماية هذا قد سقط في أقل من سنة ، سقوطاً فاضحاً ، وأعيدت الملكية الى انكلترة بفرح يكاد ان يكون شاملاً . على أننا يجب ان لا نخطأ هنا . فالملكية سنة ١٦٦٠ لم تكن نفسها سنة ١٦٤٠ ، ويعود الفضل في ذلك الى اوليفر كرومول .

ولا شك أن كرومول كان شخصية معقدة جداً ، ولكن التأريخ قد يبرهن على أنه كان اكثر تسامحاً من الناحية الدينية من أكثرية رجال زمانه . وقد بذل جهوده للتفاهم مع شارل الأول ، ولكن هذا لجأ الى الخديعة . وعلى كل حال فان جيش كرومول المستقل الكبير لم يكن ليرضى بالتفاهم مع شارل .

واني أعتقد أن كرومول كان دكتاتوراً بغير إرادته . وقد عاش في زمن كان يستحيل فيه تقريباً ، على أي رئيس من رؤساء الدول ، ان يفعل أكثر من محاولة البقاء في الحكم اسبوعاً بعد آخر . ولا ريب ان كرومول ، حالة جديرة بالاهتمام الشديد . فهو رجل لم يعش في الحقل السياسي طويلاً ليتغلب على الفوضى الضاربة اطنابها في الكنيسة والدولة في ذلك الوقت .

على أننا نستطيع ان نقول عنه : إنه لولاه ربما كانت انكلترة بلداً يختلف عما هو عليه اليوم اختلافاً كبيراً .

الباب الخامس

ابراهام لنكولن

سأنتقل الآن إلى الأمام مائة وخمسين سنة. لقد كتبت عن لنكولن[1] كتب كثيرة قيل ان عددها بلغ نحو ألفي كتاب. وربما يعدّ من الوقاحة لو كتبت عنه شيئاً أكثر. لكن كثيرين من قراء هذا الكتاب قد لا يعرفون عن هذا الرجل إلا القليل، وقد يجهلون حتى التاريخ الذي كان فيه رئيساً للولايات المتحدة، أو كيف ارتقى إلى هذا المنصب، وأنقذ الاتحاد في زمن كان يتمزق فيه، وهو الأمر الذي كان يعد مأساة البشرية جمعاء. مضافاً إلى ذلك، يجب أن نحاول لغرضنا الخاص، ان نكشف عن الصفات الخاصة التي كان يتحلّى بها لنكولن، والتي مكّنته أن يمارس الزعامة لخير الشعب الأمريكي. فينبغي لذلك أن نلقي نظرة خاطفة على حياته الأولى، وأن نختبر بعدئذٍ كيف عالج المواقف التي أحاطت به عندما تولى منصبه الخطير.

بدأت الحرب الأهلية الأمريكية، أو الحرب بين الولايات، كما يفضّل أن يسمّيها كثير من الأمريكيين، قبل نحو مائة سنة (١٨٦١). وكان لنكولن

---

١ - ABRAHAM LINCOLN

قد ولد قبل ذلـــك بخمسين سنة (في شباط ١٨٠٩) . وهو ينتمي في الأصل إلى جماعة الانـكليز الـ (كواكرز[١]) ، ولكننا لا نستطيع أن نتتبّع أصله إلى أكثر من جده .

وكان أبوه توماس لنكولن (Thomas Lincoln) ، فلاحاً فقـــيراً في ولاية كنتـكي (Kentucky) . أمــا أمّه فـكانت سفاحاً لخادمة أهلية جاءت تائهة تحمل طفلها إلى كنتـكي . وكانت العـــائلة فقيرة جدّاً ، فعاش ابراهام حياة ملؤها المتاعب . وزاد في الطين بلـّة ان أباه كان ينقل بيته باستمرار باحثاً عن أرض أفضل للزراعـة . والظاهر ان ابراهام كان يختلف عن أبيه من حيث المظهر اختلافاً كبيراً ، مما أدى إلى ظهور إشاعة تفيـد انه لم يكن ابن أبيه . لكن ثبت ان هذه الإشاعة باطلة تماماً . ولم يكن ابراهام يختلف عن أبيه من حيث المظهر فحسب ، بل في النماء العقلي والفكري أيضاً . ويبدو انه كلما كان ابراهـــام يزداد طولاً كان توماس يزداد قصراً . والظاهر ان ابراهام لم يكن يحمل لأبيه مودة حقيقية ، وهو لم يحاول إخفاء ذلك ، فقد كان كثير الأمانة والإخلاص . وماتت أمه وهو في الثامنة من عمره وكان يحبّها فحزن لفقدانها كثيراً . وفي أواخر سنة ١٨١٩ عندمـــا كان في الحادية عشرة من عمره ، تزوّج أبوه ثانية – أرملة ذات ثلاثة أطفال . وقد نجح هـــذا الزواج وصار الصبي ابراهام يحب زوجة أبيه بعد أن تلاشت من مخيلته ذكريات أمه الأصلية . ان حب ابراهام لأمه ولزوجة أبيه وعدم تمكنه من مماشاة أبيـــه يثير اهتمامي دائماً ، لأن علاقتي بأبويّ كانت على عكس ذلك تماماً . فقد أحببت أبي ولكنني لم أتمكـّن من مماشاة أمي . وأعتقد انني كنت المخطىء في هـــذا كله ، كما أوضحت ذلك في ترجمة حياتي .

وكانت دراسة ابراهام المدرسية ، وهو صبيّ ، متقطعة . فقـد كان يرسل إلى أية مدرسة تتيسّر في المنطقة المجـــاورة لبيته . وعند عدم تيسّرها كان

---

١ (English Quakers ، وهم جماعة من المسيحيين (الحنبليين) الذين يعتقدون بعدم الحاجة إلى القساوسة والمظاهر الزائدة في الدين - وهي جماعة مسالمة جداً .

يتعلّم ما يمكن تعلّمه من الرجال الذين يعرفهم . واننا نقرأ أن مجموع المدة التي ذهب فيها إلى المدرسة كان أقل من سنة واحدة . لكن رغبته في التعلّم دفعته إلى تعليم نفسه بنفسه، حتى صار يقرأ ويكتب أحسن من أي أحدٍ في الريف، ويحرّر جميع الكتابات لعائلته ولأصدقائهم . وكان قرّاءً عظيماً يفضل دراسة قليل من الكتب القيّمة على التنقّل بسرعة بين كثير من الكتب التافهة . وقد شعر طيلة حياته بنقصٍ في ثقافته، ولم يكن ليخجل من الاعتراف بذلك، وليس لدينا دليل واضح على انه درس الانجيل ، الا انه كان موجوداً في بيته ولا شك. بل ربما كان الانجيل هو الكتاب الوحيد فيه . على اننا نلحظ قراءته للانجيل في خطبه وكتاباته الأخيره . ويظهر انه كان قصّاص حكايات مشهوراً ، فكان في وسعه أن يسلّي أية جماعة بقصصٍ من تأليفه – كانت تسلّي الأصدقاء والغرباء على السواء .

وهكذا نشأ ابراهام وترعرع . وعندما كان في الثانية عشرة من عمره بدأ يكسب معيشته بانجازه أعمالاً إضافية إلى الجيران . ونما بسرعة عظيمة حتى بلغ طوله نحو ستة أقدام وأربع عقد، وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره وصار له ذراعان وساقان طويلتان، وغدا قوياً إلى درجة كان يُطلب كثيراً للقيام باعمال من النوع الثقيل . وقد تعلّم المصارعة الحرة واشتهر في مهارته في هذا الفن . لكن خطوطاً عميقة بدأت تتكوّن مبكراً في وجهه ، وربما كان ذلك بسبب متاعب الحياة الأولى، أو من جراء سوء التغذية في طفولته .

وجاء الوقت الذي ترك فيه ابراهام البيت ودخل معترك الحياة ليشقّ طريقه بنفسه . فبدأ بائعاً في دكانٍ في احدى القرى، ثم أصبح مأموراً لمكتب بريد . وأمضى ، بعدئذٍ ، مدة قصيرة في قتال الهنود الحمر في حرب « الصقر الأسود » ... وقد اشترك في هذه الحرب متطوعاً سنة ١٨٣٢ ، واختاره رفاقه قائداً للسرية . وخدم ثمانين يوماً تقاضى خلالها نحو مائة وعشرين دولاراً . وكانت تلك تجربة ثمينة علّمته شيئاً عن الجندية وكيفية ادارة الرجال ، وعن أهمية المعنويات والضبط . وقد نفعته تلك التجربة كثيراً فيما بعد .

ثم قرّر أن يصبح محامياً . وكانت مهنة المحاماة مهنة رابحة في بلاد كان سكانها يزدادون باطراد ، وكل فرد فيها يبغي الحصول على أرض . وفي ذلك الوقت على وجه التقريب بدأ يهتمّ بالسياسة اهتماماً شديداً . وكانت السياسة في تلكم الأيام تكاد أن تكون الموضوع الوحيد للحديث بين الناس إلى جانب الزراعة - بل كانت في الغالب تسلية وطنية . وقد برهن لنكولن على انه سياسي مطبوع . إذ كان في وسعه أن يقصّ قصصاً ممتعة ، ولديه مقدرة على دراسة رفاقه . وقد تعلّم كيفية السيطرة على المستمعين ، وكان استاذاً في تحريك خيوط الأمور من وراء الستار . وفي سنة ١٨٣٤ انتخب ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، عضواً في المجلس التشريعي لولاية الينويز (Illinois) وقد بقي أربع دورات في ذلك المجلس اكتسب خلالها تجربة لا تثمّن . إذ تعلّم فن السياسة وأساليب السياسيين وطبيعتهم - استمالة الناخبين بشتى الطرق (إلى حد الرشوة تقريباً) ، والاقناع والمناورة وأخيراً المساومة . وقد برهن على انه ماهر في هذه اللعبة إلى درجة كبيرة . ورب سائلٍ يقول : لماذا انضمّ إلى الحزب الجمهوري برغم أصله المتواضع ، وميله الشديد نحو جماهير الناس ، وبرغم ان المفروض في الجمهوريين انهم أصحاب الثروة والأعمال الكبرى أكثر من الدمقراطيين . على قدر ما استطيع استنتاجه من دراستي لحياته ، انه كان يكره جاكسون زعيم الدمقراطيين ، وان أصدقاءه الجمهوريين ساعدوه مساعدة كبيرة عندما دخل معترك الحياة السياسية للمرة الأولى . ان هذين الأمرين ربما ساعدا على تبلور تفكيره السياسي .

ولننتقل الآن إلى شؤونه الغرامية التي انتهت بزواجه . يظهر انه لم يكن مستريحاً إلى النساء ، وكان يخافهن . وربما كان ذلك بسبب شكله الخشن الشاذ الذي جعله حيّياً في المجتمع النسائي . أو ربما لم تكن تهمّه الجاذبية الجنسية . وعلى كل حال فانه لم يكن سعيداً في شؤونه الغرامية . ولقد قرأت ان الرجال الذين ينشأون وهم يجهلون النساء ، فانهم يميلون إلى تصوّرهن بشكل مثالي مما يجعل زواجهم بالنتيجة غير سعيد . غير ان تجربتي الشخصية لا تتفقّ مع هذه

الفلسفة . ومهما كان الأمر فان غرامه الأول لم يكن فاشلاً بقدر ما كان محزناً. فقد وقع في حب ابنة صاحب فندق كان يقيم فيه ذات مرة ، واسمها آن رتليج (Ann Rutledge) . وتمّت خطبتها تمهيداً للزواج . ثم ماتت الفتاة على حين غرة . واختلفت الآراء فيما إذا كانت هذه الحادثة قد تركت أي أثر دائم في لنكولن . وكان الانطباع العام هو انه لم يشفَ من تأثير الصدمة إلا بعد بضع سنوات .

أما حبه الثاني فلم يكن سعيداً كما لم يكن محزناً – وربما يصحّ القول انه كان « مضحكاً » . فبعد ثلاث سنوات بدأ يعاشر سيدة تدعى ماري أوينز (Mary Owens) وكانت هذه قد اجتازت سن الشباب . وكانت أختها المتزوجة تبحث لها عن زوج ، فلما فاتحت لنكولن وافق على الزواج من ماري وهو يضحك ظاناً انها تمزح ، وشعر بمرور الأيام انه لا يحب هذه السيدة ، غير انه رأى ان من واجبه ، مع ذلك ، أن يتقدّم لخطبتها رسمياً ، وقد قام بذلك. ولكن لشد ما كانت دهشته عظيمة عندما رفض طلبه . ولما كرّر الطلب جوبه بالرفض مرة أخرى ، فرجع عندئذٍ عن عهد الزواج بعد ان اصيبت مشاعره بجرح عميق ! . إنني أشاركه في شعوره . فقد حدث إلي ذات مرة في أيام شبابي ما يشبه ذلك تقريباً . ولكن ذلك لا يعرفه الا القليلون ، وهو على كل حال موضوع لا أستطيع البحث فيه .

وفي المرة الثالثة حالفه الحظ – طبقاً لما يعتقده الناس !. ففي سنة ١٨٣٩ التقى بامرأة شابة مرحة قوية الإرادة وطموحة اسمها ماري تود . (Mary Todd) وهي ابنة مدير مصرف في كنتكي . وكانت هذه مثقفة وتمتاز كثيراً على لنكولن ، وعلى اصدقائه ، بالمكانة الاجتماعية . لكنها كانت حادة الطبع. وكانت لديها نظرة صائبة في كيفية الوصول الى الحكم ، فأدركت بثاقب فكرها ان لنكولن كان أكثر الرجال احتمالاً لأن يوصلها الى البيت الأبيض – وقد أصابت التقدير . ولم يكن هو قد التقى بمثلها من قبل ، وتمت خطبتها سنة ١٨٤٠ . لكن لنكولن بدأ يشعر ، على مر الأيام أنه اصطاد

سمكة صعبة ، فحاول ان يفسخ الخطوبة لكنهـــا استخدمت سلاح النساء ، (الدموع) ، فأذعن لمشيئتها . ثم جـــاء يوم الزواج ، فوصلت العروس الى الكنيسة اولاً وانتظرت وصول لنكولن ولكن عبثاً ـ فقد تملص ولم يحضر !

انني أقرأ في الصحف من وقت لآخر ، قصصاً مثيرة عن حوادث كهذه . واقرأ أحياناً عن عرائس يقررن في اللحظة الأخيرة انهن لا يتمكن من الزواج فيعدلن عن الحضور الى الكنيسة . وكنت أفكر دائماً أنه لا بد من وجود نقص عقلي في الشخص الذي يقدم على ذلك . ولكن الإنسان قـد يخطىء في رأيه . فان لنكولن قد فعل ذلك برغم أنه لا يعاني نقصاً في جهازه العقلي . والى القاري تتمة قصته : لقد خجل كثيراً مما فعله ، واستشار طبيباً في الأمراض العقليـة فاوصى له هذا ان يلازم البيت مدة اسبوع !. إن هذا يرينا كيف ان العظيم قد يخطىء !

وشفي لنكولن تدريجياً من تأثير الحادث، وكذلك شفيت ماري تود. ودبّر الأصدقاء لقاءهما مرة أخرى ، وفي هـــذه المرة دبّ الحب الحقيقي في قلبيهما بهدوء ، وفي تشرين الثاني ١٨٤٢ تزوجا . وانجبت مـــاري أربعة أولاد مات احدهم واسمه أدوارد وهو في الرابعة من عمره ، ومـات آخر واسمه ويلي (وهو الثالث في الكبر بين أبنائـــه) سنة ١٨٦٢ في البيت الأبيض وكان في الحادية عشرة من عمره . غير أننا نقرأ أن حياته الزوجية لم تكن سعيدة . فقد كان بسيطاً من أصل متواضع . وكانت زوجته تحب الملابس الفـــاخرة والجواهر والحفلات . وإني لا أظن أن لنكولن كان رجلا يسهل العيش معه . ولا بد أن اهماله في تصرفاته وفترات الكآبة الشديدة التي كانت تنتابه ، أزعجت ماري . ثم ساء طبعها حقاً ، فأخذت تهاجمه بلسانها البذيء . وكان عندمـــا لا يطيق سماع ذلك يترك البيت ذاهباً الى مكتبه . وهكذا أصبح بيتـه مكاناً مزعجاً لا يجد فيه غير الازعاج المستمر . وقلما وجد فيه الرقة والعشرة الطيبـــة . ومن جراء ذلك كرّس المزيد من وقتـه الى الشؤون العامة ومهنـــة المحاماة والى السياسة ، بل الى جميع الأغراض التي يستطيع بها ان يخدم الناس . على أنه تعلم

درساً واحداً ، إذ صار في وسعه التغلب على عيوب الطبع في كيانه ، وان يماشي أي نوع من الحياة او القدر الذي قدّر له .

وفي سنة ١٨٤٦ انتخب عضواً في الكونجريس الامريكي ، وفي الامكان قراءة قصة حياته بعد هذا التاريخ في كتب عديدة. فقد أصبح محامياً مشهوراً، وصار يكثر السفر لأمور تتعلق بمهنته ، ويلقي خطباً كثيرة ، حتى اصبح ذائع الصيت شيئاً فشيئاً . وفي المؤتمر المنعقد في مارس ١٨٦٠ في مدينة شيكاغو ، رشّحه الحزب الجمهوري الى رئاسة الجمهورية . وفي ٦ تشرين الثاني ١٨٦٠ انتخب رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة الامريكية ، فتقلد منصبه رسمياً في ٤ مارس ١٨٦١ في واشنطن ، وكان وقتئذٍ في الثانية والخمسين من عمره . وقد القى القدر على عاتق هذا الرجل الوحيد عبئاً ثقيلاً ندر أن عهد بمثله الى رجل من قبل . وكان ذلك اختباراً عسيراً له ، وأدى بالنتيجة الى اغتياله في نيسان ١٨٦٥ ، وذلك بعد أسابيع قليلة من توليه رئاسة الجمهورية للمرة الثانية .

على انه كان على أتم الاستعداد عندما حان الوقت له ليقود الشعب الامريكي. وكانت مشكلة الساعة في زمانه موقف العبيد في الولايات المتحدة . فعندما أسس الاتحاد كان رق الزنوج قد أصبح راسخاً في الولايات الجنوبية . وكان استخدام العمال المستوردين من إفريقية لزراعة التبغ والقطن قد جعل المستعمرين البيض في الجنوب أثرياء من غير ان يشتغلوا بأنفسهم . وكان توماس جفرسون (Thomas Jafferson) يرى أن الرق القانوني أكبر خطأ ارتكبته أمته ، وان الزنجي كان أحط من الرجل الأبيض من الوجهتين المعنوية والفكرية . وعندما انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الثانية سنة ١٨٠٧ استحصل على موافقة الكونجرس على لائحة تمنع استيراد العبيد الى أمريكا . ولم يكن في الإمكان وقتئذٍ الغاء الرق الغاءً تاماً . لان ذلك كان يسبب تخريباً واسع النطاق في اقتصاديات الولايات الجنوبية . ولكن الأرض المزروعة قطناً اتسعت بمرور الأيام واصبحت تربية العبيد مهنة رابحة . وزادت ولايات العبيد من ست الى خمس عشرة ولاية .

وكانت الولايات الشمالية لا تريد الرق لأنها كانت ولايات صناعية بالدرجة الأولى ولا يفيدها العمال العبيد غير الأذكياء فائدة تذكر . ثم ان الشماليين كانوا يرون ان استخدام العبيد يجعل وثيقة إعلان الاستقلال القائلة « ان جميع الناس خلقوا متساوين » اضحوكة ليس إلا . واني لم أتمكن من فهم المعنى الظاهري لهذه الجملة المشهورة أبداً . إذ لا شك اننا جميعا متساوون بنظر الله — لكننا قد ولدنا مختلفين عن بعضنا اختلافاً كبيراً من حيث القابليات . وعندما ينمو الاطفال فيصبحون رجالاً ونساء تزداد الفروق بين قابلياتهم على مر الأيام . ومع ذلك ربما كان من الافضل ان لا نتورط في هذا النقاش !

ان مسألة الأساس المعنوي للرق قد سببت كثيراً من النقمة بين الشمال والجنوب . واستفحلت الأزمة بينهما عندما قرر عدد من الولايات الجنوبية الانفصال عن الاتحاد ، وتأليف اتحاد كونفدرالي جديد مبني على فكرة عدم تساوي الناس ، وان « الزنجي لا يعدّ مساوياً للرجل الأبيض » وان الانفصال عن الاتحاد أمر ضروري لأن الشمال رفض الاعتراف بهذه الحقيقية المعنوية . وانتخب جفرسون ديفس (Jefferson Davis) أول رئيس للولايات الاتحادية الجديدة في شباط ١٨٦١ .

هذه هي المشكلة التي واجهت لنكولن . وقد فكّر ان الرق مسألة سيحلّها الزمن والفطنة . أما الوحدة فانها اذا ما ذهبت فلن تعود ، وستصبح امريكا الشمالية كأوربا ، قارة تمزّقها الخلافات والحسد والتنافس الاقتصادي والحرب . ورأى ان بقاء الوحدة امرٌ حيوي لمستقبل الدمقراطية .

وقد انتخب لنكولن رئيساً للولايات المتحدة في تشرين الثاني ١٨٦٠ ، غير انه لم يتسلّم السلطة حتى تقلّد مهام منصبه رسمياً في مارس ١٨٦١ . وكانت حكومة الدمقراطيين الذاهبة قد قرّرت في ذلك الوقت ان الحكومة الفدرالية لا سلطة لها على منع أية ولاية من الانفصال عنها — وكان ذلك يعني في الواقع ان الوحدة لا يمكن إدامتها .

مسكين لنكولن ! لقد كان يعلم انه سيتحمّل المسئولية التامة لما سيحدث ،

لكنه لم يكن قادراً على ان يفعل شيئاً، مع ان الوقت كان لا يزال مساعداً لمنع وقوع الكارثة . وعندما تولـّى منصبه أجـّل القرار أطول مدة ممكنة . لكن الأزمة استفحلت ولم تعد تتحمّل التـأجيل . ففي نيسان ١٨٦١ هاجمت قوات الولايات الاتحـادية الجديدة حامية الولايات المتحـدة في فورت سمـتر (Fort Sumter) وأطلقت النـار على العـلم الأمريكي ذي النـجوم والأشرطة ، ثم انزلته بعد ان استسلم جنود الحامية . وكان هذا فوق مـا يمكن تحمّله . فقفز الشمال إلى السلاح كما فعـل الجنوب فاندلعت بذلك الحرب الأهلية الأمريكية .

وهنـا برهن لنكولن على عظمته . لكنه ليس في نطاق بحثنا ان نصف الأحداث التي داهمته بسرعة وعنف ، وكيف ان الأزمات تطوّرت إلى كارثة لا تبدو لها نهاية ، كما اننا لن نذكر كيف تمكـّن من أن ينجو من العواصف، وان يسير بسفينة الولايات المتحدة نحو شاطىء السلامة ، حتى استطاعت بعدئذٍ أن تتطوّر إلى أمة جبارة كما نعرفها اليوم – بل أقوى دولة في العالم . وهـذا كله مدوّن في ألف كتاب أو يزيد .

أما مهمتنا فتقتصر على دراسة أخلاق الرجل وتكوينه ، لنرى مـا الذي مكـّن ، هذه اللؤلؤة المكنونة من محـامٍ شاذ من غرب أمريكا من الارتقاء إلى أعلى المناصب . فهو والحق يقال شخصية فذة يمجّدها اليوم الأمريكيون جميعـاً أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء .

أظن ان العامل الأساسي في عظمة لنكولن هو انه أحب الرجل العـامي – رجل الشارع – والشعب وكرّس نفسه لخدمتهم . وهو لم ينشد شيئاً لنفسه، لا الغنى ولا الجاه . وكان عديم الأنانية تماماً ، حتى انه لم يحاول أن يبني لنفسه مجداً في أعين الشعب ، ليتسنّى له قيادة الشمال بنجاح. ولم يشعر لنكولن بحاجة لذلك ، بل لم يخطر بباله خاطر كهذا أبـداً . إذ كان إخلاصه وسلامة نيته الواضحين يغنيانه عن ذلك . وكانت أمنيته الوحيدة خدمـة الشعب الأمريكي والحفاظ على وحدته . وفي ذلك تمثـّلت زعامته الحقيقة النبيلة . ثم إنه كان في

وسعه أن يصغي وأن يفهم وأن يقرّر في الأخير . وإذا ما قرّ قراره وعقد العزم على تنفيذ عمل ما ، فانه كان لا يعرف التردد مطلقاً – ويقبل المسئولية التامة لأعماله .

وتتمّ خطبه عن معرفة تامة لأسس كان قد فكّر فيها تفكيراً عميقاً ، في حين ان مستمعيه لم يكونوا كذلك في الغالب . وكان السر في عظمته سياسياً هو انه كان بسيطاً في كلامه إلى درجةٍ تجعل الناس يفهمون القضايا التي يبني عليها العمل كله : وان انطباعي عنه هو انه كان يرى ان واجب القائد السياسي في بلدٍ دمقراطي هو ليس فرض ارادته على الناس ، بل ارشادهم إلى اتخاذ القرار الحكيم لأنفسهم . فكان يردّد دائماً ان الإنسان إذا كان باراً بالآخرين ، ومنصفاً معهم ، فإنه سيستفيد في النهاية . ولا شك ان اتقانه للغة كان عاملاً قوياً في نجاحه في الخطابة . وقد كان ذلك ، في رجلٍ علّم نفسه بنفسه ، أمراً مدهشاً حقاً .

وكان سلوكه ، من حيث الأساس ، مسيحيّ الأصول دائماً . ويبدو انه كان يتبع طبيعياً التعاليم التي ذكرها المسيح في الخطبة التي ألقاها في الجبل[١] ، ولم يكن ذلك تظاهراً منه بالتقوى ، بل لانه كان يعتقد أن الفضائل المسيحية هي فضائل دمقراطية أيضاً ، فهي تهدي الناس إلى أن يعيشوا حياة كريمة محترمة .

ولقد أثار اهتمامي الشديد دائماً الطريقة التي عامل بها قادته العسكريين في الحرب الأهلية . وكان من واجبه كرئيسٍ للجمهورية أن يدير المجهود الحربي ، وأن يزن العوامل السياسية والعسكرية معاً . وكانت تجربته العسكرية الوحيدة هي تلك التي اكتسبها في حرب « الصقر الأسود » على الهنود الحمر سنة ١٨٣٢ كما سبق ان ذكرنا . فلنقارن هذا بموقف تشرشل في حرب هتلر . كان تشرشل مضطلعاً بنفس المهمة ، ويملك نفس السلطات . ولكن خبرته

---

١ – The Sermon on the Mount – وهي الخطبة التي اثنى فيها المسيح عليه السلام على المتواضعين والفقراء وقال انهم سيرثون الأرض من بعده .

السابقة في الحرب وفي قادة القوات المسلّحة كانت واسعة . ومع ذلك فقد اقتضى مرور وقت طويل قبل أن يجد القادة الذين يريدهم، ويعيّنهم في المناصب المناسبة !

أما لنكولن فقد كان عالماً بقلة خبرته العسكرية، ولذلك فانه اقتنى الكتب العسكرية الرسمية، وراح يدرس فن الحرب في مكتبه في البيت الأبيض. فاتضح له تدريجياً ان معظم القادة الذين زارهم في الجبهة، لا يعرفون غير القليل عن لعبة الحرب، بحيث ان آراءه فيها كانت لا تقل صحة عن آرائهم ان لم تكن أحسن منها . وقد تولّى بنفسه السيطرة العسكرية العامة في مارس ١٨٦٢ وكانت خططه جميعها صائبة على العموم . وإذا كان بعضها قد أخفق فذلك من جراء خطأ قواده في تنفيذها . ولسنا نبالغ لو قلنا ان لنكولن في محاولته تلافي الكارثة ، لحين عثوره على القائد الذي يعتمد عليه ، أصبح هو أستاذاً في فن الإدارة السوقية (الاستراتيجية) للحرب . وقد وجد أخيراً القائد الحق في يوليسوس كرانت (Ulysses Grant) ، فقلّده بقلب شكور ، في شباط ١٨٦٤ ، قيادة جيوش الولايات المتحدة الامريكية .

ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان لنكولن بالاضافة إلى ادارته للحرب بنفسه، كان عليه أن يعالج المشاكل السياسية والاقتصادية ، وأن يحافظ على وحدة الشمال بوجه عام . وان دراسته لهذه الأمور كلها تحملني على الاستنتاج بانه لولا زعامته القوية الراسخة لذهبت الجهود الهائلة والأرواح التي بذلت في سنوات الحرب الأهلية الفظيعة عبثاً . وهو لم ينقذ الوحدة الأمريكية فحسب ، بل ألغى الرق في امريكا أيضاً .

وفي الحفلة التي أقيمت في تشرين الثاني ١٨٦٣ لافتتاح المقبرة الوطنية لأولئك الذين سقطوا في معركة كيتسبرك (Gettysburg) في تموز من السنة نفسها ، القى خطاباً يهزّ المشاعر ، وصف فيه احساسه حول قضايا الحرب الأهلية كلها ، تلك الحرب التي كانت قد أوشكت وقتئذ على النهاية . وفي ذلك الخطاب ذكر المثل العليا للدمقراطية. لقد زرت تلك المقبرة ورأيت الرابية المعشوشبة الصغيرة

التي تكلـّم من فوقها .

وأود أن أذكر نقطة أخيرة عن لنكولن : يبدو لي ان احـــدى الظواهر المهمة في سجيّته هي رقة قلبه وحبه للأطفال . وقد تجلـّى ذلك بوضوح عندما كان ابنه ويلي وعمره ١١ سنة ، نائماً في الفراش في البيت الأبيض في أواخر سنة ١٨٦٢ وهو مشرف على الموت . وكان في البيت الأبيض ليلتئذٍ حفلة استقبـال ورقص . فرحّب لنكولن بالضيوف ثم ذهب إلى فراش ويلي . وكان هذا ولداً محبوباً جداً وربما كان ابنه المدلـّل . لكنني لا أجد دليـــلاً على ذلك . ومرّت الأيام فلم تتحسّن صحة ويلي وتوفي في الأخير . وقد تعذّر على لنكولن ، بـــل استحال عليه أن يتخلـّى عن حزنه . ولم يتمكـّن من ذلك إلاّ بعد مرور بضعة أشهر .

ان النصب التذكاري للنكولن في واشنطن يهزّ مشاعري هزاً لا يفعله أي نصبٍ تذكاري آخر . فهناك يجلس ابراهام لنكولن بملامحه القوية الخشنة ناظراً نحو الكابيتول (Capitol) . وحقاًانه تمثال فخم لرجل نبيل ، ومن أعظم القادة الوطنيين في جميـع العصور .

الباب السادس

جواهر لال نهرو

دعنا نمعن النظر الآن في زعيم من زعماء الالف وتسعمائة والستينات ، وهو نهرو ، الرئيس السياسي المنتخب لثاني دولة كبيرة في العالم .

عرفت نهرو منذ سنين طوال ، منذ سنة ١٩٤٦ في الحقيقة . وكنت أحمل له دائماً المودة والاعجاب . وقبل كتابة هذا الباب ذهبت الى نيودلهي واقمت معه ، في بيت رئيس الوزراء ، مدة أربعة أيام . كنت الضيف الوحيد في البيت . وعشنا حياة عائلية بسيطة مع ابنته الذكية السيدة أنديرا غاندي وأطفالها . وكنا نتناول وجبات الطعام مع أحفاده وعلى نمط الاطفال . وقد تبادلنا كثيراً من الاحاديث الطويلة ، تارة ونحن نمشي في الحديقة وأخرى في الغرفة المعدة لجلوسي . وكنا نتحدث مساءاً عند تناول طعام العشاء حيث الاحفاد لا يحضرونه عادة . ولا شك ان استضافتي بهذه الطريقة في بيت الرئيس السياسي لدولة نفوسها ٤٠٠ مليون نسمة ومعاملتي كفرد من أفراد العائلة ميزة لا تتاح الا لقليل من الناس . وقد ألقت الاحاديث التي تبادلناها ، بل الزيارة كلها ، ضوءاً جديداً على نهرو بالنسبة لي . اني وجدت عنده الحكمة والإدراك والتقرّب العملي نحو مشاكل العالم ، وهو ما لم أجده إلا عند اشخاص

قلائل . وعندما تركت نيودلهي كنت قد أدخلت نهرو في قائمة الرجال العظام. ولكن قبل أن اسأل القارىء ليتوصل الى قرار في هـــذا الشأن ، دعنا نلقي عليه نظرة فاحصة .

ولد نهرو في تشرين الثاني ١٨٨٩ في مدينة (الله آباد) . وكان الابن الوحيد لإبوين غنيين . وفي الاحـــدى عشرة سنة الأولى من حيـــاته كان الطفل الوحيد لوالديه ، ثم ولدت اختـه الكبرى (السيدة باندبت الآن) وكان ذلك سنة ١٩٠٠ . ولما كان نهرو الولد الوحيد في العائـــلة ، وقد بقي الطفل الوحيد ردحاً من الزمن ، فقد أغدق عليه أبواه حبهم وحنانهم . وهكذا فـــانه وجد مأوى جيداً في حياته الاولى ، ولم يذهب الى المدرسة حتى التحاقه بكلية هارو وهو في الخامسة عشرة من عمره . وكان أبوه محامياً غنياً في (الله آباد) ، ويرى ان المال يعطى للانسان لينفقه لا ليقتصده . لذلك فقد أصبحت داره مترفـة شيئاً فشيئاً ، وصارت العائلة تعيش حياة المدنية الغربية أكثر فأكثر . وكان يزور داره زائرون كثيرون ، فكان نهرو الصغير يصغي بشوق الى أحـــاديث الكبار ، التي كانت تدور عادة حول (الراجا) البريطاني وتصرفات الانكليز المشينة نحو الهند . وهكذا فقد نشأ عنده مبكراً نفور روحي على الحـــاكمين الاجانب لبلاده ، ولو انه لم يظهر أي شعور عدائي نحو الفرد الانكليزي . وقد اعجب بأبيه ، لكنه كان يخافه أيضاً ، ربما كان ذلك من جراء الضرب الشديد الذي كان يلقاه منه أحياناً .

وفي سنة ١٩٠٥ ذهب الى هارو (من انكلترة) . وهو يعتقد أنه لم ينسجم أبداً في حياتها انسجاماً تاماً . وفي هذه المدرسة نفسها صار يهتم بالسياسة المرة الاولى ، ويتتبع بحماس الحملة الانتخابية التي انتهت بتشكيل حكومة كامبل — بانرمان (Campbell - Bannerman) في اوائل سنة ١٩٠٦ . وبقي في هارو مدة سنتين فقط ثم ذهب الى كلية ترينيتي (Trinity) في كمبرج في تشرين الأول ١٩٠٧ ، وكان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره ، ومتعطشاً الى حرية أكثر مما كانت ممكنة في هارو ، لينمّي آراءه ومقدرتـه الفكرية . وكانت الحيـــاة

السياسية في الهند وقتئذ في « حالة غليان » على حد وصفه . والظاهر أنه مهما يكن الانطباع الذي تركه لدى الآخرين ، فان أفكاره الباطنية كانت تتجه شيئاً فشيئاً نحو بلاده ومشكلاتها ، تلك المشكلات التي كانت تسبّب له قلقاً وحيرة زائدين .

ويظهر انه لم يكن لديه شعور ديني قويّ في مستهل حياته ، او عندما كان في كمبرج . بل هو في الحقيقة ، كان يكره ما سمّاه بـ « كبح الدين » (Repressions of religion) ، فكان يبحث عن أسس وقواعد أخرى . ويبدو ان موقفه اليوم لا يختلف عما كان عليه في الماضي . ومع أنه « هندوكي » الدين فان حياته مبنية على الفضائل المسيحية .

وفي سنة ١٩١٠ نال شهادة في العلوم الطبيعية وغادر كمبرج. وكانت خطوته الثانية دراسة القانون في لندن،فأصبح محامياً سنة ١٩١٢ . وعاد بعد ذلك الى الهند بعد ان ابتعد عنها أكثر من سبع سنوات ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره ،وكان،كما وصفهو نفسه في «سيرةحياته»بقوله: «كنت معجباًبنفسي بعض الشيء مع اني لا استحق من المديح شيئاً يذكر » .

وفي الهند زاول مهنة المحاماة والتحق بالمحكمة العليا . وقد رغب في مهنته في بادىء الأمر لكنه بدأ يتبرّم بها تدريجياً . ونادته السياسة ، فالتحق بحزب المؤتمر .

ثم نشبت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وتزوج نهرو في خريف ١٩١٦ والتقى بغاندي للمرة الاولى عند انعقاد مؤتمر لكناو (Lucknow) في عيد الميلاد سنة ١٩١٦ . وكان نهرو قد التقى وهو في الثالثة عشرة من عمره بالسيدة آني بيسانت (Annie Besant) فسحرته بقدرتها الخطابية ، ولما عاد الى الهند سنة ١٩١٢ التقي بها ثانية وعمل في جمعيتها المساة عصبة « الحكم الوطني للهند » . ولما اعتقلت هذه السيدة أخيراً أثار ذلك الكثير من الهياج والاستياء وكان عاملاً كبيراً في اعطاء زخم جديد لحركة الحكم الوطني في انحاء الهند كافة ، تلك الحركة التي صار نهرو الآن يسندها بنشاط وحماسة .

وعندما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ كانت الهند في حالة ثورة مكبوتة . إذ كان الهياج السياسي منتشراً انتشاراً واسعاً ، وقـــد بدأت الاضطرابات بين الفلاحين – الذين يؤلفون أكثرية الشعب الهندي .

والآن يجب ان نلقي نظرة على غاندي . فلهذه النظرة أهمية خاصة لأن نهرو تلميذه .

لقد قرأت كتباً كثيرة عن غاندي . ومع اني لم التق بـه أبداً لكني أشك إذا كان أي من هذه الكتب قد أعطى هـــذا الرجل حقه . ويظهر أنه كان شخصاً خارق العادة وذا قدرة عجيبة على اجتذاب الافراد والجماعـــات والتأثير فيهم ، مع أنه لم يكن يملك حيل الناس الاعتياديين . وقد قال لي نهرو: كثيراً ما كان هو ورفاقه الآخرون الذين كانوا يعملون معـه ، يختلفون مـــع غاندي حول بعض القضايا ، ولكن ذلـك لم يؤدِ الى فصم الروابط التي كانت تربطهم به جميعاً . ومن الواضح أنه كان شخصية غريبة استطاعت ان تستهوي ملايين الهنود بشكل لم يتمكن منه أي رجل من قبل . وكما قـال عنه نهرو – كانت لديه تلك الصفة النادرة التي مكنته من ان يعلو فوق الجمـــاهير وتركت أثرها في تفكيرهم سنين طوالاً . وقد كان رجل السلام الذي ينتقل بين الجماهير فيرتدي مئزرهم ويسكن في كوخ الطين ليكون واحداً منهم – وكان يحتفظ بحياة التقشف هذه حتى عندما يدافع عن قضيته لدى أعلى المقامات . وكانت فلسفته كلها مبنية على ان « يكون واحـــداً » من الشعب ، وان يعلمهم سياسة (السواراج) (Swarag) التي تعني الحكم الذاتي او الاستقلال . وكان المطلوب تحقيق هذا الهدف بواسطة الـ (ساتياكراهـا) (Satyagraha) أي العصيان المدني وعدم التعاون ، ولكن بأساليب اللاعنف . وكان في هذا الرجل ، الذي كان يبدو تعساً بمئزره وجسمه العاري وبنيته الضعيفـــة ، شيء يثير اعجاب جماهير الهند ، فكانوا يعبدونه حقاً . وكانت الظاهرة السائدة في الهند كلهـــا وقتئذٍ ظاهرة توقع وأمل ، لكنه كان يشوبها الخوف والقلق – أمل في قيادة غاندي لشعب الهند نحو الاستقلال ، وخوف مما قد ينجم عن الاصطدام الذي لا

بد منه مع الحكومة. وهكذا قاد غاندي ثورة شملت الهندبأسرها سنة ١٩١٩، وبدأ حركة (الساتياكراها) – التي تعهد بموجبها اتباعها متابعة العصيان المدني والمطالبة ، عمداً وعلناً ، بادخالهم السجون .

وارتاح نهرو لقيام هذه الحركة اشد الارتياح . فقد وجد فيها طريقة العمل ، كما وجد في غاندي الزعيم الحق ، وان كان قد ادرك ايضاً انه لا يزال أمامهم عقبات كبيرة وكفاح مرير .

وقد حدثني نهرو طويلاً عن سنوات الكفاح التي اعقبت ذلك . إذ ساح غاندي خلالها في جميع أرجاء الهند راكباً عربات الدرجة الثالثة في القطار، او العربات التي تجرها الثيران ، وسائراً على قدميه . فزار المدن والقرى التي كان يجتمع فيها الناس لسماع خطبه . وقد خطب في جماهير بلغ عدد أفرادها نحو مائة الف شخص أحيانا . ولم تكن لديه مكبرات للصوت ، ولذلك فلم يسمعه طبعاً الا القليلون . غير ان ذلك لم يكن ليهم الناس على ما يظهر ، ما داموا يرون بطلهم ، وتنتشر اقواله بينهم بسرعة . وكانت السلطات تقبض عليه من وقت لآخر بتهمة التحريض على العصيان . فقضي في السجن سنوات طوالاً . وكان يطلق سراحه بين آونة وأخرى عندما يصاب بمرض ، لكنه سرعان ما يعود الى السجن ثانية ، حتى بلغ مجموع المدة التي قضاها في السجن نحو سبع سنوات – وهي أقل من المدة التي قضاها نهرو . ولكن يجب ان لا ننسى انه كان كثيراً ما يمرض فيطلق سراحه حتى يشفى .

وفي سنة ١٩٢٠ بدأت حملة عدم التعاون مع الساطات الحكومية . وإني لا أنوي البحث فيما حدث منذ ذلك الوقت حتى انتقال السلطة الى الهنود في ١٥ آب ١٩٤٧ ، حيث بلغ الأمر حداً كان يتعذّر معه تأخير استقلال الهند مدة أطول . على أن الحكم الوطني أدى الى تقسيم البلاد الى دولتين ، فقد أنشأ (جناح) دولة باكستان الاسلامية، واصبح نهرو رئيسا لوزراء الهند . وكان الثمن الذي دفعته البلاد في سبيل ذلك باهظاً، إذ سفكت دماء كثيرة، وتعرّض الناس الى العذاب،وفي نهاية سنة١٩٤٧ بلغت حوادث القتل نهايتها تقريباً ثم توقفت

باغتيال غاندي في كانون الأول ١٩٤٨ . وفي السنة التي أعقبتها (١٩٤٩) صدر « بيان لندن » الذي أصبحت الهند بموجبه جمهورية مستقلة ذات سيادة ضمن رابطة الشعوب البريطانية . فانتهى بذلك عهد الكفاح الطويل . وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠ أعلن دستور الهند رسمياً . ويحتفل بهذا اليوم من كل سنة في أنحاء الهند باسم يوم الاستقلال .

والآن ينبغي أن نعود إلى نهرو ، لنرى إن كنا نستطيع أن نتعلم عنه أشياء أخرى :

ان دراستي لكفاح الهند من أجل استقلالها تظهر لي دائماً ان تصميم الهنود على مواصلة الكفاح بأي ثمن كان ، قد بدأ نتيجة لما قام به الجنرال داير (Dyer) في (جاليانوا لا باغ) (Jallianwala Bagh) في امرتسار (Amritsar) سنة ١٩١٩ ، وذلك عندما أمر بفتح النار على الهنود الحاضرين في اجتماع عام - وكانت هذه الاجتماعات ممنوعة ، مما أدّى إلى قتل نحو ٣٨٠ هندياً وجرح ١٢٠٠ . وعندما أخبرت نهرو برأيي هذا أيّدني وأضاف يقول : انه يعتقد ان امرتسار كانت نقطة التحوّل في العلاقات الانكليزية - الهندية . وقد أصيب هو نفسه بصدمة عنيفة من جرّاء هذا الحادث ، وتحت التأثير العاطفي لهذه الصدمة انغمر في السياسة والنار تغلي في عروقه . وفي تلك الآونة أيضاً بدأ يخجل ، بعض الشيء ، من حياة الرفاه التي كان يعيشها ، وأحسّ كيف أن الطبقة الراقية في المجتمع الهندي منعزلة عن الملايين الذين في القرى . ومع انه كان يجهل حياة القرية ، الا انه كان يعرف أن الفلاحين فيها يعانون فقراً وتعاسة فظيعين . وشعر أن واجبه الأول التعرّف إلى طبقة الفلاحين تمهيداً لحل مشكلة فقرهم. ولذلك ففي سنة ١٩٢٠ شرع في رحلاته لدراسة حياة القرية في الهند، وإخبار الفلاحين عن غاندي وحزب المؤتمر،وعن المعركة الدائرة رحاها لازالة الحكم الأجنبي عن بلادهم وتحقيق الاستقلال للشعب الهندي . وأخبرني انه كان خجولاً في أول الأمر إذ لم يسبق له ان اهتم بفلاحي القرى المكافحين في سبيل العيش، بل لم يخطر بباله ان يفعل ذلك اسوة بمعظم رفاقه الآخرين. ثم انه لم يكن

قد ألقى خطاباً من قبل في الاجتماعات العـــامة . ولكن اللطف الذي أظهره القرويون سرعان ما تغلب على خجله وقلة خبرته في الخطابة . وقد تكلّم معهم ببساطة وكواحد منهم قائلاً لهم ما يجول في فكره وقلبه . واستمرت زياراته إلى القرى طوال سنة ١٩٢١ ، إذ كان يعلم ان للفلاحين قوة استمرارية قليـلة ، وينقصهم النشاط الكافي لمواصلة العصيان المـدني ، فمن واجبه وواجب رفاقه الآخرين تقوية أفكارهم وتعزيز نشاطهم باستمرار .

وقد استمر تمـــاس نهرو الأول (في بدية سنة ١٩٢٠) مع ملايين الهند المكافحة , منذ ذلك الوقت حتى اليوم كما يظهر ذلك للقارىء من الحـــكاية التالية :

كان وصولي الى نيودلهي في الصباح المبـكر من أحد أيام كانون الأول ١٩٥٩ – وقد تعرفت بأفراد عائلته عند تنـــاولهم الفطور . وفي طريقي الى جناح الأطفال لاحظت جمهوراً كبيراً من الهنود في الساحة الامامية من الدار ، وقد أجلسهم رؤساؤهم في صفوف على الأرض . ولمـــا سألت نهرو عما يجري أجابني ان ذلك حادثاً يومياً – فالفلاحون والطلبة وأولاد المدارس والآخرون الذين يأتون الى نيودلهي كلهم يريدون أن يروه . وكان المعروف بين النـــاس انه يمكن أن يراه كل من يشاء في الساعة الثامنة والنصف من صباح كل يوم عندما يكون في البيت . وقد عبّر هو عن ذلك بقوله « يظهر انني أحـــد مناظر دلهي » . وسألته : هـــل في وسعي أن أرافقه عندما سيذهب لرؤية هذه الجماعات ؟ . فوافق . وكان من دواعي سروري انني رافقته ، فقـــد أتاح لي ذلـــك فرصة لألمح ناحية من حيـاة نهرو لا يمكن الوقوف عليها بطريقة أخرى .

بدأ نهرو زيارته لهذه الجماعات بالسير بين صفوفهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ، متحدّثاً مع البعض هنا وهناك . وكانوا يقلّدونه بضفائر عندما يذهب إليهم ، فكان ينزعها من رقبته ويرميها إلى الأطفـــال الذين كانت تصيبهم النشوة بطبيعة الحال. وأثار اهتمامي بوجه خاص الطريقة التي كان كل فرد منهم يتطلع بها

إلى نهرو وهو يتنقل بينهم . اذ كانت تتبعه العيون أزواجاً اينما سار ، وعلى وجوه أصحابها نظرة الولاء التام . وقيد قيل لي ان النـــاس في الهند يقابلون نهرو بهذا الشكل اينما ذهب . وفي وسع المـــرء ، أن يتصور ذلك ممـــا شاهدته أنا في بومبي ، قبل بضعة أيام من وصولي الى نيودلهي . وكان نهرو قد ذهب الى بومبي ليفتتح بناية علمية جديدة، فوصل إلى جزء من المدينة قريب من ساحة (الكركيت) التي كانت تجري فيها مبـــاراة بين الهنود والاستراليين . والكركيت لعبة محبوبة في الهند وكان يشاهد المباراة جمع غفير من النـــاس . فما إن علموا بوجود نهرو قريبـــاً منهم حتى تركوا الساحة وذهبوا ليشاهدوه . واستمرت المباراة بدون متفرجين ! وانه لمن الممتع حقـــاً أن تسمعه يتكلم إلى جمهور من الناس كما سمعته أنا في ساحة بيته في دلهي . كان يتكلم بالهنـــدية واستطعت أن أفهم زبدة أقواله . فقـــد تعلّمت اللغة الهندية عندما خدمت في كتيبتي في الهند سنة ١٩٠٨ ، واجتزت أعلى امتحاناتها في حينه ، ولذلك فلا أزال أتذكّر الكثير مما تعلّمته . وكان نهرو يتكلم ببساطة تامة مع هذه الجماعات ، وكان كلامه يدور حول مهنهم الخاصة . فكان يكلّم التـلاميذ عن التعليم ، والفـلاحين عن الزراعة وهكذا . ورافقته ، في جميـع الأيام التي قضيتها في بيته ، إلى الساحة بعـــد الفطور لأرى وأتعلّم المزيد عن هذا الرجـل .

وفي ذات مرة كان الجمهور يشتمل على جماعة من الفـــلاحين القرويين من منطقة كجرات، وقد ُقدّم أحدهم خصيصاً إلى نهرو لأنه نال جائزة في زراعة الذرة . وبما ان نهرو لا يتكلم لغة مقاطعة كجرات فانه طلب من الفلاح أن يخاطب الآخرين بواسطة مكبرة الصوت، ويخبرهم عن الطرق التي استعملها لانماء الذرة الجيدة .

وإذا ما أردنا نهرو فيجب أن نتذكر دائماً انه أحد تلامذة غاندي ، وانه يستفيد كثيراً من أساليبه . والواقع ان الهند كما نعرفها اليوم ، هي ، في الغالب ، نتيجة التأثير الذي تركه غاندي في أبناء شعبه عموماً ، وفي اتبـاعه

المقربين بوجـــه خاص . لكنه كلما أمعنت في دراسة غاندي وتحدثت مع نهرو عنه، زدت قناعة بانه كان شخصية غريبة جداً في عالمنا الحديث ، وربما كان لا يصلح لأي بلد آخر غير الهند . وان اخلاص هذا الرجل التام هو الذي انتزع إعجاب الملايين من أبناء وطنه . ولطالما تناقش نهرو مع غاندي وغضب منه ، ولكن غضبه سرعان ما كان يتلاشى فيشعر بالخجل على ما بدا منه . وكان من الطبيعي أن يلتف جميـع الهنود ، الأربعمائة مليون ، حول غـــاندي ويؤازرونه بقوة عندما بدأ حملته من أجل الاستقلال، وتخليص بلاده من الحكم الأجنبي – ولا عجب فقـــد كان يدعو إلى ما كان يصبو إليه الهنود جميعاً منذ قرون .

لقد قضيت نحو سبع سنوات في الهند، ورأيت معظم أقسامها. وفي ذات مرة خدمت بمنصب ضابط نقلية لرتل بريطاني كان يبدّل موقعه . وكانت هذه الحركة تنطوي على مسيرة تستغرق عدة أسابيـع في المنطقة الجنوبية من الهند وبين قراها . فرأيت شيئاً من حالة الفـلاحين التعسة في ملابسهم الرثة وآلاف الأطفال الجاهلين والبؤس العام الذي يعانيه الشعب . ولم يكن في مقدور هؤلاء أن يفعلوا أي شيء لتحسين أحوالهم . وكنت أقـارن بين هذه الصورة البشعة وبين نعيم الراجـــا البريطاني والأمراء المحليين . ومنذ ذلك الوقت وأنا أتساءل أحياناً : ترى هل في وسعنا نحن البريطانيين أن نبرىء ذمّتنا تماماً من سنوات حكمنا في الهند ؟

ولقد سار نهرو على نفس المبادىء التي سار عليها غاندي . فأبدى اهتمامـــاً شديداً في جموع الشعب الهندي ومشكلاته . وهنـا يكمن سرّ قوته السياسية – إذ منحه ملايين الهنود ثقتهم التـــامة وولاءهم المطلق ، وهم اليوم يقفون وراءه بعزم وقوة . وعندما يرونه يصيحون « شاشا نهرو » أي « العم نهرو » فهكذا هو معروف بينهم .

ونهرو نفسه يشعر بهذه القوة شعوراً تاماً ، وبالمشكلات التي تخلقها . وقـد أكـّد لي في محادثاتنا على النقطة التالية باستمرار وهي ، **ان الزعيم لا يتمكن**

من أن يعمل أكثر مما يستوعبه الشعب . ويجب أن تكون لديه شجاعة -بطبيعة الحال - لكن الشعب إذا لم يتبع قراراته فمن المحتم انه يسقط . فينبغي لذلك أن يكون « مقنعاً » ، وهـذا ما كانه غاندي . فكان يقنع الجماهير بأمانته وإخلاصه الواضحين . لهذا السبب ، وربما لغيره من الأسباب ، يرى نهرو ان الزعيم الوطني يجب أن يضع الشؤون الداخلية لبلاده فوق كل شيء آخر في فكره ، وفي جميع الأوقات . ان هذا لا يعنى انه يستطيع أن يهمل الشؤون الخارجية . بل بالعكس يجب أن يكون هناك توازن دقيق بين الاثنين . لكنه يعتقد أن هناك ميلاً عاماً لدى رؤساء الحكومات اليوم لتكريس وقت أقل من اللازم لمشكلات الناس الذين يحكمونهم .

وهو يرى ، كما أرى أنا ، ان الوزراء في دول الدمقراطية البرلمانية لا يتفرّغون تفرّغاً كافيا للتفكير بالنـاس الذين يمثلونهم والاتصال بهم . وقد أخبرني انه سأل زملاءه في الحكومة مؤخراً إذا كان في وسعه أن يتخلّى عن منصب رئاسة الوزراء برهـة من الزمن - لسنة واحدة مثلاً - ليتسنّى له تجديد اتصالاته بالفلاحين فى القرى ، أو كما عبّر عن ذلك هو بقوله « لاعـادة شحن بطارياتي » . وقد وعدهم بالعودة إلى منصبه إذا شاءوا . إلاّ ان زملاءه قرروا خلاف ذلك ونهرو يرى انهم مخطئون، لكنه نزل مع ذلك عند رغبتهم. وقد قلت له ان قرار زملائه ربما نجم عن صعوبة تسمية بديل له .

وسألت نهرو ذات صباح ، ونحن نمشي في الحديقة ، عن رأيه في ضرورة « الإيثار » للقائد سواء أكان زعيماً وطنياً أم قائداً عسكرياً . فـكان جوابه ممتعاً . فقد أيّد ان « الايثار » أمر أساسي في كل قائد. فالقائد الحق هو الذي لا يفكـّر في كسبٍ شخصي أو تعظيم . غـير انه أضاف يقول : « ان الإيثار المطلق ، بقدر ما يتعلـّق الأمر بالعالم الخارجي ، أمر غير ممكن دائماً . ولـكي يقود القائد اتباعه قيادة ناجحة ، قد يضطرّ لأن يمجّد نفسه في أعينهم . وهذا مما يثير انتقاداً معادياً من أصدقائه الـكاذبين وخصومه السياسيين ، فيتّهمونه بالانانية . ويصرّ نهرو اصراراً شديداً على ان « التمجيد » قد يكون ضرورياً.

فإذا كان الأمر كذلك ، فعلى الزعيم أن لا يتخوّف ، بل يجب ان يتحمّل الانتقاد ، عالماً في قرارة نفسه انه لا مبرر له ، وان كل شيء سيكون على ما يرام في الأخير .

ونهرو ممتع في حديثه عن السنين التي قضاها في السجن ، اذا استطعت ان تحمله على الكلام عنها . فقد بلغ مجموع المدة التي قضاها في السجن نحو تسع سنوات ، وكانت أطول مدة مستمرة قضاها فيه سنتين ونصف. وكان الشاغل الأكبر له في السجن « البستنة » ، لا لأنه يحبّها ويعرف الكثير عن المزروعات والزهور ، بل لأنها ساعدته على الرياضة . وكان التدخين ممنوعاً . ولم يكن طعام السجن جيداً ، لكن أصدقاءه كانوا يأتونه برزم الطعام إلى باب السجن، فيصل إليه معظم محتوياتها بعد أن يأخذ الحراس نصيبهم منها !

وكان حكام السجون في تلكم الأيام ضباطاً من صنف الطبابة في الجيش الهندي . وربما كان هؤلاء أطباء مجيدين ، لكنهم لم يكونوا يعرفون إلاّ القليل عن تنظيم السجون . ومع ذلك فقد عاملوه كما عاملوا غيره من السياسيين المسجونين معاملة طيبة على العموم . وكانت لذلك نتيجة طيبة واحدة . ان كل الذين سجنوا لأسباب سياسية وقتئذٍ يبدون اليوم اهتماماً شديداً في اصلاح السجون ، وتزويدها بحكام قديرين !

وكان حديثه عن رفاقه المسجونين ممتعاً حقاً . فقد أخبرني أنه كان يميل الى رفاقه القتلة أكثر من غيرهم . وقد أثار استغرابي فاستوضحت منه السبب فأجابني : ان قليلين من الرجال في الهند يقتلون عن قصد، وان معظم حوادث القتل في الحالات الاعتيادية هي نتيجة الضرب ، او من جراء لطمة قوية ينزلها القاتل في خصمه في حالة غضبه . وعلى كل حال ، فهو يرى أن القتلة الذين رافقوه في السجن كانو أناساً طيبين ومخلصين !. وان أشد من كان يكرههم في السجن هم النشالون. فقد كانوا اشخاصاً سيئين من حيث الأساس . ويبدو ان المرء في الهند ، يمكن ان يكون نشالاً مخلصاً—ولا أظنه أيضاً في آي مكان آخر !

وعندما تحدث نهرو عن حياته في السجن ، ذكـّرني كيف انه انقلب هو

نفسه من سياسي مشاغب الى رئيس وزراء محترم، لكنه أشار ذات مرة الى انه يفكر أحياناً أن القسم الأعظم من عمله انجزه في تلكم الأيام ، أيام الشغب السياسي ، والكفاح الوطني . فأجبته بأن من رأيي أن عمله الحقيقي سيكون في السنين القادمات ، وربما كان من المناسب البحث في ذلك قبل ان نختم هذا الباب .

ان ما قدّمه نهرو الى الهند حتى هذا التأريخ هو شيء عظيم حقاً . ولولاه لكان من المحتمل جداً ان تترك الهند رابطة الشعوب البريطانية . ذلك لأن الشعور ضد الانكليز ، وذكريات حكمهم للبلاد كان شديد المرارة . ولكن نهرو يواجه الآن واجباً جباراً . فان حركة الاستقلال كانت مبنية على الشعب ورفاهه الاقتصادي ، وليست ثمة عقيدة واضحة ليؤمن بها الـ ٤٠٠ مليون هندي ، ويساهمون في تحقيقها . وليس في حركتهم انضباط او طاعة ، عدا ما كان يطلبه غاندي من اتباعه المقربين. والواقع ان الحركة قد بنيت على تمجيد رجل واحد وعبادته وهو غاندي من قبل ونهرو الآن .

ان وراء الحدود الشمالية للهند نحو ٧٠٠ مليون صيني يزدادون بسرعة ١٥ مليون سنوياً . وللصين عقيدة وانضباط صارم وزعامة حديدية . فهل سينظر الصينيون يوماً ما نحو الخارج آملين ان يضموا صفوفهم مع الهند – فيكوّنوا بذلك كتلة بشرية تتألف من ١٥٠٠ مليون خلال العشرين سنة القادمة ؟. أرجو ان لا يحدث ذلك . فالهند ضرورية للمعسكر الغربي . لكننا نستطيع ان نقول عن حركة الاستقلال في الهند ما يلي : لقد كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن حركات الاستقلال في البلاد الأخرى كمصر والعراق وبورما وسيلان والكونغو .

ففي هذه البلاد كان أساس الحركة تحريض الشعب على الثورة : وكان هناك عنف جماهيري دبرّه المحرضون السياسيون . أما الهند فهي طبعاً بلد أكبر بكثير من البلاد التي ذكرتها – انها شبه قارة يزيد نفوسها على ٤٠٠ مليون نسمة – وقد بقيت متحدة .

على ان الكثير مما سيحدث في المستقبل القريب في آسيا عموماً ، وفي الهند بوجه خاص ، سيتوقف على نهرو . فإذا استطاع ان يحل مشكلة كشمير وان يمد يد الصداقة والتعاون نحو الباكستان ، وإذا ظلت صحته على ما يرام (فهو الآن في الثانية والسبعين من عمره) ، فان كل شيء قد يسير سيراً حسناً في آسيا . أما إذا أخفق ، فلا يوجد من في حكمته ووزنه ليحل محله ، وقد تسوء الأمور من بعده . إن ملايين الهند تنادي « شاشا نهرو » . وإذا كان هناك رجل فيه صفات رجل العظمة فهو نهرو ، وإني أضعه في الصف الأمامي من الزعماء الوطنيين العظام .

ولقد فكرت في كثير من الاحيان أنه من الممتع مقارنة نهرو بابراهام لنكولن . ان حياتهما كانت تختلف اختلافاً كلياً . ومع ذلك فقد ارتقى كل منهما الى منصب الرئيس السياسي لبلاده . وقد سبق ان رأينا ان نهرو كان الابن الوحيد لمحام غني وارستقراطي وبارز . وقد حصل على أحسن ثقافة يمكن ان ييسرها المال ، إذ درس على أيدي معلمين خاصين ثم ذهب الى هارو وكمبرج وكلية (انرتمبل) (Inner Temple) في لندن .

أما ابراهام لنكولن فكان ابن فلاح فقير لم يتعلم القراءة أبداً، ولم يكن يعرف من الكتابة غير (شخبطة) اسمه بصعوبة ، وكانت أمه أيضا لا تعرف القراءة او الكتابة . وكان مجموع المدة التي قضاها لنكولن في المدرسة نحو سنة واحدة. وذلك في فترات غير منتظمة استغرق كل منها اسابيع قلائل .

وقد بلغ كلا الرجلين قمة الشهرة . ولكن في الطريق الى القمة أصبح نهرو سياسياً محرضاً فقضى نحو تسع سنوات في السجن . أما لنكولن فقد تخلص من اهانات كهذه ، لكنه اغتيل بعد أن أتم نصف واجبه .

ويجب ان يلاحظ أن نهرو أيضا لم ينجز في الهند غير نصف واجبه حتى الآن . فلا تزال أمامه مشكلات هائلة – اذ يقتضي له معالجة فقر الريف الهندي ، وايقاد شعور الوحدة الوطنية ، ووحدة الهدف بين جماعات الفلاحين . انها مهمة جبارة تتحدى نهرو ولكني أعتقد مع ذلك أنه سيحققها

بنجاح .

والآن يجب ان نترك نهرو مؤقتاً . فالآمال المعقودة عليه لمستقبل آسيا كبيرة الى درجة لا نستطيع معها ان ننهي البحث عنه بعد . ولذلك فسنعود اليه في بابٍ آخر .

الباب السابع

الرئيس شارل ديغول

قرأت ذات مرة مقالاً لموريس أيدلمان (Maurice Edelman) وصف فيه ديغول بانه « شخصية أبوية ، يغضب أحياناً ، لكنه شبيه بموسى بما كابده من عناء طويل في قيادة شعبه من صحراء اللاأهمية الى مدارج العظمة » .

ان هذه المقارنة بين الزعيمين ، موسى عليه السلام ، وديغول ، تبدو ممتعة حتى انني فكرت أولاً في ان أبحث في كليهما في باب واحد . ذلك لأن هذين الزعيمين جابها مشكلة مماثلة الا وهي إعادة بناء روح أمة . على انني رأيت بعدئذٍ أنه من الأفضل البحث في ديغول مع مجموعة زعماء العصر الحاضر أسوة بالزعماء المعاصرين له . أما موسى ففي وسعنا أن نلقي عليه وعلى فعالياته نظرة في آخر الكتاب .

قاست فرانسه سنة ١٩٤٠ من ذل الانهيار واحتلال قوات المانيا الهتلرية لها . ثم عانت في النهاية من يأس أصاب روحها – يأس الروح .

وظهرت الحاجة الى قائد ينتشل الأمة الافرنسية من حالتها المؤلمة ، ويسير بها في الطريق المؤدي الى مصيرها الحق .

وبعد سنوات عديدة من الكفاح السياسي ، كانت فرانسه خلالها في مهب

الريح كسفينة لا دفّة لها تمخر في بحر هائج ، وجدت قائدها في ديغول .

شارل ديغول[1]

هو ابن جندي أصبح فيما بعد أستاذاً في كلية يسوعية في باريس . وقد تثقف الصبي ديغول[1] في مدرسة يسوعية قبل أن يذهب الى الكلية العسكرية في سنت سير (St . Syr) . ففي وسعنا إذن أن نتصور أنه كاثوليكي قح وكثير التديّن . وعندما اجتاز سنت سير سنة ١٩١١ طلب تعيينه في كتيبة المشاة الـ (٣٣) لأنه كان معجباً بقائدها – وكان إذ ذاك بيتان (Petain) .. ولم يكن ليدور في خلده أبداً ان اللواء ديغول سيصدر أمراً ، في يوم من الأيام ، لمحاكمة بيتان ، مشير فرانسة ، في محكمة عسكرية ، لتعاونه مع العدو في وقت الحرب . لقد حدث ذلك حقاً في آب ١٩٤٢ . وحوكم بيتان عن التهمة المذكورة ، وحكم عليه بالموت . ولكن ديغول أخّر تنفيذ الحكم ، وكان ينوي إطلاق سراح المشير بعد سنتين من اعتقاله في إحدى القلاع العسكرية ، ليعيش بعدها في داره قرب انتيب (Antibes) . ولكن لقد تقدمنا في الحكاية كثيراً فيجب ان نعود الى الوراء .

عندما التقى بيتان بديغول لأول مرة عام ١٩٢٠ ، شعر أنه ضابط غير عادي . فاستخدمه في هيئة أركانه في فترات عديدة. وكان ديغول من الدارسين الجيدين لفن الحرب، ومفكراً عسكرياً سبق زمانه كثيراً – على الأقل في فرانسه . وقد نشر كتابه (Vers L'armeè Demetier) « جيش المستقبل » عام ١٩٣٤ بعد استلام هتلر الحكم بقليل . وكان هذا الكتاب قيّماً جداً . وان لم تعترف بذلك الجهات العسكرية الافرنسية في حينه . وقد نادى في هذا الكتاب بوجوب « إنشاء جيش ، على جناح السرعة ، له قابلية المناورة والهجوم ، على أن يكون آلياً ومدرعاً ومؤلفاً من رجال مختارين . ويجب أن

---

١ – (Charles Degaulle)

يضاف هذا الجيش الى الوحدات الكبرى التي تجهز عند النفير » .

إن هذه العبارة مقتبسة عن الجزء الأول من مذكرات ديغول الحربية . وقد اقترح تأليف هذه القوة من الجنود المتطوعين ذوي الخدمة العسكرية الطويلة ، وجعلها بمثابة قوة ضاربة مؤلفة من نحو ١٠٠٠٠٠ جندي . ويجب ان تستخدم دباباتها ، التي اقترح ان يكون عددها ٣٠٠٠ دبابة ، كرأس رمح لجميع الحركات الهجومية . ولا شك ان ديغول كان مصيباً في آرائه العسكرية هذه . ولو نالت في حينها حظوة في أعين رؤسائه السياسيين لكان من المحتمل ان تختلف الاحداث التي وقعت سنة ١٩٤٠ ، عما آلت اليه . إلا ان السياسيين ربطوا بين دعوته الى تأليف قوة ضاربة سيارة ، وبين فكرة الجيش المحترف الثابت في فرانسه ، تلك الفكرة التي كان يلعنها السياسيون الإفرنسيون الذين كانوا يعتقدون ان وجود مثل هذه القوة سيهدد عسكرياً نظام الحكم القائم في البلاد . ورفض البرلمان الافرنسي أي تغيير من هذا القبيل ، مفضلاً الجيش الاجباري الكبير على القوة المحترفة الصغيرة .

ومن الممكن ان تفكير ديغول في تلك الآونة من حياته العسكرية ، كان قد تأثر بنجاح هتلر في المانية ، ذلك النجاح الذي أدى الى إعادة تنظيم الجيش الألماني وتجديده بعد مدة قصيرة من وصول هتلر الى الحكم سنة ١٩٣٣ . وقد أشار ديغول في كتابه الى حاجة فرانسه الى زعيم يظهر في ذلك الوقت ، فبرهن بذلك على بعد نظر كبير — وعندما وقعت الأزمة سنة ١٩٤٠ كانت فرانسة تفتقر حقاً الى مثل هذا الزعيم .

وقد أسند بيتان الضابط الشاب ، الذي أهدى كتابه الثاني اليه ، وأصبح أباً في العماد لابن ديغول الذي سمي (فيليب) إكراماً للمارشال . وكان ديغول آنذاك ضابطاً برتبة عقيد ، وقد أثار أيضاً اهتمام بول رينو الذي عرض آراءه العسكرية على لجنة الجيش في البرلمان الافرنسي فرفضتها .

وفي مارس ١٩٤٠ اصبح رينو رئيساً للوزارة بدلاً من ديلادييه . وإني أذكر جيداً ذلك الوقت ، فقد زرت الجبهة الفعالة في السار ، حيث كان قسم

من فرقتي يخدمون في خط ماجينو ليكتسبوا خبرة في التماس مع العدو . وعند عودتي تملكني إحساس بالخطر من جراء حالة الجيش الافرنسي . وقد اوضحت في مذكراتي ، رأيي حول هذا الموضوع . ويظهر أن رينو أيضاً لم يكن مرتاحاً من سير الحرب والنتائج التي قد تتمخض عنها ، وكان يشك في مقدرة الجيش الافرنسي على أن يقوم بدوره التام في صد سيل القوة العسكرية الألمانية ، فتذكر عقيد المشاة الشاب الفعّال الذي كان قد ذاع صيته في قيادة فرقة مدرعة — وقد أصبح الآن لواءاً .

فعندما أخليت قوة الحملة البريطانية من رأس دانكراك الى انكلترة في أوائل حزيران ١٩٤٠ ، عيّن رينو ديغول وكيلاً لوزير الدولة للدفاع الوطني في حكومته . على ان الأحداث كانت تسير وقتئذٍ سيراً حثيثاً ، فلم يكن في وسع ديغول او أي شخص آخر ان يفعل شيئاً . فالجيش الالماني كان قد اندفع ظافراً الى الامام كالسيل الجارف ، وهو يكتسح أمامه الجيش الافرنسي المقهور الذاهل .

وانتقلت الحكومة الافرنسية الى بوردو (Bordeaux) . وفي ١٦ حزيران استقال رينو وشرع المارشال بيتان في تأليف حكومة جديدة . فادرك ديغول ان ذلك يعني حكومة انهزامية واستسلاماً الى الألمان . فقرّ قراره فوراً على ترك فرانسه ، وغادرها الى انكلترة على متن طائرة بريطانية في الساعة التاسعة قبل ظهر يوم ١٧ حزيران . وسقطت فرانسه في ذلك اليوم نفسه . وهكذا فقدت هذه الأمة روحها . وفي مساء ذلك اليوم أذاع ديغول الى الشعب الافرنسي من لندن .

ومنذ تلك اللحظة صار هدفه أن يحشد ، لقضية فرانسه المحاربة ، لا أفراد القوات الافرنسية الذين شقوا طريقهم الى انكلترة فقط ، بل كل الافرنسيين أينما كانوا . وقد اقتنع بان فرانسه قد قهرت مؤقتاً ولكن الامبراطورية الافرنسية لم تقهر . ورأى أن قيادة حكومة فيشي هي ليست جديرة بأمة عظيمة كفرانسة ، فبدأ يهيأ لها القيادة الحقة من مقره في لندن . ولم يكن من السهل

التعامل مع ديغول في السنوات التي أعقبت ذلك ، ولا سيما عندما اقترب موعد الانزال في نورماندي عبر القنال في حزيران ١٩٤٤. إلا ان إيمانه الذي لم يتزعزع في عظمة فرانسه، وثقته الراسخة بانها ستنهض ثانية تحت قيادته ثبّتت مركزه أخيراً زعيماً حقيقياً لفرانسه المستفيقة .

وفي ٣٠ حزيران ١٩٤٠ اصدر الجنرال ويغاند (Weygand) الذي كان وزيراً للدفاع الوطني في حكومة فيشي التي يرأسها بيتان ، أمراً لديغول يقضي بأن يراجع حالاً السجن العسكري في تولوز (Toulouse) ، لكي تحاكمه المحكمة العسكرية عن تهمة الهروب . وقد حوكم غيابياً . وحكم عليه بالاعدام .

ولا حاجة لترديد تتمة الحكاية فهي معروفة جيداً . بل ان ديغول نفسه قد ذكرها في الاجزاء الثلاثة من مذكراته الحربية . وهكذا نشأت « الغولية » (Gaulisim) . ثم تكونت منظمة لإدارة قوات فرانسة المحاربة في بريطانية مع خدمة سرية للسفر الى ومن فرانسة ، لإدارة حركة المقاومة في تلك البلاد . وأخيراً عاد ديغول نفسه الى فرانسة سنة ١٩٤٤ ليؤلف الجمهورية الرابعة . وقد اتهم في يوم من الأيام بالتعاون مع الشيوعيين ، وذلك عندما أصبح رئيساً للحكومة بعد تحرير فرانسة . أما رأيي فهو أنه كان عازماً على إنقاذ فرانسة من السيطرة الشيوعية ، وقد فعل ذلك حقاً .

واني أذكر جيداً زيارته لنورماندي في ١٥ حزيران ١٩٤٤ ، وذلك بعد مدة قصيرة ، من إنشائنا رأس جسر أمين هناك . كان متلهفاً على أن يطأ تربة فرانسة ثانية — وذلك أمر طبيعي . ولم يكن ونستون تشرشل يرغب أبداً في أن يزور ديغول الجبهة في ذلك الوقت ، لكنني أخبرت الحكومة أنه إذا جاء فسيساعدني كثيراً ، وسيبدي لي المشورة حول معالجة الشؤون المدنية كلما وسّعنا رأس الجسر وحرّرنا المزيد من أراضي فرانسة . لذلك فانه جاء يصحبه الجنرال كونيك (Koenig) الذي قاد القطعات الافرنسية في الجناح الجنوبي في معركة العلمين ، والذي أصبح فيما بعد صديقاً مخلصاً لي . وجاء معه أيضاً موظف من وزارة الخارجية الافرنسية — وهو

المسيو كوليت (Coulet) . وقد وجدت ديغول ذا فـــائدة كبيرة فأرسلته بالسيارة الى بايو (Bayeux) مقترحاً عليه إقامـة المسيو كوليت في تلك البلدة ليعالج جميع المشاكل المدنية الافرنسية ، ويزيل أعباءها عن كاهلي . وقد قـام بذلك بالفعل ، لكنه أحدث تذمراً لدى المقامات العليا في وايتهول ، لأنها لم تشأ السماح لديغول بتأسيس حكومته في فرانسة قبل حصولنا على منطقة أكبر من الألمان . غير أنني رحبت بتسلمه مناطقي الخلفيـة في أسرع وقت ممكن . وكان المسيو كوليت أكبر عون لي ، فقد اضطلع بمهام الحكومة المحلية ، ومكنني من تركيز جهودي على المعركة . وظهرت فائدته بصورة خاصة عندمـــا بدأت الاشاعات تنتشر في لندن عن قيام القوات البريطانية بالنهب في نورماندي . إذ عهدت اليه بالتحقيق في هذه القضية ، فثبت ان هذه الإشاعات باطلة . وقـد ذكرت هذه القصة بكاملها في الباب الرابع عشر من مـــذكراتي (الصحيفة ٢٦٤) ، ورويت فيها كيف أن ضابطاً عقيداً في هيئـة أركاني اتهمني أنا نفسي بالنهب !

وكان ديغول خلال الحرب سريع الغضب والانفعال في الغـالب – وكذلك كان أناس كثيرون غيره ، وبين هؤلاء من لم يكن على حق مثل ديغول . ولكن هروبه الى انكلترة في حزيران سنة ١٩٤٠ كان بارقة الحظ الوحيـدة لفرانسة ، بل وللعالم الحر بأسره ، في سنة كانت مشؤومة جداً .

ولديغول بعض الصفات التي تدل على عظمته ، أبرزها اخلاصه واستقامتـه اللذين لا يختلف فيهما حتى خصومه . ثم لديه صفتان تعجباني كثيراً ، وهما القرار والعمل . وربما كان ديغول لا يتوصل الى القرار الصحيح دائمـاً ، لكن غيره من القادة لا يتوصلون الى ذلك أيضاً . وهو لا يرهق نفسه بالتدقيق أكثر من اللازم ، في التفاصيل غير المهمة للأمور التكتيكية الراهنة ، ويقضي وقتاً طويلاً مفكراً تفكيراً هادئاً في تصاميم الخطط الكبرى لاستراتيجية المستقبل . ولقد أتيح له وقت طويل للتفكير عندما انسحب في كانون الثاني ١٩٤٦ من الحياة السياسية ، القذرة نوعاً ما ، للجمهورية الرابعـــة الى بيته في كولومبي لي دي أكليز

(Colombey - les -deux - Eglises)،حيث قضى اثنتي عشرة سنة في العزلة. ولطالما مررت ببيته وانا أسوق سيارتي عندما كنت في فرانسه، لكنني لم أقف لأزوره . فقد نصحني الدبلوماسيون الغربيون في باريس أن لا أفعل ذلك ، لأنه يغيظ حكومات الجمهورية الرابعة التي كانت تتغيّر مرة في كل عشرة أشهر !. وقد قبلت النصيحة ، وإن كنت لم أوافق في قرارة نفسي على الدوافع التي وراءها .

وفي فترة التفكير التي قضاها ديغول في بيته ، أعدّ في ذهنه تفاصيل دستور جديد لفرانسه – وهو الجمهورية الخامسة . وقد صادق الشعب الافرنسي على ذلك بعدئذ في استفتاء عام. ولما كان هذا الدستور منطقياًوسليماً فإن ديغول ماضٍ قدماً في تطبيقه . وستنهض فرانسة ، في حكمه ، مرة أخرى لتصبح دولة عظيمة – وهذا هو رأيي .

لقد كانت الدولة العظيمة ، عندما كنت صبياً ، بل حتى في الزمن الذي نشبت فيه الحرب الهتلرية ، هي التي تملك بحرية قوية ، وبعد الحرب الهتلرية قلّت أهمية القوات البحرية نوعاً ما ، وأصبحت الدولة العظيمة هي التي تملك قوة جوية فعّالة ، « واليوم تعتبر الدولة عظيمة » إذا كان لديها السلاح النووي، وكانت قادرة على صنعه . وهذا هو السبب في إصرار ديغول على أن تنتج فرانسة سلاحها النووي بنفسها – وقد صنعت فرانسة هذا السلاح حقاً . وجرّبته في الصحراء الكبرى . ولو أخذنا الموقف العالمي اليوم بنظر الاعتبار ، فليس في وسعنا ان نقول إنه كان مخطئاً . ولقد كان لتوقيت تجربة القنبلة الذرية الإفرنسية الثانية إبان زيارة خروشيف لباريس في مارس ١٩٦٠ ، مغزى كبير (وربما كان لذلك مغزى فكاهي أيضاً !) .

وإذا كان ثمة من يشك في زعامة ديغول في الجمهورية الخامسة ، فربما زالت شكوكه بعد سماعه اذاعته الى الأمة الافرنسية يوم ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٠ حول سياسته في الجزائر. لقد كنت وقتئذٍ فيسويسرا، وأصغيت إلى خطابه في الراديو ، فكان مدهشاً حقاً ! إذ تجلّت فيه الشجاعة بأجلى مظاهرها ، ودعا

فيه الشعب الافرنسي إلى أن يتحد وان يسنده « مهما كانت النتيجة » . وهـذا الخطاب لا يمكن أن يلقيه غير قائـد عظيم واثق من نفسه . ولذلك فاني أضع ديغول في المرتبة العليا للقادة الوطنيين .

واني أشك إن كان ديغول يحب بريطانية بصورة خاصة . فقـد عشت في فرانسة عشر سنوات (من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٨) وأعتقد أن معظم الافرنسيين يظنوننا نحن البريطانيين منافقين . والذين يظنون ذلك يقصدون طبعاً رجالنـا السياسيين وليس أمتنا كلها – وربما كانوا على حق . فقد قـال بعض الكتاب : إذا أردت أن تقدّر النفاق الحقيقي للسياسيين البريطانيين حق التقدير فيجب أن تكون بريطانياً مائة بالمائة – ذلك لأن الأجانب لا يستطيعون ذلك ! . وربمـا كان هو أيضاً على حق !

أما تجربتي في هذا الصدد فهي ممتعـة . ففي تشرين الأول ١٩٤٨ انتهت خدماتي في الحكومة البريطانية ، وأصبحت جندياً دوليـاً أخدم خمس عشرة حكومة. فتعلّمت حينذاك أن أنظر إلى كل مشكلة من وجهة النظر البريطانية الصرفة. وقد بدأت المشكلات السياسية والعسكرية في العالم الحر مختلفة كثيراً، وأنا أنظر إليها بهذه الصورة . وتعلّمت كذلك اننـا نحن البريطانيين شعب يصعب التعـامل معه . فنحن عنيدون ونظن أنفسنا على صواب دائماً وان الآخرين دائماً مخطئون .ولذلك فانني أستطيـع أن أشارك ديغول في شعوره نحونا على العموم !

وأود أن أضيف إلى ذلـك فأقول : إذا أراد المرء أن يحصل على فكرة واضحـة عن سياسة الحكومة البريطانية ودبلوماسيتها وجب عليه أن يعيش خارج بريطانية برهة من الزمن .

هذا وقـد أنعم عليّ ديغول في أيـلول ١٩٥٨ بالوسام العسكري (Medille Militaire) الذي هو أعظم شرف تستطيـع أن تمنحه فرانسا إلى جندي – ومن النادر انه منح إلى أجنبي في السلم . فكان ذلك شرفاً عظيماً لي. وفي ذلك الشهر نفسه تركت منصبي في الناتو ، وعدت إلى انكلترة – بعـد

أن عشت في فرانسه عشر سنوات .

ولم ألتقِ بديغول ثانية حتى جاءت زيارته الرسمية إلى لندن في نيسان ١٩٦٠ ، بصفته رئيساً للجمهورية الافرنسية . وكان يبدو عند وصوله عصبيّاً نوعاً ما ، وكأنه غير واثق من نوع الاستقبال الذي سيلقاه . والواقع انه ليس في وسع المرء أن يتأكّد من مدى ترحيب الجمهور اللندني بالزائرين الأجانب ، فقد يكون استقبال الجمهور للضيف الزائر بارداً في بعض الأحيان ، كما حدث عند زيارة رئيسي جمهورية المانية الاتحادية وإيطالية . وعندما مرّ موكب الملكة وديغول قادماً من محطة فكتوريا كنت واقفاً على الرصيف خارج كنيسة ويستمنستر . فلاحظت ان الجماهير ، لا تبدي حماساً ، وان الهتافات التي كانت للملكة أكثر منها لديغول ، وكان ذلك ، بمناسبة ظهورها لأول مرة منذ ولادة الأمير أندرو .

وفي حفلة الغداء التي أقيمت في كلدهول (Guild Hall) على شرف ديغول ، أشار محافظ لندن (Lord Mayor) إلى هذه النقطة بقوله : نحن اللندنيين لا يمكن أن نؤمر باستقبال أياً كان استقبالاً حافلاً . وان الحفاوة التي قد يلقاها الضيف أو المضيفة يتوقف عليهما » . واني أذكر استقبال أهالي لندن الحافل للملكة سالوت (Salote)من تونكا (Tonga) يوم التتويج سنة١٩٥٣. أما في حالة ديغول فقد زال البرود البريطاني عندما ترك هو حرسه ، واختلط بالجمهور مصافحاً كل يد امتدت إليه ، وكان ذلك بعد ان وضع اكليلاً من الورد على تمثال المارشال فوش في لندن . وعندها شعر أهالي لندن أن ديغول ليس بالجندي البارد المغرور العنيد ، بل هو ، إنسان طيّب القلب جداً . وبعد هذا الحادث زاد حماس الناس له شيئاً فشيئاً. وكان الخطاب الذي ألقاه في ٧ نيسان، على أعضاء البرلمان ممتازاً . فقد امتدح الدساتير البريطانية ، ونظامنا البرلماني ، وقال ما معناه : لو كان لديهم في فرانسه ، نظام كنظامنا لما اضطر إلى تعطيل الاجراءات الدمقراطية الاعتيادية . وهكذا فإنه نال احترامنا حالاً بجلال شخصيته وعظم كلماته . وربما كانت اشارته إلى النظام البرلماني البريطاني

للاستهلاك المحليّ في باريس ! .

وقد تحدثت معه مرتين عند وجوده في لندن . الأولى في الحفلة الرسمية التي أقيمت على شرفه في قصر باكنغهام ، والثانية في السفارة الافرنسية عندما أقام حفلة عشاء على شرف الملكة . ففي قصر باكنكهام أرسل في طلبي بعد العشاء فكان ذلك شرفاً عظيماً لي حقاً وبرهاناً على صداقته . وقد أخبرته عن هذا الكتاب ، وسألته إن كان في وسعي أن أزوره في باريس فيما بعد للوقوف على آرائه حول معضلة القيادة في البلاد الدمقراطية . فأجابني : « آه ! ان هذه معضلة صعبة ، لكنها ربما كانت في بلادك أقل صعوبة منها في بلادي . تعالَ ، طبعاً ، وواجهني في باريس متى شئت وسنتناقش في ذلك » .

وفي السفارة الافرنسية تجرّأت ، بدافع من صداقته لي ، وفاتحته بنفسي . فتحدثنا وقتاً أطول حول الموضوع نفسه . ثم رأيته مرة أخرى في دار الأوبرا الملكية وكان ذلك في الليلة الأخيرة لزيارته الرسمية . وقد لاحظته بدقة من مكاني الذي كان في الصفوف الأمامية . فبدا متعباً ، وربما كان حقاً كذلك ، فقد أمضى ثلاثة أيام مزدحماً بالزيارات الرسمية والمآدب والحفلات . على أن حرارة الترحيب الذي لقيه من الحاضرين ، وكانوا جميعاً من الطبقة الممتازة ، حرّكت مشاعره كثيراً ، وأظن انني شاهدت دموعاً في عينيه .

وقد حدثت لي تجربة ممتعة عندما تركت دار الأوبرا في تلك الليلة . كنت مع المشير هاردنك (Harding) وزوجته ، فجرّبنا عبثاً أن نجد سيارة أجرة . وأخيراً استطاع أحد ضباط الشرطة الطيّبين أن يحشرنا في « سيارة سجن »[1] كانت تنتظر بالقرب من مركز شرطة شارع باو (Bow) . فأخذتنا هذه الى اوتيل سافوي (Savoy) حيث كنت أقيم ، واستأجرنا هناك سيارة ركوب لآل هاردنك . ولا أحسب ان مشيرين اثنين سبق ان ركبا في سيارة سجن !

دعنا الآن نلقي نظرة فاحصة على شخصية هذا الرجل ، وان نفهم أيضاً

---

١ – ويسمّيها الانكليز « Black Maria » .

تفكيره وآراءه حول المشكلة التي تواجهنا في هذه الدنيا المنقسمة. وخير طريقة لذلـــك هي ان أذكر الأحاديث التي تبادلناها معاً .

أولاً – ما هي أوصاف الرجل ؟

إنه طويل القامة ذو جسم مرن . وقد يدعي البعض انه بارد الشكل ، وتنقصه قوة الشخصية التي تجعله زعيماً وطنياً ممتازاً . والواقع ان ديغول قـــد يبدو كذلك في الظاهر ، وربما ترك انطباعاً يدل على انه تنقصه روح الفـكاهة ، ويفتقر إلى الأصدقاء الحميمين . أمّا حقيقته فهي خلاف ذلك في نظري . فهـو خجول ولا يكشف عن نفسه بسهولة . لكنه ذو قلب طيب ونفس كريمـــة . وانك لتكشف عن ذلك بسرعة حالما تتعرّف إليه .

ولقد تحدثت معـــه مراراً . واني لا أحفظ له المودة فحسب بل أُعجب به أيضاً اعجاباً شديداً . ان لكل إنسان منا طريقته (أو طريقتها) الخاصة في الحياة . ولذلك ليس من المفروض أن يستحسن الجميع طريقة ديغول . لكنه يجب أن نتذكر انه يرى ان فرانسه لا يمكن أن تستعيد شخصيتها الأساسية ما لم تكن في الصف الأمامي من دول العالم . ونحن نرى الرأي نفسه تمامـــاً عن بريطانية . وهو لا ينشد شيئاً لنفسه ، بل يريد كل شيء لفرانسه . وان القضية التي بنيت عليها فلسفته هي أن يعيد لفرانسة مجدها السابق . ولا شك انه إذا لم يتمكن هو أن يحقق ذلك فلن يستطيع أن يحققه أحد غيره .

وقد يبدو ديغول ، بنظر الكثيرين شخصاً غريباً ومعقّداً في عالمنا هـذا ، عالم السياسة والحرب . وربما ظنوا انه بارد ومترفّع وشخصية يصعب فهمها . ولكن إذا استطعنا أن نقول ذلـك عن كثيرين غير ديغول فلا يصحّ أن نقوله عنه . فهو ان أحبّـك كشف لك عن قلبه حالاً . وربما لم يكن طيباً مع الذين يكرههم ، لكنه ليس هو الوحيد في هذا الخصوص .

وهو يملك جميع الصفات التي ذكرتها في الفصل الثاني عشر والتي هي جوهرية للزعامة الناجحة في البـلاد الغربية ، وهي اليقين والأمانة الواضحة والإخلاص

والصلابة والشجاعة السياسية ، وهو فوق ذلك كله يملك صفة القرار، كما سبق ان ذكرت في هذا الباب . وهو جندي لا يضحّي بمبــادئه في سبيل منصب أو سلطة – كما يفعل غيره من السياسيين . بل لقد استقال عمداً من منصبه الرفيـع سنة ١٩٤٦ وذهب إلى الريف وانتـــظر هناك – ولم ينهمك أثناء ذلك في دسّ الدسائس لاستعادة السلطة . وكان واثقا من ان فرانسة ستحتاج إليـــه ثانية في حينه . وكان على صواب ، فقد استدعته أمته ثانيةً سنة ١٩٥٨ . دعنا الآن ننظر في تفكيره ولنختبر آراءه :

كنت قد أشرت قبل هذا الى الخطاب الذي أذاعه إلى الأمة الافرنسية في كانون الثاني ١٩٦٠ حول السياسة الجزائرية . وفي اعقاب ذلك سألته أن يخبرني في عبارات بسيطة عن العوائق الخفيّة التي تحول دون حل تلك القضية حـــلاً دائماً . فقال لي ان إحدى العوائق الكبرى هي المستوطنون البيض في الجزائر ، والبالغ عددهم نحو مليون ونصف المليون نسمة، ومعظمهم من الافرنسيين. فهؤلاء يجب أن يبقوا هنـــاك ، إذ ليس لهم وطن آخر . وهم العمود الفقري للاقتصاد الجزائري . وبدونهم لا تستطيع البلاد أن تستمر ، وعلى الأقـــل حتى يبلغ السكان المحليون درجة أعلى من الثقافة والحضارة، وذلك يتطلب وقتاً .

ثم انه يوجد نحو نصف مليون جزائري يعملون في فرانسه . وهؤلاء يرسلون الأموال إلى ذويهـم في الجزائر . وهذه الأموال تعيـــل نحو ثلاثة ملايين من الجزائريين الذين قد يموتون جوعاً بدونها . وعلى العموم يستحيـل على الجزائر بدون فرانسه وبدون المساعدة الافرنسية أن تستمر [1] وأن تكون لديها خدمة مدنية كافية واقتصاد حيّ . فالمشكلة إذن ذات شقين : قمع الثورة، وإيجـــاد طريقة يتمكن بها الشعبان الافرنسي والجزائري من أن يعيشا معاً عيشة راضية سعيـــدة . وفي رأي ديغول ان هذه القضية ذات الشقين لا يمكن أن تحل إلاّ بالطريقة التالية :

أولاً – وقف القتال .

---

١ – لقد أثبتت الحوادث خطل هذا الرأي .

ثانياً – أن يصوّت السكان لما يريدونه .
ثالثاً – أن يخضع جميع الأطراف لرأي الأكثرية .

وتؤلف هذه النقاط الثلاث السياسية التي تبدو لي معقولة وصحيحة إلى درجة كبيرة . هذا وان الصراع في الجزائر يكلّف فرانسة ثمناً باهظاً . فإن معظم الجيش الافرنسي يرابط في تلك البلاد ، ويجب اعادته إلى فرانسه وتقليل عدده إذا أريد إيجاد المال اللازم لتجهيز القوات الافرنسية المسلّحة بالأسلحة النووية تحت سيطرة فرانسه نفسها – وهو ما ينوي أن يفعله ديغول .

وقد بحثت معه ذات مرة في خطته التي اعتاد بموجبها أن يذيع إلى الشعب الافرنسي بين حين وآخر موضّحاً لهم ،سياسته ومبيّناً الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ، وكيف يتسنّى له ذلك ومتى ؟ . فقال لي ان هذه ليست إلاّ الطريقة التي اعتدت أن أطبّقها أنا نفسي في حرب هتلر ، إذ كنت أخاطب الجنود مبيّناً لهم الواجب، ومفسّراً لهم دورهم في المعركة المقبلة .

وكان قد تكلّم في الاذاعة مرة أخرى في ٣١ مايو ١٩٦٠ ، فألقى خطاباً قيّماً أوضح فيه إلى الشعب الافرنسي السياسة التي تتبعها فرانسة في الصراع القائم بين الشرق والغرب . وعلى أثر إذاعته هذه ذهبت إلى باريس لأراه واستوضح منه عن سياسته هذه . فذكر لي ان أكبر شرور الزمن الذي نعيش فيه هو تقسيم العالم إلى معسكرين مسلّحين أو إلى كتلتين سياسيتين . ففي ظروف كهذه يتوقف فناء قسم كبير من الانسانية خلال ساعات قلائل على قرار يتخذ في موسكو أو في واشنطن وحدهما . وكان يرى انه عند مجابهة هذا الخطر الهائل لن تبقى أهمية لخلاف إقليمي أو عقائدي . فيجب إذن إزالة هذا الخطر . ويقتضي لذلك اتخاذ ثلاثة تدابير :

الأول – تقليل الشك بين الشرق والغرب ، لأن الشك يؤدي إلى التوتر بين الكتلتين . وهذا يعني في الحقيقة خلق جو أحسن للعلاقات بين الكتلتين ، وذلك بزيادة التعارف بينهما والإكثار من التبادل الثقافي والسياحي ، وإيقاف

جميع الأعمال والخطب الاستفزازية . فإذا تعذّر علينا أن نفعل ذلك ، فقد يجد العالم نفسه يوماً ما في الحرب مرة أخرى « كما حدث مرتان في حياتي ، لان ارشيدوقاً قد قتل ولأن البعض أراد دانزيغ » .

الثاني – التوصل إلى تدبير لنزع السلاح الخاضع للرقابة . وهو يفضّل البدء بالأسلحة التي ترمي القنابل النووية إلى مسافات بعيدة – أي الأعمال الاستراتيجية التعرضية . لكنه لم يشأ أن يكون جازماً أكثر من اللازم حول هذا الموضوع . فالنقطة الحيوية في رأيه هي التوصل إلى نوع من الاتفاق والبدء بالعمل . وهو يعتقد اننا لا نستطيع ان نحقّق أي تقدّم يذكر بمجرّد الكلام في جنيف ، والواقع ان الخطوة الأولى يجب أن تستهدف تقليل الشكوك بين الشرق والغرب . إلى أن يتم ذلك ، من العبث عقد مؤتمر لنزع السلاح .

الثالث – يجب أن يكرّس التعاون المنظّم بين الشرق والغرب لخدمة الجنس البشري ورفاهيته – ويجب أن يستهدف تقديم المعونة الاقتصادية والثقافية إلى الأمم المتخلفة ، وتحسين مستواها الحضاري . وعلى الشرق والغرب أن يشتركا معاً في البحوث العلمية التي يتوقف عليها مستقبل الجنس البشري .

وقد عزم ديغول، وهو ينتظر تنفيذ هذه الخطوات على أن يجعل فرانسة قادرة على الدفاع عن نفسها، وأن يكون دفاعها أفضل مما كان عليه عام ١٩٤٠. وقد أوضح انه لكي يكون التحالف الغربي حقيقة فعّالة ، من الضروري أن تكون لفرانسة « شخصيتها » الخاصة . وهذا يعني انه إذا كان للدول الأخرى تسليحها النووي الخاص ، فيجب أن يكون لفرانسه مثل هذا التسليح ليتسنى لها ضمان سلامة أراضيها بنفسها . وبالاختصار انه يعتقد ان مصير فرانسه يجب أن يكون بيدها رغم انها مرتبطة مع حليفاتها في الحلف الأطلسي . ان آراء ديغول هذه يصعب معارضتها ، بل لقد قلت له إني أؤيده في هذه النقاط الثلاثة تأييداً تاماً .

وفي ذات مرة ، بحثت مع ديغول عن منظمة الأمم المتحدة . فوجدته لا

يعير هذه المنظمة أهمية كبرى . بل ان رأيه فيها أسوأ من ذلك ! - وقد قلت له : ان قوة التصويت في هيئة الأمم ، أصبحت غير متوازنة فالسود مثلاً يؤلفون نحو ٧ بالمائة فقط من سكان العالم ، ومع ذلك فانهم سيحصلون على ٢٨ بالمائة من أصوات الجمعية العامة ، إذا قبلت الدول الافريقية المستقلة « حديثاً » أعضاء في هيئة الأمم خلال السنوات القلائل القادمة . وفي مقابل ذلك نجد ان الصينيين الذي يؤلفون نحو ٢٥ بالمائة من سكان العالم ، لا يملكون أي صوتٍ في هذه المنظمة ، بل ليس لهم أعضاء فيها ! فقال ديغول ، ان الأمم المتحدة لم تعد منظمة فعّالة ، هذا إن كانت هي فعّالة حقاً من قبل .

واني أجد من الممتع دائماً البحث في شؤون الحرب العالمية الأخيرة . وقد سألته ذات مرة عما كان سيحدث من اختلاف في الموقف لو أن غورت وجّه الجيش البريطاني في مايس ١٩٤٠ باتجاه الجنوب الغربي ليلتحق بالجيش الافرنسي ، وهو ما أرادته وزارة الحرب في لندن في تعليماتها التي أرسلتها إليه مع رئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية (آيرونسايد) . فقال ديغول ، ان ذلك لم يكن ليغيّر من الموقف شيئاً . وهو يرى ان غورت كان مصيباً في رفضه تنفيذ التعليمات المرسلة إليه ، وقيامه بدلاً من ذلك باتخاذ التدابير للانسحاب الى انكلترة عن طريق دانكرك . فالوقت لم يكن يساعد على القيام بأي عملٍ آخر ، والموقف كان قد ساء بحيث أصبح من الضروري إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الجيش البريطاني ليتسنّى له أن يعيش ويقاتل في يوم آخر . وأردف ديغول يقول : ان الحل الصحيح لذلك الموقف المفجع وقتئذٍ هو انسحاب الجيش الافرنسي إلى شمال افريقية والجيش البريطاني إلى انكلترة . وهو يرى ان تشرشل كان على صواب عندما رفض السماح للأسراب الباقية من الطائرات البريطانية المقاتلة بالبقاء في القواعد الجوية الافرنسية حالما انكشفت الأزمة . فلو كان الجيش الافرنسي في شمال افريقية لاستطاعت فرانسه أن تقدم لبريطانية مساعدة أفضل في الحرب ضد دول المحور . وقد تحمّل الشعب البريطاني وحده في النتيجة أعباء الاستمرار في القتال . وهو يرى ان الحضارة الغربية ستظل دوماً

مدينة لهم بذلك .

ثم حوّلت الحديث الى « مشروع الاتحـــاد » الذي اقترحته الحكومة البريطانية في ١٤ حزيران ١٩٤٠ إلى مجلس الوزراء الذي كان يرأسه بول رينــو آنذاك . وربما كان القارىء قد نسي الاقتراح الفريد من نوعه ، لذلــك فإني أذكر فــيما يلي صيغته النهائية ، وقد اقتبستها من الجزء الثاني لكتاب الحرب العالمية الثانية لتشرشل .

اعلان الاتحاد

« في هذه اللحظة المصيرية الخطيرة من تأريخ العالم الحديث تعلن حكومتا المملكة المتحدة والجمهورية الافرنسية هذا البيان عن اتحـادهما الوثيق وعزمهما الراسخ في دفاعهما المشترك عن العدل والحرية ضد الخضوع إلى نظام يجعــل من الجنس البشري آلات وعبيــداً . وتعلن الحكومتان بـأن فرانسه وبريطانيــه العظمى لن تكونا بعد اليوم دولتين ، بل اتحـــاد فرنسي ــ بريطاني » .

إن دستور الاتحاد سيهيّىء أجهزة مشتركة للسياسة الدفاعية والخارجيــة والمالية والاقتصادية » .

« وكل مواطن إفرنسي يتمتّع فوراً بجنسية بريطانية العظمى. وكل مواطن بريطاني يصبح مواطناً إفرنسياً » .

« ويشترك كلا البلدين في مسئولية ترميم تخريبــات الحرب أينما حــدثت في أراضيهما . وتصرف موارد الاثنين حالاً وبالتساوي لهذا الغرض » .

« يؤلف خلال الحرب مجلس وزراء واحد توضع تحت إدارته كافة القوات البريطانية الفرنسية ، سواء أكانت في البر أم البحر أم الجو . وستحكم هــذه الوزارة أينما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ويكون البرلمانان مشتركين اشتراكاً رسمياً. وقد سبق لدول الامبراطورية البريطانية أن بدأت في تشكيل جيوش

---

١ ــ (DECLARATION OF UNION) .

جديدة لها . وتحتفظ فرانسه بقواتها المتيسّرة في الميدان وفي البحر والجو .
والاتحاد يناشد الولايات المتحدة الأمريكية تعزيز الموارد الاقتصادية للحلفاء
وأن تقدّم مساعداتها الجبّارة في سبيل القضية المشتركة » .

« يركّز الاتحاد جهوده كلها ضد قوة العدو أينما وقعت المعركة » .

« وهكذا سنقهر العدو » .

وقد أخبرني ديغول ان فكرة الاتحاد هذه قد ولدت في رأس المسيو مونيه (Monnet) . وانه طلب من الجنرال (أي ديغول) عند ذهابه إلى لندن أن يبحث قضايا النقل البحري ، وأن يطلب من تشرشل إقناع الحكومة البريطانية للموافقة على ذلك ، وإعداد عرض معيّن إلى مجلس الوزراء الإفرنسي الذي كان برئاسة المسيو رينو ، والذي كان قد انتقل وقتئذٍ إلى بوردو . غير ان هذا العرض رفضته الحكومة الافرنسية حال تقديمه إليها . وقد علّق تشرشل على ذلك بقوله « يندر أن قوبل عرض سخيّ كهذا مقابلة عدائية كهذه » .

وسألت ديغول إذا كان هو نفسه قد فكّر بوجود أي أمل في قبول حكومة بوردو إعلان الاتحاد المذكور . فأجابني انه لم يفكر بذلك أبداً . ثم أردف يقول : وعلى كل حال ، فإن جسامة هذا المشروع كان سيجعل تحقيقه على عجل ضرباً من المستحيل . وقد وافق في حينه على تقديمه لاعتقاده انه ربما ولّد « هزّة نفسية » على حد تعبيره ، في الوزراء الافرنسيين والأمة الافرنسية ، فيحفزهم جميعاً إلى التضامن والاتحاد وهو الأمر الذي كان قد يساعد على تأجيل الاستسلام . على ان المشروع لم يحدث مفعولاً كهذا في النتيجة . ثم سألته : ماذا كان سيحدث لو قبلت الحكومة الافرنسية إعلان الاتحاد ؟ . فقال ان المشروع لم يكن اقتراحاً عملياً . وكان سيؤدي إلى مناقشات لا نهاية لها حول المركز النسبي للملك بريطانية ورئيس جمهورية فرانسة ، وللبرلمان البريطاني والجمعية الوطنية الافرنسية . هذا بالإضافة إلى مختلف أنواع المشكلات القانونية وغيرها . وهو يرى ان نجاح هذا المشروع لم يكن ممكناً أبداً . ويظن ان

تشرشل نفسه لم يكن ليعتقد بنجاحه . وقد استوضحت عن ذلك ، من تشرشل فيما بعد فوجدته يميل إلى تأييد وجهة نظر ديغول .

أما آراء الرئيس ديغول عن الوحدة الأوروبية فقد وجدتها جديرة بالاهتمام. فهو يرى ان تأسيس ولايات متحدة أوربية — أو أوربا الاتحادية ، غير ممكن في المستقبل القريب . ومن رأيه ان دول أوربا الغربية اليوم (سنة ١٩٦١) لم تعد تخشى أي تهديد عسكري من روسيا. والواقع ان احتمال وقوع مثل هذا الاعتداء العسكري يمكن أن يصرف النظر عنه وما دام الاتحاد السياسي مستحيلاً فعلى هذه الدول أن تستفيد من الوحدة الاقتصادية — أي السوق المشتركة — فإذا قويت هذه الوحدة وتطورت ، فقد يكون في الإمكان ، بعد عدد من السنين ، الانتقال تدريجياً نحو أوربا الكونفدرالية — وهي اتحاد تعاهدي لدول ذات سيادة . فقلت له : أما وقد تنقلتُ على نطاق واسع بين جميع دول التحالف الغربي ، لا أرى أملاً حتى في اتحاد أوربي كونفدرالي . وبعد مناقشات أخرى اتضح لي انه يظن أن من المحتمل ، بعد سنين طوال (٣٠ سنة مثلاً أو أكثر) أن يظهر تهديد لأوربا من آسيا . فإذا ما ظهر ذلك فيجب أن تتحد أوربا وإلا فانها ستتعرض إلى خطر التهديد الجديد . وقد علقت أنا على هذا الموضوع قائلاً : بعد زيارتي للصين وحديثي مع أقوى الشخصيات فيها ، وبعد ان رأيت بأم عيني مدى فقر الشعب الصيني وتأخره صرت أعتقد ان للصين مشكلاتها الخاصة التي ستشغلها خلال العشرين سنة القادمة ،وربما إلى مدة أبعد. أما ما سيحدث بعد ذلك، فلا يمكن أن يتنبأ به أحد .

وفي حزيران ١٩٦٠ سألت ديغول ، عمن سيقود أوربا ويشجعها على العمل وفق أسس سياسته التي أؤيدها تأييداً تاماً . واقترحت أن تقدم لنا فرانسه تحت ادارته ، القيادة التي نحن بأشد الحاجة إليها ، فتهدي أوربا الغربية نحو الوحدة التي كانت تفتقدها دوماً . وقلت : نحن البريطانيون نستحق الكثير من اللوم ، لاننا كنا البلد الوحيد الذي لم يندحر في الحرب أو

يحتل . وكان في وسعنا أن نتولـّى قيادة أوربا بعد هتلر ، لكننا اتـّجهنا نحـو شؤوننا الخاصة ، وأعرضنا عمداً عن تلـــك القيادة . ان حكم التأريخ في هذه النقطة سيكون قاسياً ، وللتأريـخ الحق في ذالك . ثم أضفت إلى ذلـــك قائـــلاً : ان آراءه عن الوحدة الاقتصادية التي ستؤدي أخيراً إلى الاتفاق السياسي تثير اهتمامي . أمـــا رأيي فهـو انني كنت أعتقد دوماً ان المشكلة التي تواجه دول الغرب هي مشكلة سياسية بالدرجة الأولى . فـــلا يمكن تحقيق الوحـــدة الاقتصادية والحصول على القـوة العسكرية الإجماعية ما لم تتـّحد العلاقة السياسية بين الدول ذات الشأن بشكل واضح . وهذه العلاقة لم تتحدّد حتى الآن . ثم انني أرى من الضروري اعادة النظر جـذرياً في كل من الكيان السياسي والقيادي للناتو . وما لم يتم ذلك سريعاً فلا يمكن تنفيـــذ آرائه حول معالجـــة الموقف الصعب الذي يواجهنا اليوم، ذلك الموقف الذي أوضحه هوالى الشعب الافرنسي في اذاعته لهم يوم ٣١ مايو ١٩٦٠ .

وفي محادثاتي كلها مع ديغول كنت أشعر بالثقة في هذا الرجل – ولا سيما في حكمته وشخصيته الهادئة . وهو يرى ان كل ما يجب أن نفعـــله هو أن نسير في طريقنا بهـــدوء ، ونسعى إلى عقد الاتفاقيات الاقتصادية، وان نتاجر مع بعضنا البعض ، ونتبـــادل الزيارات ، وان نحاول على العموم إقنـــاع شعوب أوربا على أن ترى المعضلة برمتها وبحقيقتها . ولما كان وقوع تهديد عسكري من روسيا على أوربا قد ابتعد ، فيجب أن نحـــاول الآن إقامة شؤوننـــا الاقتصادية على أسس مرضية . فيـــا له من مصيب !

هذا واني أعتقد ان مستقبل التحالف الغربي والعلاج النـــاجع للصراع بين الشرق والغرب ، يتوقفان كثيراً على ديغول . ولقد حقـّق هذا الرجل تغيـّراً روحياً في فرانسه ، ذلك التغيير الذي لا يمكن أن يصدّقه المرء حتى يراه ، وأعاد الى تلك الأمة روحيتها وكرامتها وهما الشيئان اللذان فقدتهما فرانسه بعد

موت كليمنصو الشيخ وبنتيجة هجماتها الانتحارية العظيمة في ١٩١٤ و ١٩١٧ .
والحق ان ما فعله ديغول شيء مدهش . ففرانسه أمة عظيمة عندما تكون
« تامة الروح » ومتحدة مع نفسها ، وللعالم حاجة إلى حكمتها وروحيتها .

فهل سينهض ديغول بأعباء هـذا الواجب الجسيم يا ترى ؟ وهل ستبقى
صحته سليمه ؟ . لقـد رأيته مراراً منذ أن عاد من العزلة وأسس الجمهورية
الخامسة ، فكان يبدو لي في صحة جيـدة وممتلأً قوة وثقة . وهو يعرف
حق المعرفة مـا يريد ، ولديه الاندفاع والعزم لانجازه . ويظهر لي ان قوة
بصره التي كانت موضع الشك لدى فريق من النـاس لا تبعث الآن على القلق .
واني أعتقد انه سيبقى صحيـح الجسم عشر سنوات أخرى على الأقـل .
وهـذا أمر ضروري حقاً لاننا لا نرى من سيخلفه في المستقبل القريب — وهو
الآن في الحادية والسبعين من عمره .

وديغول يتصف بجميـع الصفات التي أعجب بها إعجاباً شديداً . وهي
الهدوء في الأزمات ،والقرار والمقدرة على الخلو إلى النفس لأجل التفكير .ولديه
على العمـوم المقدرة والارادة والشجاعة للتعبير عما يريد أن يفعله — وبعبارة
أخرى لإيضاح خطته الكبرى من غير أن يرهق نفسه بالتفاصيل غـير المهمة .
وهو شخص طبيعي ومن نوع عظيم جداً .وفي رأيي ان هذه الصفات كلها ،وبالأخص
القرار والشجاعة يفتقر إليها الكثيرون من القادة السياسيين في يومنا هذا .

وللجنرال ديغول عون كبير في زوجته . فمـدام ديغول ربة بيت
كريمة في قصر الاليزيه (Palais De L'Elysée) وهي سيدة ظريفـة
وقـد ضحكت ملء قلبها عندما وصفت لها في إحـدى حفلات الغداء
زيارة قمت بهـا ذات مـرة لمعرض الأزيـاء في بيت كريستين ديور
(Christian Dior) في باريس .

وأخـير ، لا شك ان ديغول هو أحد الرجال العظام في عصرنا هـذا
بل هو عبقري بحق . وأعتقد انه أعظم زعيم سياسي في العالم الغربي ، وشخصية
لازمة لفرانسه وأوربا .

البَابُ الثَامِن

تشرشل - وَالان بروك

قررت أن أخصص باباً واحداً إلى هذين الرجلين ، لأنهما يؤلفان مثالاً حسناً للعلاقة بين رجل الدولة والجندي في الحرب .

ان جميع الرجال العظام يصعب خدمتهم ، وتشرشل ، وهو رجـــل عظيم جداً ، ولا يشذّ عن هذه القـــاعدة ،ولما كان الان بروك رجلاً عظيماً أيضاً فلا شك انة لقي صعوبة في خدمة تشرشل والعمـــل معه . ويروي بروك الشيء الكثير عن ذلك في خواطره عن أيام الحرب – وهي الخواطر التي اتخذ منهـــا سير آرثر بريانت (Arthur Bryant) أساساً لكتاب وضعه في جزئين .

لقد خدمت تحت إمرة كليهما ، وكان الان بروك رئيسي العسكري ، طبعاً ، طوال الحرب وبعدها – أي منذ الأيام الأولى للنفير سنة ١٩٣٩ حتى حلـّلت محله رئيساً لهيئة الأركان العامة الامبراطورية في حزيران ١٩٤٦ .

وكان تشرشل ، بصفته رئيساً للوزراء ووزيراً للدفـــاع ، يحب الاتصال المباشر مع القادة العـامين البريطانيين في مختلف ساحات الحرب ، متجاوزاً في الغالب الان بروك ، الذي لم يكن رئيساً لهيئة الأركان العامة فحسب بل ومديراً أيضاً لمجلس رؤساء أركان القوات المسلحة الثلاث . فكان عمل تشرشل والحالة

هذه يثير غضبه الشديد ، واني لا ألومه على ذلك .

وفي حالة كهذه كانت شرارات الخلاف بينهما تتطاير في كثير من الأحيان في وايتهول وفي غيرها . وقد تورّطت أنا نفسي في هذه الخلافات بعض المرات – فأصابني من الجانبين العسكري والسياسي أسوأ النتائج ! . لكنه كان في وسعي ، كقائد عام في الميدان ، ان التجيء إلى مقري عندما تتجمّع غيوم العاصفة فانشغل في الحرب – فكنت في الواقع في موضع حصين نوعاً ما إذ كان يصعب استدعائي إلى (رقم ١٠ [١]) . ولا شك انه كان في الامكان عزلي عن منصبي ولكن هذا لم يكن محتملاً ما دمنا نربح معاركنا . ولقد قلت لتشرشل ذات مرة :

« لا شك انك تحب القادة الذين يربحون المعارك ، أليس كذلك ؟ فأجابني جواباً طريفاً فقد اكتفى بالقول « وأنت تعلّمني ذلك ! »

أما الان بروك فلم يكن في موضع حصين كموضعي ، لمواجهة هذا الرجل العظيم . إذ كان لا يستطيع التملّص منه أبداً ، بالنهار أم بالليل . وكنت ألاحظه بتأمل طيلة الحرب فكان يبدو عليه الذبول حيناً ، وتنمّ عيناه عن نظرة قاتلة حيناً آخر . لكنه كان على العموم يحتمل ذلك بغير صعوبة ! .

واني صديق حميم لكلا الرجلين . لكنه بالنظر لما أثاره نشر أجزاء من خواطر الان بروك اليومية في الحرب من انتقادات كثيرة ، أراني مضطراً إلى ادخال هذا الباب في الكتاب – لعلني أستطيع بذلك ان أبيّن كيف ان رجلين عظيمين ذوي خلق متين وارادة قوية ، أحدهما رجل دولة والآخر جندي ، يتمكّنان من العمل معاً في زمن الحرب ، وينجحان في عملهما بالنتيجة .

ان كتابة هذا الفصل من الصعوبة بمكان ، لان علاقات هذين الرجلين وأعمالهما كانت متداخلة تداخلاً كبيراً . وربما كان من الأفضل رسم صورة بسيطة لكل

---

١ – يعني رقم ١٠ داوننك ستريت وهو مقر رئاسة الوزارة البريطانية .

منهما ومن ثم جمع الاثنين معاً في بحث تحليلي نهائي . واني لا أعرف بداهة ما جرى خلف الستار في وايتهول ، عدا ما ردّدته الاشاعات . ولكني عرفت متى عصفت الرياح الباردة شديدة في أروقه وايتهول - كما كان الحال عندما كان رؤساء الاركان يحاولون الاتفاق مع الأمريكيين حول أفضل الخطط لدحر الألمان في أوربا ، في حين ان الرجل العظيم كان يرى ان الخطة الفضلى هي استرداد الجزء الشمالي من جزيرة سومطرة من اليابانيين أولاً !

واني أود أن أبحث في هذين الرجلين كما عرفتهما شخصياً - الان بروك منذ ستة وثلاثين سنة ،وتشرشل منذ اثنتين وعشرين سنة ، وأن أذكر بعدئذٍ علاقة كل منهما بالآخر وعلاقتهما بي خلال حرب هتلر وبعدها . كل ذلك كما خبرته بنفسي . وأرجو أن تكون هذه الدراسة مفيدة، وأن تلقي ضوءاً جديداً على كليهما .

ولنبدأ الآن بتشرشل .

ونستون تشرشل

ليس من الضروري الرجوع إلى الوراء ووصف الحياة الأولى لهذا الرجل العظيم . فقد كتبت عنه كتب كثيرة ، كان أحسنها كتاب ألّفه هو نفسه وعنوانه « حياتي الأولى » (My Early Life) . وهو كتاب أدبيّ قيّم وأحسن جميع الكتب التي كتبها في نظري . إلتقيت بتشرشل في حزيران ١٩٤٠ بعد العودة من دانكرك عندما كنت أقود الفرقة الثالثة . وكنت وقتئذٍ لا أعرف غير عدد قليل من السياسيين ، وكانت تساورني الشكوك عن معظمهم الذين يزاولون مهنة السياسة فكنت اعتقد انهم مسئولون ، إلى حدٍ كبير ، عن المتاعب التي نعانيها . ولكن تشرشل أثار اهتمامي حالاً كرجل قرار وعمل ، عارفٍ بما يجب ان يعمله ،ولديه الشجاعة والعزم على عمله .

ان الشجاعة هي إحدى الصفات البشرية العظيمة. وهناك نوعان منها- الشجاعة البدنية والشجاعة الأدبية. فمن كانت تنقصه الشجاعة البدنية فلا مناص

له من أن يبذل جهده للعمل بدونها . ولكن في وسعنا جميعاً أن نحصل على الشجاعة الأدبية . وهي تعني ، في نظري ، الثبات على الرأي الذي نعتقده صحيحاً ، وارشاد الآخرين إليه بجزم .

ولتشرشل كلتا الشجاعتين البدنية والأدبية . وقد كانت شجاعته عنيفة في بعض الأحيان ومعتدلة في البعض الآخر . لكنها كانت على العموم صفة واضحة المعالم فيه ، أضاءت في زمن الحرب وفي مجلس العموم في السلم ، وكذلك في فترات المرض عندما كافح بشجاعة كبيرة ليعيش ويواصل مهامه .

ولتشرشل أيضاً قوة تصوّر كبيرة وخيال واسع . ورب قائلٍ يقول ان خياله كان أوسع من اللازم أحياناً . وهذا صحيح ، ولم يكن من السهل كبح جماحه. وكانت المشكلة في المجال العسكري هي انه كان يعتقد انه يعرف الأمور العسكرية . وقد كان يعرف حقاً الشيء الكثير عن إدارة الحرب ، إذ كان جندياً يوماً ما . وكانت لديه خبرة واسعة ، طبعاً ، في واجب الحكومة في الحرب– وقد اكتسب تلك الخبرة في حرب قيصر ،وألـّف كتباً عديدة عن هذا الموضوع ، وكان دارساً مجيداً للتأريخ . وفي رأيي انه كان في المسائل الاستراتيجية الكبرى مصيباً على العموم ، أما في المسائل الأصغر منها – كقضايا المجال التعبوي وتفاصيل التنظيم التي كان يحبّ التدخّل فيها ، فكان يخطيء في الغالب .

إلا انه بلغ ذروة العظمة كزعيم قومي في الأوقات الحرجة . فلمّا تهدّد كيان دولتنا سنة ١٩٤٠ أدرك ان الروح البريطانية لا زالت موجودة ، لكنها بحاجةٍ إلى من يناشدها . لذلك فانه تكلّم عن طريق الـ (بي بي سي) (الاذاعة) وعرض الأزمة على الأمة بكلمات رنـّت ودوت كالترانيم . ولا شك ان الكل يتذكرون كيف كنا نتطلـّع بشوقٍ إلى اذاعاته وخطبه في الأيام الأولى من حرب هتلر . واني أشكّ إن كان أي رجل في التأريخ قد فاه بمثل تلك العبارات العابسة التي فاه بها تشرشل ، والتي بعثت ، برغم ذلك ، في عدد غفيرٍ من الناس كالشعب البريطاني ، شعور القوة والمنعة – بل حتى شعور

الانشراح وخفة الروح ، وإحساساً بانهم قد حققوا شيئاً . وكان بريطانيـاً قحاً ذا إباء وصلابة لا تؤثر فيها العواطف الوقتية ، ولا الشدائد الآنية . وكان في الملمات صخرة يستطيع أن يستند إليها الجميـع .

وعندما داهمتنا العاصفة سنة ١٩٤٠ واشتد هياجها إلى درجة لا مزيد عليه، كيّف تشرشل نفسه إلى الأزمة والأحداث غير المتوقعة – وكانت الأخـيرة هي الحقيقة المؤلمة التي نجمت عن كون الولايات المتحـدة ، الحليفة التي علّقنا عليها الآمال ، لم تشترك في الحرب من أجل الحرية ، إلى ان هوجمت هي نفسها هجوماً مباشراً . ولا شك ان ونستون تشرشل بوقوفه ، ذلك الموقف الصلب عندما بدا كل شيءٍ وكأنه قد ضاع ، أنقذ الغرب وحضارته – بما في ذلـك الولايات المتحدة الأمريكية .

وعندما حان الوقت لمحاربة الاعتداء الطاغي الذي أقـدم عليه هتلر وموسوليني واليابان ، كان قلبة يشتعل بنـار الغيظ الذي اكتسح أمامه كل شيء . فكان الموقف يستدعي أحياناً أن يبذل المرء أقصى جهوده ليقف صامداً أمام حجج هذا الرجل المقنعة ، عندما يعقد العزم على تنفيذ خطة عمل غـير صحيحة ، لا تتيسّر لها الموارد العسكرية .

ومع ذلك كله ، ألم تكن هذه « النار » نفسها هي التي أعانتنا جميعـاً على مواصلة الكفاح طوال أعوام الحرب الهتلرية الشاقة ؟ . ولم يسبق أبداً لبلدٍ من البلدان أن وجد قـائداً يناسب الساعة التي ظهر فيها ، كما كان تشرشل عام ١٩٤٠ . وقد علا شامخاً فوق قادة كل الدول ، وكان مصدر الوحي لنا جميعاً . وكان يتحلّى بشيء من العظمة التي تقلب رصاص الرجال الآخرين إلى ذهب .

انني لا أدري كم من رؤساء الوزارات وجّهوا مصير أمتنـا في القرنين الماضيين ، لكني أفترض ان الرجال العباقرة بينهم كانوا نادرين ، وفي القرن العشرين أستطيع أن أسمّي رجلين فقط ، وهما لويد جورج وونستون تشرشل. أما لويد جورج فـلم ألتقِ به . غير ان تشرشل كان في أيام عزّه ، شخصيةً شامخة ، وزعيماً قومياً بارزاً . ولقد استعملت عبارة « في أيام عزّه » وهذا مما

يجعلني أن أذكر انطباعي عن هذا الرجل كما عرفته شخصياً .

عندما التقيت بتشرشل بعد حملة دانكرك كان في ذروة قوته . وبقـــدر ما تسعفني معرفتي وتجــاربي ، بقي على قوته حتى نهاية ١٩٤٣ ثم أصبح مريضاً جدّاً عندما كان في شمال افريقية . ومنذ ذلك الوقت ، لاحظت تغيراً فيه . ولقد رأيته كثيراً في الايام التي سبقت الإنزال في نورماندي ، كما رأيته طبعـاً منذ ذلك الوقت حتى تخلـّى عن منصبه سنة ١٩٤٥ . وأعتقد انه فقد شيئاً من قوته ، فلم يعد ذلك الرجل ذا القرارات الحاسمة الجريئة الذي التقيت به للمرة الأولى في حزيران ١٩٤٠ . وكان انطباعي عنه ، هو ان تشرشل الفنان المتقن في عمله ، كثيراً ما كان يتدخل في تشرشل رجـــل العمل . وكان إذا مـا عجز عن الحصول على ما يريد أطال عملية « الإقناع » أحياناً إلى حــدٍ لا مبرر له ! . وكانت متاعب الحرب قد بدأت تؤثر في قوى هذا الرجل العظيم . فإذا برجل القرار والعمل الذي عرفناه في ١٩٤٠ — ١٩٤١ يميـــل إلى التقلب في ١٩٤٤ — ١٩٤٥ . وكانت صفاته النبيلة التي أضاءت في الأيام الأولى من حرب هتـــلر تكاد لا تظهر إلاّ بصعوبة . وهل يستغرب أحـد ذلك ؟ . وحـــنما بدأت الحرب تقترب من أدوارها النهائية صار يعاني عذاباً فكرياً ، وهو يرى الدول الغربية تفقد الحرب سياسياً لصالح الروس . وكان هو وحده يدرك بوضوح ، ما سيسبّبه ذلك من مشكلات صعبة لأوربا بعد الحرب .

هذا واننا عرضةلان ننسى ان الرجال العظام، العباقرة كونستون تشرشل ، ليسوا إلا بشراً مثلنا وللبشر حدود للتحمّل إذا أرادوا الاحتفـــاظ بحيويتهم التامة جسمياً وفكرياً . وقد تحمّل تشرشل أعباء الحـكم أكثر من خمس سنين ، قائداً للشعب البريطاني في أعظم حربٍ عرفها التأريخ . وهو ، كما أعـــلم ، لم يتمتّع بإجازة من أي نوع كان . وقد بلغت كراهيته لهتلر ولكل ما كان يدعو إليه ، درجة من الشدة . كان يأبى معها أن يرتاح يوماً واحداً . وقـــد اقترحت عليه ذلك مرةً ولكنني لم أكرّره ثانيةً . إذ حمل عليّ حملة شعواء ، ألزمتني الصمت ردحاً من الزمن !

ثم انتهت الحرب فإذا بالشعب البريطاني يبعده عن الحكم . وإني أتذكر زيارتي الأولى ، على أثر الانتخابات العامة سنة ١٩٤٥ . لقد كان كرجل فقد عقله . فلم يكن يفهم السر في خذلان الشعب البريطاني له . على انني وجدت ذلك في صالحه . فهذا الرجل قد تحمّل أعباء حكم بريطانية طيلة سنوات الحرب الشاقة ، فكان منهوك القوى وبأشد الحاجة إلى الراحة - وان كان هو لا يعترف بذلك . وعلى كل حال فقد حصل على الراحة التي كان يحتاج إليها ،ثم عاد بعد ست سنوات ليقود الأمة ثانية – ولكن في السلم هذه المرة .

والآن دعنا نلقي نظرة فاحصة على الرجل نفسه،نظرة في نواحيه الشخصية أكثر من ذي قبل .

في الواقع انني لم أعرف تشرشل حق المعرفة ، إلاّ بعد ان انتهت الحرب . فبدأت عندئذٍ صداقتنا الحقيقية . وقد أصبحنا صديقين حميمين منذ سبعة عشر عاماً ، أي منذ أواسط ١٩٤٥ . وأظن انني أعرفه أحسن من كثيرين من الناس – وأعني أعرفه « رجلاً » وليس رئيساً للوزراء في وقت الحرب فحسب .

إنه صديق صدوق ، أو بالأحرى إني وجدته كذلك دائماً . ولا شك ان لديه أعداءه وحسّاده والمفترين عليه . وأنا أعرف جماعة منهم. لكن ما يمكنهم أن يقولوه عنه لا يقلّل من مودتي له وإعجابي به . وهو من رواة القصص البارعين ، وحديثه عن الماضي مما يبعث السرور في النفس . وإذا استطعت أن تستدرجه إلى الكلام عن الماضي فستسمع إلى قصص أيامه في سان هرست أو معركة أم درمان ، أو كيف أسره البوير ثم هرب منهم . ولطالما جلست معه حتى الساعات الأخيرة من الليل ، أستمع إلى روايات أيامه الماضية ، ناسياً وقت نومي المبكر – وكان يسرّني أن أنساه . وحديثه ممتع حقاً عند وصفه الشخصيات السياسية والعسكرية المعاصرة له . لكنه على العموم ناقد عادل . وهو لا ينتقد أحداً انتقاداً مرّاً ما لم يكن شخصاً سيئاً جداً . وفي السنوات الأخيرة لم يكن من السهل أن تحمله على الكلام ، وإذا سألته أن يحدّثك عن

بعض المعـــاصرين له في أيام شبابه ، ربما قال لك بضع كلمات ثم هزّ كتفه وتوقّف عن الكلام . ولكنك تستطيع أن تخمّن رأيه من نوع هزّة الكتف !. وفضلاً عن ذلك ، ألم يكتب هو عن رجال زمانه في كتابه « المعاصرين العظام » الذي نشر عام ١٩٣٧ لأول مرة ؟

ولتشرشل أخطاؤه شأن أي بشر آخر . فهو قليل الصبر وقد يكون عديم التحمّل وشكوكاً أيضاً . ولعل من الجائز أن أقول إنه كانت تظهر عليه أحياناً امارات الحسد . على انك إذا ما قارنت فضائله مع أخطائه وجدت الأولى تزيد عن الثـــانية زيادة كبرى . وهو مخلص إخلاصاً شديداً ، ويتقبّل المسئولية بسرور . وفي وسعه أن يصغي إليك ، لكنه سرعان مـــا ينفذ صبره ، إذا لم توافق على مـــا يقوله ! . وله مقدرة على القرار ، غير انه ، كما سبق أن قلت ، عندما اقتربت حرب هتلر من نهايتهـــا صار يجد صعوبة في إعطاء القرارات السريعة .

ولتشرشل ملكة فكاهة كبيرة – ولكن ملكته هذه أصبحت في السنوات الأخيرة من النوع الهادىء. فعندما أُقيم مثلاً في بيته في جارتويل (Chartwell) يقدم لي الشراب أثناء العشاء من باب الضيافة ومن باب النكتة أيضاً . فهو يعرف جوابي مقدماً . وعندما يؤتى بالشراب إلى المائدة ينظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ويقول : « انك لا تمانع أن أشرب أليس كذلك ؟.

انني أزوره لماماً واعتقد انه كلما اجتمع حوله الأصدقـــاء واستبقوه متمتعاً كان ذلك أفضل ، فهو الآن شيخ متعب ويحب ان لا يشعر انه لم يعـــد يفيدنا بعد الآن . واني أتحدث معه عن الماضي كثيراً . وهو يشعر بالابتهاج عندما يتحدث عن زياراته لمقري خـــلال الحرب . وأحاول ، من حينٍ لآخر ، أن استدرجه إلى الكلام عن المستقبل . ولكن ذلـــك ليس من السهولة بمكان . فهو يرى ان معالجة المستقبل رهن بالآخرين – وهو كذلك . وهناك أمر هـــام يخطر لي عن ونستون تشرشل . وهو انه لم يستفد أبـــداً من حياته المدرسية في هارو وسان هرست ولم يترك فيها انطباعاً يذكر . وهو لم يحب المـــكانين .

وقد نستنتج من ذلك انه ربما كان من الخطأ تنمية قواك قبل الأوان لأنها قد تتبخر مبكراً . وقد نمّى تشرشل قواه بطريقة مضمونه في الوقت المناسب حقاً ؟ ولكن ، مما هو جدير بالملاحظة انه لولا الحرب الهتلرية لكان من المحتمل جداً ان يذكر التأريخ ونستون تشرشل سياسياً فاشلاً ليس إلا . على أن شهرته مؤلفاً ورساماً كانت قد أصبحت راسخة بطبيعة الحال .

ولكن كيف استطاع ونستون تشرشل ان يقوم بدوره كزعيم وطني سنة ١٩٤٠ عندما جاءه النداء ؟ لقد كانت لديه بداهةً خبرة واسعة عن الجهاز الحكومي ، فقد سبق ان اشغل مناصب وزارية عديدة . وكان عارفاً بالقوات المسلّحة الثلاث أحسن من أي وزيرٍ آخر في زمانه . وكان مراسلاً حربياً ناجحاً ،ويعرف ما يجري في مقر قائد عام في الميدان – أو ربما كان الأصحّ أن أقول انه عرف ما كان يجري في مقر كهذا في الماضي . وقد سافر كثيراً، ولديه المام واسع ببلدان رابطة الشعوب البريطانية وبالمستعمرات البريطانية . وكان يعرف الشعب البريطاني أحسن من معظم الساسة الآخرين ويعرف أيضاً كيف يخاطبهم .

كل هذه الأمور معروفة جيداً . لكنه لا بد وأن يكون هناك شيء آخر قد مكّن تشرشل من أن يقوم بدوره . لقد تحدثت معه كثيراً حول هذا الموضوع لكي استخبر منه المعلومات التي أريدها – أردت أن أعرف ما هو « الشيء » الذي أكمل عدته ، وجعله على أهبة الاستعداد لتلبية النداء ؟ وها هو ذا الجواب إلى هذا اللغز :

ان ونستون تشرشل يعتقد مثل ميكيافالي ان الحظ أو القدر الذي يقرّر نصف حياتنا **وان النصف الآخر يتوقف علينا** . فلو هيّأنا أنفسنا لما قد يحدث واتقنا مهنتنا ، ودرسنا كيف عالج الرجال العظام في الماضي مشكلاتهم وتغلبوا عليها – فكل شيء عندئذٍ سيكون على ما يرام . لذلك فانه قرأ كثيراً ودرس حياة الرجال العظام بصورة خاصة . وعند دراسة مشكلاتهم لم يشغل نفسه بالتفاصيل ، بل كان يستهدف الوقوف على حالات المشكلة التي واجهها هؤلاء

الرجال ، سياسيين كانوا أم عسكريين ، والعوامل التي أثرت فيهم عند اتخـاذهم القرارات . ان هذه الدراسة علـّمته أن يفكـّر ، عند مجابهة مشكلة صعبة ، في حقائق الموقف كما تبدو له في **ذلك الوقت** – وكان يأبى السماح لنفسه بـأن تتأثـّر من قرار اتخذ لحـل مشكلة مماثلة في وقتٍ آخر . إذ ان حالات تلك المشكلة تختلف عن التي تواجهه الآن . وهو يرى ان ما عمل في العصور الغابرة لا علاقة له بما يجب عمله اليـوم . وان الأحوال الحقيقية السائدة **في حينه** هي التي تؤثـّر في القرار الواجب اتخاذه .

وهو أستاذ في الكشف عمـا يفكر فيه الآخرون . لقد كان يبدي بعض البيانات الفظيعة ، إلى رؤساء الأركان لمجرّد اثارة معارضتهم الحامية والوقوف على آرائهم الحقيقية . وأظن ان هذه الطريقة يمكن تسميتها بـ « الاغاظة » (Teasing) ، لكنها كانت تزوّده بالمعلومات التي يريدها .

هذا واني أعد مخطئاً لو تحدثت عن ونستون تشرشل ، كما أعرفه شخصياً ، من غـير أن أذكر أيضاً الليدي تشرشل ، التي ندعوها دائمـاً أنا وأصدقاؤها الكثيرون « كليمي » (Clemmie) . انها سيدة جميلة وموهوبة وأنا من أشدّ المعجبين بها . وهي مثقفة ثقافة عالية ، وذات عقل راجح . ومن دواعي سرور المرء أن يتحدث إليها . وهي تتصف بالشجاعة ، وقد احتاجت إليها أحياناً – لا سيما عندما كان ونستون مريضاً أو يعاني إجهاداً عظيماً ، فكان عليها ان تظهر أمام الملأ وكأن كل شيءٍ على ما يرام . ولا بد ان ذلك كان أمراً عسيراً في الأوقات التي كانت فيها هي نفسها مريضة . الاّ انه مهما بلغ بها المرض من الشدة كانت تستمر على العمـل ، ولا تدع ضيوفها يشعرون بما تعانيه من آلام . وإني أذكر بصورة خاصة حفلة العشاء التي أقيمت في رقم ١٠ داوننك ستريت ليـلة ٤ نيسان ١٩٥٥ عندما تناولت الملكة والأمير فيليب العشاء مع السير ونستون والليدي تشرشل . كانت « كليمي » في تلك الليلة تعـاني ألماً شديداً من جراء التهاب الأعصاب . ولم يكن يعرف ذلك غير قليلين منا . وقد تحمّلت آلام المرض بصبر وكانت طيلة المساء مضيّفة في غاية الكرم . وكان ذلك من أشجع

الاعمال التي رأيتها . وكان عليها في تلك الليلة ، ان تكون شجاعة لسبب آخر . لقد كانت حفلتها الاخيرة في رقم ١٠ داوننغ ستريت لأنه كان على ونستون ان يستقيل من منصب رئاسة الوزراء في اليوم الثاني .

انني لن انسى ذلك المساء . ولقد كنت أعيش في فرانسة وقتئذٍ بسبب منصبي في الناتو . فجئت الى لندن خصيصاً لحضور حفلة العشاء آنفة الذكر . وكانت دعوتي اليها ميزة كبرى ولا شك ، لأن مثل هذه الحفلات لا يمكن أن تكون كبيرة . ولا أدري كم من الحاضرين كانوا يعرفون ان تشرشل سيستقيل في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم الثاني (٥ نيسان) ولكنني كنت أحد العارفين . وقد وصلت مبكراً لأتحدث مع تشرشل ، بينما كان هو يرتدي ملابسه استعداداً للحفلة . فأخبرني بذلك .

وفي نهاية العشاء القى ونستون خطبة قصيرة جداً ، ولكنها كانت رائعة فيما احتوته من عبارات تشير الى الملكة . وكان من الواضح ان تلك المناسبة قد هزّت مشاعره كثيراً . وكان كلاهما عارفاً بما سيحدث في اليوم التالي . فلما انتهى من الخطبة ، وقف والكأس في يده ، وساد الغرفة سكوت مطبق دام بضع ثوانٍ ، ربما كانت عشراً ، واخذتنا الدهشة جميعاً توقعاً لما سيحدث ، وإذا بونستون يرفع كأسه عالياً فجأة وهو يصيح صيحة الظافر « الملكة » . فقفزنا جميعاً واقفين ، وشربنا نخب الولاء للملكة . لقد كانت حقاً لحظة مسرحية ، ولم يكن في وسع أحد أن يمثل هذا الدور غير ونستون نفسه . ثم تكلمت الملكة ببساطة متناهية وباختصار شديد .

وكان غرضها ان تسألنا جميعاً لنشرب نخب صحة « رئيس وزرائي » على حد قولها — وقد تساءلنا جميعاً ، هل ان ملكة من ملكات انكلترة في الماضي قد اقترحت نخباً كهذا . واني لا زلت أجهل جواب هذا السؤال .

وفي يوم الأحد التالي (١٠ نيسان) والمصادف يوم الفصح ، ذهبت الى (جار تويل) وتناولت الغداء مع ونستون وزوجته . وقد تبادلنا أثناءه حديثاً هادئاً . وكانت تلك لحظة كئيبة من بعض الوجوه . غير أنني فكرت

مع ذلك ان ونستون يجب ان يفرح ، لأنه تخلّص من جلبة الحيـاة السياسية ، وصار في وسعه ان يعيش في سلام وهـدوء ، وان يجد متسعاً من الوقت للسفر . وأنا واثق من ان كليمي كانت مسرورة حقاً . هذا ولطالمـا تحدثت مع كليمي والتمست مشورتها، فقدمتها لي صحيحة وعن طيب خاطر . وهي ان لم توافقك على رأي لا تتردد في اخبارك بذلك . او بالأحرى هذا مـا كانت تفعله معي . واني استحسن هذه الطريقة بل وأطبقها بالفعل !

لقد كانت احدى المزايا التي حصلت عليها في حيـاتي هو قبول ونستون وكليمي لي في وسط العائلة ، والسماح لي بالحضور في دارهمـا في جارتويـل متى شئت . وقـد اصبحت صديقاً حميماً لابنتهما الصغرى « مـاري سومز » (Mary Soames) وأباً في العماد الى « جيريمي » (Jeremy) ابنها الثـاني الذي يقف تصويره أمامي وأنا أكتب هذه الكلمات . انـه ولد بهيج أتنبأ له بمستقبل عظيم ، قد يضاهي في عظمة جده ونستون .

انني لا أعتقد أنه كان في وسع ونستون تحقيق كل ما انجزه لو لم تكن كليمي بجانبه. واظن أنه يوافقني على رأيي هذا. وعلى كلٍ ، أليس الكلمات الاخيرة من كتابه « حياتي الاولى » تقول :

« وتزوجت وعشت بعدها سعيداً الى الأبد » ؟

ولا شك ان وجود الزوجة المنـاسبة في القيـادة السياسية أمر جوهري وحيوي . وفي هذا لم يخطىء ونستون .

انني أعلق في بيتي صورتين زيتيتين من صور ونستون . وأعد هذا ظفراً لي نوعاً ما ، فهو لا يميل الى إهداء صوره الزيتية الى الاصدقاء برغم كرمه الشديد، وأنا لا ألومه على ذلـك !. فهو يحب صوره ويسرّه ان يجلس في الاستديو ويتحدث عن الذكريات التي تذكره بها هذه الصور . ولديه عدد كبير منهـا . وان الساعات المفرحة التي قضيتها معه في الاستديو ستظل عالقـة في ذاكرتي الى الأبد .

ولم أجد صعوبة في الحصول على الصورة الأولى منه . وكان ذلك بعد انتقالي

إلى بيتي في اسينكتون ميل (Isington Mill) في أواخر سنة ١٩١٨ . ولما كانت جميع ممتلكاتي قد دمّرها القصف الألماني خلال الحرب فقد رجوته أن يزوّدني بصورة زيتيّة لغرفـــة الدراسة . فأعطاني صورة لمنظر قرب مدينة مراكش (في المغرب) لا يبعد كثيراً عن المكان الذي تناولنا فية الطعـــام في العراء ، عندما قضيت معه عيد رأس السنة الميلادية عام ١٩٤٣ ، وأنا في طريقي من مقر الجيش الثامن في ايطاليه إلى انكلتره . أمـــا الصورة الثانية ، فـكان الحصول عليها أصعب من الأولى . وقد دعت الحاجة إليها بعد ترتيب الأشياء في غرفة الدراسة . وفي لحظة ظننتها منـــاسبة طلبتها منه . لكنني أخطأت . فاللحظة التي سألته فيها لم تكن مناسبة . ومع انه لم يرفض طلبي الا انه تجاهله وغيّر الموضوع !.

فاتبعت بعدئذٍ أسلوب « التقرب غير المباشر » وهو « تكتيك » مفيد جداً في المعركة ، ولكنني لم أجرّيه في جارتويل من قبل . فقد استعنت بماري سومز فاخترنا من بـــين صور الاستوديو صورة زيتية جميـــلة تمثل بركة في بلنيم (Blenheim) . وأخذت الصورة إلى غرفته وأثنيت عليها . فسرّ لذلك كثيراً. ثم قلت له ان ماري ترى ان هـذه الصورة تناسب غرفة دراستي تماماً . وكل ما تحتاج إليه هو توقيعه . وعندها أدرك ونستون انه فقد المعركة فأرسل في طلب المواد اللازمة للرسم الزيتي ووقّع على الصورة . وعندما أخذتها إلى لندن لوضع إطار لها ، لاحظ البائع انها موقّعة في مكانين – وكان التوقيع الأول بالقـــلم الأحمر على « ارضية » غامقة . فلم يلحظ ونستون ذلك كما لم ألحظه أنا. ولم يسبق لي ان رأيت صورة زيتية وقّعها الفنان مرتين. وربما كانت هذه الصورة فريدة من نوعها – . وأرجو أن تكون كذلك !

والصورتان تمثّلان منظراً مائياً . وهو بارع على ما أعتقد ، في رسم هـــذه المناظر. واني أفضّل من جميع صوره ، صورة تدعى « نهر لوب » (The River Loup) وهي معلّقة في قاعة تيت (Tate Gallery) للرسوم الزيتية . ان حـــادثة هاتين الصورتين اللتين أعطانيهما تبيّن رقة قلب هذا الرجل العظيم .

وأخيراً ، يجب أن نتركه – انه لا يرسم اليوم كثيراً كما كان يفعل في الماضي . لقدأصبح مسناً، ويتعب سريعاً. ولكن في وسعنا جميعاً أن نفرح لأنه لا زال يعيش سعيداً بين ظهرانينا ، متمتعاً بالعز والدعـــة في أواخر أيامه !.
والآن دعنا نتقدم إلى الأمـام ، فنلقي نظرة على شريكه في زمن الحرب – الان بروك .

الان بروك

سبق ان قلت انني عرفت الان بروك ، قبل ستة وثلاثين عاماً . وهو ليس بالشخص الذي يسهل معرفته، ويحسبه بعض الناس جاف الطبع بارده ، وقاسياً نوعاً ما . في حـــين ان هذه ليست الصورة الحقيقية له أبداً . فهو ان صادقك وجدته ذا قلبٍ طيب، ونفس كريمة إلى درجة كبيرة . ولكن يجب أن نعترف انه لا يمنحك صداقته بسرعة .

ان كثيرين من الناس لا يعرفون فيالغالب انه قضى حياته الأولى في فرانسه، وهو يتكلّم اللغة الإفرنسية بطلاقة وكالإفرنسيين تقريباً . وقبل أن ألتقي بــه للمرة الأولى ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٦ ، أصيب بحادث سيارة أدى إلى وفاة زوجته الأولى . وكانت السيارة قد تحطّمت في الحادث تحطيماً تاماً ونقـــل هو وزوجته إلى المستشفى مغمياً عليهما ،فلمااستفاقمن غيبوبته وجد ان زوجته قد فارقت الحياة . وهكذا بقي وحيـــداً مع طفليهما . ان هذا الحادث الذي يكفي لهزّ أعصاب معظم الرجال ، لم يؤثر في الان بروك . فقـد استجمع قواه بشجاعة ، وبعد مدة من الزمن تزوج ثانيةً ، فوجد بذلك السعادة التـامة مرة أخرى ، كما يظهر من خواطره عن أيام الحرب .

وهو عاطفي إلى حدٍ ما . وربما كان ذلك بسبب أصله الافرنسي . ويترك لديك انطباعاً يدل على انه يحـــاول إخفاء مشاعره وكبح جماح نفسه . وربمـا كان هـــذا هو السبب في ان الناس يظنّون انه شديد التحفظ . وهو متحفظ حقاً مع الذين لا يعرفهم .

ولقد عرفته جيداً عندما كنا معلمين في كلية الأركان في كامبرلي (Camberly) سنة ١٩٢٦ . ولا زلت أتذكـر عطلة صيف ذهبنا فيها معاً إلى ايرلنده . وقـد تبرّع أن يأخذني في سيارته الى سترانرير (Stranrear) واجتزنا القنال ليـلاً بالباخرة الى لارن (Larnè) . كان المساء بديعـاً واتكأنا بعد العشاء على حاجز الباخرة وتجاذبنا أطراف الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل . لقـد كشف ذلك الحديث الهادىء حقيقة هذا الرجل ، ومعتقداته وإخلاصه . وكانت تلك لحظة في حياتي لم أنسها أبداً .

وهو جندي قدير جدّاً ، بل أظنّه كان أحسن جندي أنجبته أية دولة خلال الحرب الهتلرية – وقد سبق أن قلت ذلك مراراً . وهو ثاقب الفكر ، يمتـاز بسرعة التفكير ووضوحه . فهو يفكر بسرعة ويتكلم بسرعة أيضاً – وذلك كالرشاشة ! وعندما يكتب إليك بخط يده ، كما اعتاد أن يفعل ذلـك معي ، فإنه يكتب بسرعة عظيمة ، وكثيراً ما تظهر رسالته ان دماغه قـد سبق قلمه بمراحل ، كما تظهر ان املاءه غير دقيق دائماً .

لقد أوضحت في الباب الثاني ان الان بروك يملك جميع الصفات الضروريـة للقائد . وقلت أيضاً انني أشك مع ذلك إن كان سيصبح ذلك القـائد الكبير الماهر في الميدان، كما كان رئيساً لهيئة الأركان العامة الامبراطورية. وذكرت ان ما يحملني على هذا الاعتقاد هو انه لو كان قائداً عاماً في الميدان لما استطاع التقرب إلى الجنود بطريقة مناسبة . ولا أدري هل يتفق الغير معي في هـذا الرأي على العموم ؛ ولكني أعتقد بأني على صواب ، لانني خدمت معه وتحت قيادته . ترى هل من يخالفني في هذا الرأي ؟

وهو سريـع الغضب ، وعندما يثور حقاً ويهاجمك ، فإنه يحمل عليـك حملة شعواء تترك أثرها فيك . ولقد أنـّبني مراراً خـلال الحرب ، وأظن أنني أستحق معظم ذلـك والواقع انني لم أمانع في أن يؤنـّبني – كما اعترف هو بذلك في خواطره اليومية التي دوّنها خلال الحرب .

وأود أن أقول كلمة ، حول الخواطر اليومية هذه . كان الان بروك يدوّن

خواطره اليومية خلال الحرب ، كما كنت أفعل أيضاً . وأعتقد ان أنظمة الجيش تقضي على الضابط جميعاً بأن لا يحتفظوا بمفكرات أو بدفاتر لتـــدوين الخواطر اليومية ، إذ يحتمل أن يقع الضــابط أسيراً فيستولي العدو على دفتر خواطره ، الذي قد يحتوي على كثير من المعلومات العسكرية المهمة . ولم يكن هناك أي خطرٍ في استيلاء العدو على مقري ، ولذلك فقد احتفظت بدفتر لتدوين خواطري اليومية خلال حرب هتلر ، ولم انقطع عن هـــذه العادة بعد الحرب عندما أصبحت رئيساً لهيئة الأركان العامة الامبراطورية ، وكذلك خــلال السنوات العشر التي كنت فيها جندياً دوليـــاً في منظمة الدفاع الغربي . ولهذه الخواطر أهمية كبيرة ، فإني أستفيد منها لتجديد ذاكرتي ، كما فعلت ذلك مثلاً عنـــد كتابة ترجمة حياتي . ولا أحلم بنشر هــذه الخواطر أو حتى السماح لأي شخصٍ كان بالاطلاع عليها ، فقد يسبّب ذلك نشوب حرب أخرى ، لأنها تحتوي على كلامٍ صريح جـــدّاً ! وأظن ان ألان بروك كان يعرف بانني أحتفظ بدفتر للخواطر اليومية كما كنت أعرف بالتأكيد انه يحتفظ بذلك . ولكنه كان يكتب خواطره اليومية في كل ليلة إلى زوجته لكي يخفّف عن نفسه ما يعانيه من ضيق وكرب ولينعم بشيء من الراحة ، من العبء الكبير الذي كان يحمله على عاتقه والانفعالات التي كانت تصيبه . ولهذه الخواطر اليومية أهمية بالغة من الناحية التأريخية فهي تظهر الجهد والضيق اللذين يعانيها أولئك الذين يتحمّلون مسئوليات كبيرة في الحرب . وكان الان بروك يكتب عن هـــذه الأمور إلى زوجته في كل ليلة متخذاً خواطره اليومية واسطة لنقلها إليها . وكان إذا مـــا انتهى من تدوين كراسة صغيرة من هذه الخواطر يبعث بها إلى زوجته مع شخص أمين لتحتفظ بها له . ولا شك انه من الصحيح والمناسب إفساح المجال إلى أكثر عدد ممكن من النـــاس للاطـّلاع على مشاعره كما عبّرت عنها خواطره اليومية ، وإلا فلن يحصل المؤرخون على صورة حقيقية للمواقف ، عندما يريدون تأريـــخ الحرب . ولا بدّ انهم فاعلون ذلك يوماً ما ان لم يكونوا قد بدأوا بذلك الآن، وانني لعلى ثقة بـــأن الان بروك أو « بروكي » (Brookie) كما أدعوه ، أظهر

حكمة كبيرة في الطريقة التي عاملني بها . فأنا أحب أن يخبرني رئيسي عما يريدني أن أفعل ، ثم يتركني وشأني لكي أفعله من غير تدخّل أو إزعاج ، على أن يقدّم لي في الوقت نفسه كل ما يمكن من المساعدات . فإذا ارتكبت أخطاء فإنني استحق اللوم ، وإذا ثبت عدم كفاءتي لعملي فإنني أدرك حق الادراك بإني أستحق العزل من منصبي . وفي لغـة العبيد أفضل استعمال الشكيمة بدلاً من اللجام[1] ، ولا بأس من أن أضرب ضربة قوية إذا تعثّرت . وان ما أكرهه هو ركوبي باللجام دائماً وجعلي تحت سيطرة شديدة .

وبعد أن خدمت مع بروكي منذ بدايـة الحرب حتى نهاية حملة دنكراك وقضيت معه في انكلترة مدة تدريبيـة دامت سنتين ، صار يعرف مقدرتي في القيادة حق المعرفة . وكان في أثناء ذلك كله يستعمل معي الشكيمة بـدلاً من اللجام ،ولكني كنت أتلقى منه بين حين وآخر« علقة »مناسبة — من «علقات» بروكي المشهورات حقاً !.

واني أتذكر حادثة واحدة بصورة خاصة . وقد وقعت في فرانسة في شتاء ١٩٣٩ — ١٩٤٠ ، او خلال فترة الحرب الصوتيـة (The Phoney war) كما يسميها بعض الناس . وكان ذلك قبل ان يكتسح الألمـان أوربا وكانت فرقتي ترابط في منطقة جنوب ليل (Lille) في فرانسه . فبعد ان بقينا هناك بضعة أشهر أخذت اصابات الأمراض الزهريـة تبعث علي القلق . وبرغم الجهود التي بذلناها لمعالجتها كانت أرقـام الإصابات في ازدياد مستمر ، حتى ساء الامر في الاخير الى درجة قررت معهـا اتخاذ تدابير حاسمة . فاصدرت بلاغاً حول الموضوع بُلغ مضمونه الى جميع أقسام الفرقة ، ذكرت فيـه آرائي عن كيفية إيقاف هذا المرض . وقد أحدث هذا الإجراء النتيجـة المطلوبة فتوقف المرض تقريباً في الفرقة كلها . (وهذا الحادث يدون باختصار في الصحيفـة ٦٠ من

---

١ — الشكيمة نوع بسيط وخفيف من أنواع اللجام يستعمل لعدم إيذاء فم الحصان عند الركوب . وهو ملائم للخيل الحسّاسة التي يسهل قيادتها . امـا اللجام الاعتيادي فهو يستعمل للخيل الاعتيادية ، ولغرض السيطرة الشديدة على الحصان عن طريق التأثير في فمه .

مذكراتي . إلا ان هذا الحادث أحدث رد فعل سيء لدى القساوسة في مقر القيادة العامة . فقد اشتكى هؤلاء الى القائد العام غورت من الطرق التي اتبعتها في مقاومة الأمراض الزهرية . فارتأى غورت وجوب تركي الفرقة والعودة الى انكلترة !. إلا أن الان بروك ، الذي كان قائداً لفيلقي ، لم يشأ ان يفقدني لأسباب يعرفها هو . لذلك فانه أقنع غورت ان يسمح له بمعالجة القضية بنفسه . ولم أكن أدري ان العاصفة بدأت تتجمع نتيجة لاصدار بلاغي آنف الذكر . فلما تسلمت رسالة تفيد بأن قائد الفيلق قادم ليراني اضطررت الى البقاء في مقري لحين وصوله ، وظننت ، عن حسن نيّة ، أنه يريد مناقشة معضلة تعبوية عاجلة ، الا أنني كنت مخطئاً في ظني . فعندما وصل استطعت ان أتبيّن من ملامح وجهه وتصرفه الجاف انه ينوي شراً لي . وكنت مصيباً في تقديري ، فقد صبّ علي جام غضبه مدة قاربت العشر دقائق اكتفيت خلالها بالاصغاء اليه . وبعد أن نفذت كلماته هدأ ، بل وابتسم أيضاً . فاستجمعت عندئذ شجاعتي وقلت : إنني أرى أن البلاغ الذي اصدرته كان جيداً وواضحاً الى حد كبير . فزاد ذلك في الطين بلة ، فثار ثائره ثانية وأنّبني مرة أخرى !. ومنذ ذلك الوقت وجدت من الأفضل السكوت في مثل هذه الظروف، وتحمّل كل ما يقوله رئيسي !

والنقطة المهمة في غضب « بروكي » هي انه لا يدوم طويلاً . فهو يثور بسرعة ويهدأ بسرعة أيضاً ، ثم ينتهي كل شيء ويستأنف معك علاقته الودية القديمة .

لقد قلت ان البلاغ الذي أصدرته كان واضحاً جداً ، وقد كان حقاً كذلك. وان موضوع التعابير الواضحة يذكرني بحكاية سمعتها ذات مرة عن دوق ولنغتون المشهور . ولا أدري هل ان هذه الحكاية حقيقية أم لا ؟ . ومع ذلك فها أنذا أذكرها :

« قيل ان رجلا يدعى « لندن » (London) كتب الى دوق ولنغتون يسأله إذا كان في وسعه زيارة ستراتفيلد ساي (Stratfield Saye) ومعاينة

أشجار الزان (Beeches) التي زرعها هناك ، ولا سيما تلك التي زرعت منذ أيام معركة واترلو . وكانت الرسالة مذيلة بتوقيع « أي . أف . لندن » (A. F . London) .ومن المحتمل أنه لم يذكر مقصده بوضوح . وعلى كل حال فقد ظن الدوق أن الرسالة جاءت من أسقف لندن ، ولذا فانه كتب اليه الجواب التالي :

« يقدم دوق ولنغتون تحياته الى أسقف لندن ، ويسره ان يسمح للأسقف بمعاينة سروال ركوبه (Breeches) . ولكن الدوق لم يفهم لماذا يرغب الاسقف بصورة خاصة معاينة سروال الركوب الذي كان يرتديه في معركة واترلوا ، لأن هذا السروال لم يعد بحالة جيدة الآن » .

ولا يروي التأريخ ما حدث عندما تسلّم الأسقف هذا المكتوب !

هذا ولم يكن لبعض (تأنيبات) بروكي ما يبررها ، على ما أرى . ومن ذلك حادثة أتذكرها بصورة خاصة . لقد جاء بيتر فريزر (Peter Fraser) رئيس وزراء نيوزيلنده لزيارتي في مقري خارج مدينة بورتسموث يوم ٢٤ مارس ١٩٤٤ – أي قبيل يوم الانزال بقليل . وبما أن الفرقة النيوزيلندية التي كان يقودها الجنرال فرايبرغ (Fryberg) قد خدمت تحت امرتي في الجيش الثامن في صحراء ليبيا وايطاليا ، فقد قلت لرئيس وزرائهم أنها كانت فرقة ممتازة . فسألني بيتر فريزر بعدئذ عن أفضل طريقة لاستخدام الجنرال فرايبرغ بعد الحرب . فأجبته بلا تردد « هي تعيينه حاكماً عاماً لنيوزيلنده » ونقل فريزر الى بروكي هذا الرأي . فلما التقيت بـ « بروكي » بعدئذ أنبّني تأنيباً شديداً قائلاً إنني أفزعه أحياناً .

فإن يوم الإنزال يقترب ، وبدلاً من ان أوجّه اهتمامي الى الحركات المقبلة ، أبحث في شؤون نيوزيلنده مع رئيس وزرائها !. أليس في وسعي ان لا أتدخل فيما لا يعنيني ؟. وعلى كلٍ فان فرايبرغ قد عيّن بالفعل حاكماً عاماً لنيوزيلنده – وبرهن على أنه كفؤ جداً لهذا المنصب !

وأتذكر حادثة أخرى لها علاقة بالان بروك . وهي حادثة محزنة وقعت

في رأس جسر دانكرك، وكان مسرحها مقر فرقتي (الثالثة) قرب الكثبان الرملية الواقعة في ضواحي لابان (Labanne) في بلجيكا . وكان الموقف العام يومئذٍ سيئاً إلى درجة تقرر معها إخلاء بعض القادة من ذوي الخــبرة الطويلة للاستفادة منهم في إدارة الشؤون الدفاعية العامة لانكلترة في حالة وقوع الغزو الألماني . وقــد أمر الان بروك ان يسلم فيلقه ٣٠ مايس ويتحرك إلى انكلترة . وعندما وصل إلى مقري ليودّعني لاحظت على الفور انه يكافح ليضبط نفسه . لذلك فقد أخذته بعيداً عن المقر ، إلى حيث الكثبان الرملية ، وهناك انهــار وبكى . على ان ذلك لم يكن بسبب موقف قوات الحملة البريطانية الذي كان في الواقع سيئاً إلى درجة تجعــل كل إنسان ينفجر باكياً ، بل لأنه كان مضطراً لأن يتركنا جميعاً في مصيرٍ يبدو سيئاً للغاية . فقد أمر ، وهو الجندي ، أن يتخلّى عن رجاله في لحظة حرجة . وهذا ما كان يحزّ في نفسه . ثم طلب مني أن أتسلّم قيادة الفيلق . فحاولت أن أواسيه على قدر الإمكان قائلاً له : اننا سنعود إلى انكلترة جميعاً بطريقة من الطرق ، فنجتمع ثانية . ولكن ، لا بد لي أن اعترف بأنة لم يكن واضحاً لدي في تلك اللحظة كيف سيتسنّى لنا ذلك . غير ان الموقف اتضح أكثر في وقت متأخر من ذلك اليوم نفسه ، عندما أتيحت الفرصة لدراسة المشكلة في مقر الفيلق .

إن في حياتنا لحظات يكون فيها ضغط الأحداث علينــا عظيماً جداً فنضطر إلى الانهيار . ومن الصحيح في مثل هذه اللحظات أن نستسلم لعواطفنا بدلاً من كبتها في أنفسنا . لكنه عندما ينهار احتياط القلب الانكليزي فاننــا نحب أن نكون وحيدين على العموم – كما كنت أنا عندمــا توفيت زوجتي بين ذراعي في تشرين الأول ١٩٣٧ . وعندما انهار الان بروك وبكى على كتفي ، عرفت بأن ذلك يعني انه يمنحني صداقته كلها – وكان من دواعي سروري انني حصلت عليها بهــذه الطريقة . وسيبقى ذلك المنظر في الكثبان الرملية على الساحل البلجيكي خالداً طيلة حيــاتي . وهكذا أتيح لي أن أرى بروكي على حقيقته للمرة الثانية . وكانت المرة الأولى سنة ١٩٢٦ يوم عبرنا القنال معــاً إلى

ايرلنده بالباخرة وذلك من سترانرير إلى لين .

ولقد سبق ان قلت ، أنه لولا الحرب الهتلرية ، لـكان من المحتمـــل ان لا يرتفع ونستون تشرشل إلى أعلى منصب في الحياة السياسية . ولكن هذا القول لا ينطبق على الان بروك . فإن الصفات العسكرية الممتازه لهذا الرجل ، كانت تؤهـّله إلى الوصول للقمة في وقت السلم كرئيس لهيئة الأركان العامة الامبراطورية – وهو الرئيس الملكي للجيش البريطاني .

ويتّـضح مما كتبته انني أحمل لألان بروك إعجاباً شديداً واحتراماً ومودة– وذلك بصفته جندياً وإنساناً عظيماً جداً . وينطبق هذا القول على ونستون تشرشل أيضاً . وقد شاء القدر أن يعمل هـذان الرجلان جنباً إلى جنب خلال حرب هتلر ، فلنرَ الآن كيف سارت العلاقة بينهما .

تشرشل زائداً الان بروك

عندما يعمل رجلان عظيمان معاً ، وكان الإثنـــان على جانب كبير من قوة السجية وقوة الإرادة ، ويعتقد كل منهما انه على صواب ، ومصمّم على أن لا يدع الآخر يغلبه ، وكلاهما رجـــلا قرار وعمل ويجنحان إلى العاطفة بعض الشيء ، عندما يجتمع رجلان كهذين ويعملان جنبـاً إلى جنب ، فـــلا بدّ من وقوع الاصطدام بينهما ، وإن كان في قلب الاثنين قضية واحدة . وإذا كان هـــذان الرجلان تشرشل والان بروك فلا بدّ من تطاير الشرر .

لنتصوّر اشتراك الدكتور فيرוورد (Verwoerd) ونهـــرو في مهمة عامة واحدة . فهل من المنطق أن نتوقع شركة هادئة بينهما ؟

وفي حالة تشرشل والان بروك لم يكن العجب تطاير الشرر من احتـكاكهما أثناء العمل ، العجب انهما لم يفسخا الشركة . فقد كان في وسع تشرشل ، وهو الرئيس الأعلى في المجـــالين السياسي والعسكري ، أن يعزل الان بروك متى شاء ، كما كان في وسع الان بروك ، أن يتخلـّى عن منصبه في أي وقت كان ، طالباً نقله إلى مكان آخر . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، مما يبرهن على عظمة

كل منهما. ولو عجز أي منهما عن الاستمرار في تحمل أعباء العمل المشترك — وهو أمر لم يكن غريباً — فإن ذلك كان سيؤدي إلى كارثة . وانني أعتقد ان الدور الذي قام به هذان الرجلان ، في سبيل ظفر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، كان أعظم مما قام به أي رجلين آخرين . كان هذا رأيي دائماً ولم تظهر دلائل جديدة منذ أن انتهت الحرب ، تحملني على تغييره . وهما يؤلفان مثالاً ممتازاً للعلاقة بين الجندي ورجل الدولة في الحرب . وكيف يجب أن يعملا معاً مهما كانت النتائج . ولا شك ان ونستون كان معجباً أشد الإعجاب بالان بروك ، كما أخبرني بذلك مراراً خلال الحرب. وهو يحمل مودة كبيرة للذين يعجب بهم، والذين يخدمونه جيداً. وقد أظهر خلال الحرب مودّة صحيحة لبروكي، ولكنني أظن انها فترت نوعاً ما بعد أن كشفت خواطر بروكي اليومية النقاب عما عاناه من جهدٍ في عمله مع تشرشل — ويجب أن لا نلومه ، فهو ليس إلا بشراً !

لقد شاهدت كلاً منهما في حالة غضب حقيقي ولكني لم أشاهدهما غاضبين على أحدهما الآخر . لاني لم أحضر عندما كان الشرر يتطاير . وقد غضب كل منهما عليّ غضباً شديداً أحياناً ، ولكن تشرشل كان يسيطر على غضبه لأني لم أكن مرؤوسه المباشر ، عندما كنت قائداً عاماً في الميدان ، فكان يلاحظ هذه النقطة عندما يكون في مقري. واعتاد أن يعبّر عن غضبه في صمت أليم، تقطعه أحياناً غمغمة خافتة ! . وكنت أعرف موقفي فأظل صامتاً . وكنت أربح في الأخير إذ كنت أوضح له، انه إذا أصرّ على خطة عملٍ معينة فسنخسر المعركة !. وكان يغضب عليّ كثيراً في وايهتول فيحميني بروكي ، وعندئذٍ يلتفت تشرشل نحوه مشيراً لي بقوله :

« ان مونتيك[1] هذا ... الخ .. » وكأنه قد نبذني هو تماماً .

أما في حالة غضب بروكي فقد كان المنظر يختلف . وقد وصفت منظراً كهذا عندما كنت أقود الفرقة الثالثة ، وكان بروكي قائداً لفيلقي . وكان له ملء الحق في أن يؤنّبني بصفته ضابطاً أقدم مني رتبة ، ورئيساً لي في جميع

---

١ — — (Your Monty) — ومونتي هو الاسم المحبب لمونتكمري .

أمور الجيش . وقد أنتبني بالفعل مرات عديدة بشكل حازم . ولكن غضبه لم يكن يدوم طويلاً . ربما لأنه كان يعتقد اني أفيده بعض الشيء ، أو لأننا كنا أصدقاء قديمين أو لأني كنت أحتمل التأنيب ، فلم أنزعج أو أبدِ اعتراضاً . والواقع ان إعجابي به ومودتي له كانا كبيرين إلى درجة كنت أقبل منه معها أي تأنيب ، وإن كنت لا أستحقه . فقد كنت أعرف المهمة الشاقة التي يضطلع بمسئوليتها ، فلم يكن من شأني أن أزيد من متاعبه .

وكان بروكي في عوني دائماً ، كلما كادت أن تحدث لي مشكلة مع رئيس الوزراء . وان الحادث التالي مثال حسن لذلك :

في أوائل مارس ١٩٤٥ كان مقري التعبوي في قرية كليدروب (Geldrop)، قرب آيندهوفن (Eind Hoven) . وقد زارني هناك ونستون يرافقه بروكي كالعادة ، وكان رئيساً لهيئة الأركان العامة الامبراطورية . وكان ونستون يعرف جيداً اني منهمك في وضع الخطط لعبور جحفل الجيش الحادي والعشرين نهر الراين ، في أواخر مارس . وكان بروكي قد نبّهني ان ونستون مصمّم على الحضور وقت العبور إذ قلت له مراراً ان الحرب لا يمكن أن تطول بعد اجتيازنا مانع الراين، واندفاع دباباتنا إلى سهل المانيا الشمالي. وكنت قد أخبرت بروكي بضرورة إبعاد ونستون عن عملية العبور ، لأنها كانت تبدو عملية يصعب ادارتها، وأنا أفضل عدم وجود الزائرين في مقري في مثل هذه الظروف. والظاهر ان بروكي قد أخبر ونستون بانني لا استحسن وجوده عند القيام بحركة العبور للسبب الذي ذكرته ، ولكن ذلك لم يساعد على حل المشكلة . وفي تلك الليلة دعاني ونستون إلى العشاء في قطاره الخاص ، فاستصحبت معي رئيس هيئة أركاني فريدي دي غوينكاند (Freddie De Guingand) . ولم يدر البحث أثناء العشاء عن زيارة رئيس الوزراء لعملية العبور . وقد تحاشيت بداهة إثارة الموضوع ، وعدت بعد العشاء الى مقري لإدارة شؤون الحرب تاركاً دي غوينكاند ورائي ليتحدث الى رئيس الوزراء . وسرعان ما أثار هذا موضوع الزيارة . وبما ان فريدي لم يكن حاذقاً مثلي في تدبير الأمور

تجاه ونستون ، فقد أعلن على الفور ان القائد العام (ويعني أنا) لا يمكن أن يوافق على زيارة كهذه ! فأثار ذلك غضب الرجل العظيم ، فعاد الى لندن في اليوم الثاني وهو يشتعل غضباً . ثم تلقيت رسالة من بروكي يخبرني فيها ان ونستون، مصمّم على المجيء ، وانه يجب أن أكون على حـذر . وكانت الحجة القوية في يدي هي انني لم أقل بنفسي لرئيس الوزراء بأن لا يحضر عند إجراء عمليـة العبور ، بل قال ذلك بروكي ودي غوينـكاند وحدهما – لذلك قررت ان لهذه المشكلة حلاً واحداً الا وهو أن اتجاهل كل ما حدث فأكتب رسالة خاصة أدعو فيها الرجل العظيم للمجيء والبقاء معي ومشاهدة عملية عبور الراين . وهذا مـا فعلته، مرسلاً الكتاب بواسطة رسول خاص إلى رقم ١٠ داوننغستريت مباشرة. وقد سرّ تشرشل طبعاً سروراً بالغاً بهـذه الدعوة ووصل في الوقت المقرر وأنسّنا جميعاً بزيارته،وانني لا أستطيع أن اتصوّر ماذا كان يحدث لو تصرّفت تصرّفاً سيئاً آنذاك ، وقد كانت مشورة بروكي صائبة حقاً – كما كانت دائماً ! . ان إحدى صفات بروكي العظيمة هي العطف . فكان على استعداد دائم لإبداء المساعدة ، وكنت أشعر انني أستطيع الذهـاب اليه متى شئت لأعرض عليه مشاكلي وأستفيد من حكمته ومشورته – بل كان في وسعي أن أفعل ذلك حتى في الحالات التي كان يعـاني هو فيها مشاكله الخاصة : وهناك صفة بارزة فيه ، وهي اخلاصه ووفاؤه . فهو عديم الانانية ومخلص إخلاصاً تاماً ، وعلى جانب عظيم من الوفاء . إن مسألة الإخلاص هذه كطريق تسير فيه السابلة في اتجاهين متعاكسين . وأعني بذلك انك لا تستطيع ان تتوقع الإخلاص من أولئك الذين تحت إمرتك ما لم تكن أنت نفسك مخلصاً لرؤسائك . وعند تطبيق هذا المبدأ في أدنى مستويات الجيش ، فـإن الضبط المطلوب من الجندي يجب أن ينقلب إلى اخلاص لضابطه . وفي حالة الان بروك لم يكن ثمة شك في اخلاصه نحو الطرفين . فلقد كنا نعرف نحن الذين في الجيش اننا نستطيع أن نثق به ثقـة تامة . فليس من طبعه دس الدسائس أو المكر أو القيام بأي عمل دنيء . والحق انني أأتمنه على حياتي .

ولا شك انـــه لم يكن في وسع الان بروك ان يقوم بواجبه كمستشار عسكري أقدم لتشرشل مـــا لم يكن هناك آخرون لإدارة شؤون الجيش الداخلية . فـــكان هو العضو العسكري الأقدم في مجلس الجيش ، وبصفته هذه كان المستشار الملكي لوزير الدولة للشؤون الحربية الذي كان وقتئذٍ السير جيمس كريك (James Grigg) ، وهو أحسن وزير للحربية عرفناه طيـــلة حياتي العسكرية . وكان يعـــاون الان بروك ، ارجي ناي (Archie Nye) وهو ضابط ركن لامع . ان هذين الرجلين رفعـــا عن كاهل الان بروك كل الممكن من تفاصيل أعمال وزارة الحربية وكان بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة ثقة وإخلاص تامين . ولم يحدث بينهم نوع من الدسائس .

ولنقف لحظة عند موضوع الدسائس . لقد كنت في الحرب العالمية الأولى – حرب قيصر ، ضابطاً صغير الرتبة جداً بحيث كنت أجهل مـــا يجري في الدوائر العسكرية ومـــا بين الجنود والسياسيين – لكننا قرأنا ان الطرفين قد انهمكوا في الدسائس . أما في الحرب العالمية الثانية ، حرب هتلر ، فقد كانت توجد ، ولا شك ، دسائس في زمن حكم هوربليشيا وربما بعده ، لكنني كنت أجهلها . أما بعد أن أصبح الان بروك رئيساً لهيئة الأركان العامة الامبراطورية فلم يحدث في الجيش أي نوع من الدسائس ، إذ لم يسمح هو أو كريك بذلك أبداً – كما لم يسمح به تشرشل أيضاً .

وهكذا فإن هذين الرجلين المختلفين في طبعهما اختلافاً كبيراً قد عملا جنباً إلى جنب خلال الحرب كابحين جمـــاح عواطفهما في سبيل نجاح مجهود الحرب للحلفاء .

وإنه من الأفضل كثيراً أن يكون في دست الحكم رجال كهذين يعرفون ما يريدون ، ولديهم المقدرة على البت في الأمور ، بدلاً من الرجال المترددين الذين ينتظرون حلول المشاكل من الآخرين . فهؤلاء كان يسهل الحصول عليهم – إذ كان في الجيش منهم كثيرون ، وما زال هناك كثيرون اليوم . ولا شك انه لم

يكن في وسع كل من تشرشل والان بروك أن يعمل بدون الآخر . وكانا يدركان هذه الحقيقة في قرارة نفسيهما . ولذلك فانهما ثابرا على العمل ، برغم الاختلافات وغيرها ، في سبيل المنفعة الدائمـــة للشعب البريطاني – بل ومنفعة الحضارة الغربية أيضاً .

الباب التاسع

موظف مدني عظيم

السير جيمس كريك

بعد ان بحثنا في عدد من القـــادة العسكريين والوطنين ، وفي العلاقة بين الحقلين العسكري والسياسي ، يجب ان نلقي الآن نظرة على رجـل من رجال الخدمة المدنية – وهو عضو احدى الخدمات التي تؤلف حلقة الوصل بين الجهتين السياسية والتنفيذية في الحكومة . انني أعجب أشد الإعجاب بالخدمة المدنية ، وذلك لانها تجتنب المحاباة في أعمالهـا ، وتقدم خدماتها المخلصة الصادقـة الى الحكومة التي هي في الحكم بغض النظر عن الحزب السياسي الذي تنتمي اليـه . وان هذه الخدمة ، كما أفهمها ، مسؤولة عن إدارة وتوجيه الحكومة تحت إمرة الرؤساء السياسيين . فان وجود خدمة مدنية من الطراز الاول ، أمر حيوي في كل دولة . والخدمة المدنية ، في المملكة المتحدة هي من هـذا النوع بالتأكيد . والرجل الذي اخترته مثلاً للخدمة المدنية هو أعظم من عرفت من رجالهـا –

انه السير جيمس كريك المعروف لدى جميع أصدقائه بـ (بي . جي . كريك) او (بي جي) في الغالب .

ان كتابة هذا الباب لم تكن سهلة أبداً ، لان هذا الرجـل العظيم وزوجته هما من أصدقائي المقربين ،او لأني أشعر نحوهما بود وإعجاب كبيرين . ومن جهة أخرى ، من الصعب ان تحكم على رجل إن لم تعرفه . فهـــا أنذا إذن أبحث في بي جي بحث الواثق من نفسه ، لأنني أعرفـه حق المعرفة – كما سيتضح للقارىء فيما بعد .

لكي يكون المرء إنساناً عظيماً ، إنساناً ذا منزلة كبيرة ، يجب ان يكون ذا سجية ورأي صائب في الامـــور وذكاء لامـــع ومقدرة على رؤيـــة مشاكله برمتها وحقيقتها – وبعبارة أخرى يجب ان يرى الأشياء بغير مبالغة او تأثر بالعاطفة – وفوق كل ذلك يجب ان تكون لديـه المقدرة على القرار ، وأعني بذلك القرار الصحيح طبعاً .

وبي جي يملك هذه الصفات كلها . على أنه من الصعب جـداً أن تصوّر على الورق السجية الحقيقية لرجل ما وتبين أي ضرب من الرجـال هو على العموم ، مع التأكد من صحة ما تكتبه وكونه يربط ما بين المجاز والحقيقة – وكون الصورة المرسومة تنطبق على الواقع انطباقاً تاماً .

ولا شك أنه من السهل كثيراً ان تفعل ذلك في المحادثة ، اذ يتسنى لك عندئذ استجواب الشخص المقابل الا الاستيضاح منه . أما الكتابة فليس لها جواب – لا جواب ، في الأقل، حتى يرد عليك بعضهم في الصحف !. لذلك ففي الكتابة مزيد من الصعوبة . ومع ذلك ، فليس في وسعي إلا ان أحـــاول . مضافاً الى ذلك انني لم استشر بي جي نفسه ، والا فأنا واثق من أنه كان سيعترض على مـا كتبته بشدة !. وقد سهلت مهمتي من جهة واحدة ، وهي أن بي جي نفسه قد كتب قصة حياته في كتابه المسمى (ما بين التحامـــل والتحيّز) والذي نشر سنة ١٩٤٨ . ولا أدري الى أي مدى قرأ الكتاب ولكني أوصي بقراءته كل من لم يقرأه حتى الآن .

وربما لا يعرف الناس عموماً ان والد بي جي كان نجـــاراً يكسب ثلاثـة وعشرين شلناً في الأسبوع . أما أمه فكانت مربية . ومن هذه النشأة المتواضعة دفع أجور دراسته . واستطاع ان يحصل على منحة دراسية في كلية سنت جونس (St . Jones) في كمبرج . وقد أظهر فيها نبوغاً في الرياضيات ، وتخرّج فيها بامتياز، ثم انتقل الى الخدمة المدنية بادءاً حياته العملية موظفاً في وزارة المالية .

ولكن الامور في كمبرج لم تكن سهلة بالنسبة اليه على العموم . إذ وجـــد صعوبة كبيرة في العيش ضمن مورد المنحـــة الدراسية ، فاضطر الى التقشف في سكناه وطعامه . ولم يكن في وسعه ان يشترك في الحيـــاة الرياضية المنظمة للكلية ، او ان يلتحق بنادٍ من الاندية الاجتماعية فيها . كما كان عاجزاً عن أن يقابل الضيافة بالمثل ، ولا بد أن عجزه هذا قـد آلمه كثيراً . وكما كتب هو عن نفسه ، « زاد ذلك في تحفظه الطبيعي الناشىء عن الخجل » ان ذلك يعبّر لنـا باختصار ، ولكن بدقة أن بي جي متحفظ بطبيعته وخجول عندما يكون مع من لا يعرفهم . إلا أنه حالما يكون مع أصدقائه ومعارفه ،فانه ينطلق ويندمج مع الجماعة كأنه أحد أفرادها . وهو يعترف بأنه لم يستفد في كمبرج الفـــائدة التامة ، وذلك من جراء حياة الضيق التي اضطر أن يعيشها .

وربما كان هذا الضيق وعجزه عن القيام بكثير من الامور عاملاً في تكوين الشعور بالنقص فيه . لقد فكرت دومـاً ان الإنسان إذا اضطر الى الكفاح في حياته الاولى وإعالة نفسه ، فان ذلك سيقوّي سجيته وينميّها. وفي حالة بي جي لا شك ان قوة سجيته قد برزت بنتيجة كفاحه في حياته الاولى . فلا يستطيع إلا رجل أوتي من القوة ومتانـة الاخلاق والعزم الصارم ان يمر بجميع هـــذه الشدائد والمحن ثم يخرج منها سالماً . وهذا ما فعله بي جي . وقد لازمه التحفظ الطبيعي والخجل حتى اليـوم . لكنــه في وسعه ان يتغلب عليهما لأنه سريع الاستجابة الى دوافع الصداقه ، وإذا ما وهب صداقتـه الى شخص فتح له عن قلبٍ طيب ونفس كريمة . وأظهر له اخلاصاً شديداً . وهو من جهـة أخرى حسّاس جداً ، وقد اعتاد ان ينسحب الى قوقعته عندما يبـدو من المقابل اول

علامة تدل على الكبرياء والعظمة الفارغة .

ان لنا أخطاءنا جميعاً ، وقد نسبت الى نفسي في مذكراتي ، كثيراً من الصفات الرديئة التي لا نخلو منها نحن البشر ! ولو انني اضطررت الى تشخيص نقطة ضعف في بي جي لقلت أنه « عدم التسامح » . فهو إما ان يحبك ، او يكرهك ، وانت في نظره أما أبيض أو اسود ، فلا يمكن ان تكون وسطاً بينهما ، ولا يميل نحوك « نصف الميل » . فاذا التقى بأناس لا يضاهونه في سرعة التفكير ووضوحه فانه يتعرض الى المشكلات او ربما تعرّض الآخرون لها . ولما كان يمتاز على كل من لقيته في حياتي بصفاء تفكيره وقوته فان الحالات التي قد يتحكم فيها عدم تسامحه عليه كثيرة . وهو لا يمكن ان يغتفر في الناس خطأين . الأول عدم الاخلاص او الغش أياً كان نوعه ، بما في ذلك الدس . والثاني الميل الى الفساد الخلقي على اختلاف أنواعه . فان من يخطىء في هاتين الناحيتين فهو في حكم المنتهي في عرف بي جي ، إذ ليس له أي عذر كان ولا يجوز له التعلّل بضعف الطبيعة البشرية . ولما كانت هاتان الرذيلتان تجتمعان في الغالب ، فان الشخص الذي يرتكبها يعد ميئوساً منه في نظره .

وإذا نظر الى شخص ما بهذه النظرة فانه يعبّر عن عواطفه نحوه بلغة فاضحة يستحيل على الانسان ان يخطىء في فهمها كما أنه لا يمكن طبعها في الغالب !. وقد يضيف البعض الى أخطائه خطأ آخر وهو أنه منتقد أكثر من اللازم ، وكثيراً ما يزلّ لسانه فيوقعه في مشاكل . ربما كان هذا صحيحاً . وسيقول الكثيرون اني أشبهه في هذه الناحية . ولا شك ان كثيرين منا يشبهونه أيضاً . ولكن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أن بي جي مصيب غالباً في انتقاداته للأمور أو الناس . وهو يختلف عن معظم الآخرين في أن لديه الشجاعة للافصاح عن عقيدته والاستعداد للادلاء برأيه . وربما كان هذا هو السبب في عدم نجاحه في السياسة . فهو مخلص أكثر من اللازم ولا يضحي بمبادئه في سبيل المنصب الوزاري او للحصول على أصوات الناس . ومن خصاله أنه كثير القراءة ، ويكرّس وقتاً طويلاً للتفكير الهادىء والتأمل ، بحيث ان كل رأي يبديه

يكون مدروساً دراسة تامة . وهو لا ينتقد عن عبث ، وإذا التمست رأيه في أمر ما فانه يطلب منك وقتاً للتفكير فيه . والاعتدال ميزة في سجيته وربما لا يعرف ذلك إلا القليلون وأنا أحدهم .

وهو بارع في زجر الناس وتأنيبهم . ولا شك ان الزجر هو أسهل كثيراً من ذكر الفضائل – وربما كانت هذه نقطة يجدر بنا ان نتذكرها عند البحث في بي جي وصفاته .

ولقد التقيت به في ربيع سنه ١٩٤٢ . وكان قد تولى وزارة الحربية في نيسان من ذلك العام ، فأقام له الفريق باجيت (Paget) القائد العام لقوات الوطن وليمة غداء في مقرّه في لندن بعد مؤتمر لقادة الجيوش – وكنت أنا أحدهم . وفي تلك الوليمة قُدّمت الى كريك ، إلا أننا لم نتبادل الحديث . لكنني أتذكر أن الجنرال باجيت قال عنه انه ينتظر ان يبرهن على أنه وزير من الطراز الأول في إدارة وزارة الحرب . فلم يثر قوله من اهتمامي إلا القليل . وربما لم يكن انطباعي الأول عن وزيرنا الجديد مرضياً . ولا أظن أنه لاحظني في ذلك الاجتماع ، وان كان قد سمع عني ولا شك ، وربما قيل له انني ضابط عنيد فيجب ان يراقبني !

وبعد اللقاء الاول ذهبت لاقود الجيش الثامن في افريقية . وكانت المناسبة الثانية لالتقائنا عندما زار الشرق الاوسط في أواخر حزيران ١٩٤٣ قبيل غزو صقلية . وكنت وقتئذٍ ذائع الصيت . فكانت شهرتي المفاجئة والتعابير الغريبة المستعملة في قسم من برقياتي الى وزارة الحربية (والتي اعتبرها البعض دكتاتورية نوعاً ما !) كانت قد سببت له شيئاً من الإزعاج – كما قيل لي . وقد حذّرني رئيس هيئة اركاني فريدي غوينكاند الذي كان ماهراً دوماً في توقع المشكلات قبل حدوثها من ان كريك قد ينتقدني ، وقد يحمل عليّ حملة شعواء، ولذلك فانه دعا الوزير الى رحلة معه بالسيارة من القاهرة الى السويس ، حيث كنت افتش فرق الفيلق الثالث عشر ، ليلاقيني هناك – بحجة ان ذلك سيمكنه من أن يحضر عندما سأخاطب ضباط الفرق عن خطة حركة صقلية ومعضلاتها ، وهي

الحركة التي كانت واجبنا المقبل . ولا ادري بالضبط عمـــا دار من حديث بين الاثنين أثناء الرحلة بالسيارة الى السويس – وعلى كل حال كان كريك عندمــا التقينا في حالة طيبة وقد أصغى الى حديثي ، ثم القى ، بنـــاءاً على رجائي ، بضع كلمات على الضباط تركت أثراً حسناً فيهم . وعندما غادر افريقية كان مسروراً بما شاهده في الجيش الثامن – والمفروض أنه كان راضياً عن قائـــده أيضاً !. وأياً كان الأمر ، عندما حدث شيء من النقاش في وايتهول ، في وقت متأخر من السنة نفسها ، بشأن القائد اللائق ، الذي يجب اختياره لقيادة جحفل الجيش الحادي والعشرين عند غزو نورماندي وقيادة الحملة من شمال غربي أوربا ، فانه صوّت لي ، بملء فؤاده .

على أنه حدثت بيننا حادثة جلبة صغيرة قبل ان اصبحنا أصدقاء مخلصين. فقد وصلتُ الى لندن قادماً من إفريقية يوم ٢ كانون الثـــاني ١٩٤٤ ، وسرعان ما اكتشفنا بعد أيام قلائل من وصولي بان السيطرة التي تمارسها وزارة الحربيـة على الجيوش المرابطـة في انكلترة ، والتي كان من واجبي أن أهيأها لغزو نورماندي ، كانت شديدة أكثر من اللازم . فلم يكن في الإمكان إجراء تغييرات صغرى في التنظيم والاساليب التعبوية بدون موافقة وزارة الحربية . وكان الحصول على موافقة هذه الوزارة يستغرق وقتاً غير قصير ، أو انها كانت ترفض ذلك . وقـد عالجت هـــذه المسألة باسلوبي المعهود القوي . فاستدعيت قادة الجيوش الى مؤتمر يوم ١٣ كانون الثاني ، وشرحت لهم آرائي عن أسلوب القتال في المعركة . فظهر بنتيجة المناقشة أنه إذا قاتلت الفرق بالاسلوب الذي اوضحته كان من الضروري إحداث تغيرات صغرى في تنظيمها .

وقد وافقت على هذه التغييرات وأمرت باحداثهـا فوراً . وكان من بين الحاضرين في المؤتمر ضباط يمثلون وزارة الحربية ، فسرعان ما أخبروا رؤساءهم بما فعلته ، وسرّني أنهم فعلوا ذلـــك !. وهبّت على أثر ذلك عاصفة كبيرة وأخبرني رئيس هيئة الاركان الامبراطورية (بروك) ان الوزير استنكر بقوة تجاهلي الواضح لسلطة وزارة الحربية . وقـــد اقترح على كريك ان يدعوني الى

الغداء – ففعل كريك ذلك وتبادلنا حديثاً طيباً . وكانت تلك فرصة سانحة أوضحت له فيها كم كانت الأمور التي يقتضي انجازها كثيرة ، وكم كان الوقت المتيسر لانجازها ضيقاً . ورجوته ان يعتمد على حكمتي في ضرورة ما فعلته للحركات العسكرية المقبلة . وحين كنا عائدين الى وزارة الحربية بعد ان تناولنا الغداء في ناديه ، أتذكر أنني قلت له – إنني إذا تجاوزت الحدود أو أسأت بأي شكل من الأشكال ، فاني أفضل كثيراً ان يرسل في طلبي ويؤنبني بدلاً من انتقادي بطريقة خفيّة . فلقد عهد لي بواجب جبّار ، ولا يمكنني القيام به بدون اسناد تام من وزارة الحربية . ورجوته ان يقدم لي هذا الإسناد . وقد حصلت عليه فعلاً والحق يقال . وبعد ذلك الحديث صار بي جي يؤيدني تأييداً تاماً ، وكان ذلك بداية صداقة دامت حتى اليوم .

وهكذا بي جي . كريك . فهو يمكن ان يكون شديد الانتقاد ، لكنه لديه الشيء الكثير من المنطق والذوق السليم . وهو قادر على أن يدرك بسرعة كبيرة إن كان أي مشروعاً سليماً أم لا ؟ . وحالما يقتنع فهو يسندك الإسناد التام . وقد ينتابه الغضب طبعاً ، فيقول لك بلهجة حازمة وبلغته الوضّاءة الخاصة رأيه فيك بالضبط – وهو على العموم لا يخطىء في ذلك خطأً كبيراً !

وعندما أصبح بي جي وزيراً للحربية اضطر لأن يترك الخدمة المدنية فاصبح سياسياً . ولا أظن أنه استمتع بالسياسة إذ وجدها تجارة شاقة مكروهة . إلا أنه يكفيه فخراً أنه اصبح وزيراً من الوزراء الاساسيين في حكومة جلالته وهو الناشىء من أصلٍ متواضع ... وبرهن على أنه أحسن وزير عرفناه في الجيش طيلة تجربتي الشخصية . وقد زارني عدة مرات في أثناء الحملة في شمال غربي أوربا ، مبتدءاً زياراته في نورماندي ومستمراً على ذلك بين آونة واخرى حتى نهاية الحرب في مارس ١٩٤٥ . وكان يسرّنا أن نراه . وكان يندمج بحماس الصبي في حياة المطعم في مقري التعبوي . متمتعاً بالفكاهة وساحراً ايانا بحديثه البهيج .

وعندما انتهت الحرب وفاز حزب العمال في الانتخابات العامة سنة ١٩٤٥ ،

فقد كريك مقعده في مجلس العموم في معركة انتخابية كان له فيهـا ثلاثة خصوم في دائرة كارديف الشرقية (East Cardif) وبذلك أصبح في صحراء الحيـاة المقفرة ، إذ لم يعد موظفاً في الخدمة المدنية او سياسياً ، كما لم تكن لديه مهنة او وسيله مضمونة للعيش . وفي تلك اللحظة من حياته تنتهي قصته الخـاصة التي ذكرها في كتابه « ما بين التحيز والحكمة » ، ولا يعرف غير قليلين من النـاس ما حدث بعدئذ – ولكني أعرف ذلك ، ومن الحق ان يعرفه الجميع أيضاً .

فقد اشترى بي جي وزوجته بيتـاً خلوياً صغيراً قرب تلفورد (Tilford) في ساري (Surrey) وعاشا هناك وحيدين – وحار هو في كيفية الحصول على مورد للعيش – واصبحت هي طباخة البيت ، وأخـذت تقوم بجميع أشغاله . أما بي جي فصار من واجبه اشعال النار وقطع الاخشاب وتموين خزان المـاء الحـار .

وفي كتابه ، أشار الى سروره حين أجتاز عهد الدراسة بأعلى درجة ودخل معترك الحياة في الخدمة المدنية سنة ١٩١٣ . وقال أيضاً« كنت أتطلع الى حياة موفقةونافعة أضمن فينهايتها راتباً تقاعدياً». ولكنه عندما قبل المنصب الوزاري وصار وزيراً للحربية سنة ١٩٤٢ خسر راتبه التقاعدي في الخدمـة المدنية . وهكذا فبعد أن كان في حالة ماليـة جيدة نسبياً وجد نفسه سنة ١٩٤٥ وهو بغير مورد . وقد لاقى في ذلك الوقت متـاعب كثيرة ، وشعرت أن فريقاً من أصدقائه أهملوه . وهذا هو ما يحدث أحياناً لا سيما عندما يترك رجـل ناجح الخدمة ، إذ يشعر بعض الناس أنه أصبح عديم الفائدة . أما من جانبي فقـد تمسكت بكريـك فهو صديـق صدوق ، ولم أشأ أن أتركه في وقت الشدة والحاجة .

وكنت في المدة التي بين مارس ١٩٤٥ وحزيران ١٩٤٦ قائداً عاماً وحاكماً عسكرياً للمنطقة البريطانية في ألمانية ، وقد اعتدت المجيء الى انكلترة لقضاء الاجازات في بيت اصدقائي في هندهيد (Hind Head) وهم عائلة رينولدس (Reynolds) التي تعهدت بابني ديفيـد (David) بالنيابـة عني أثنـاء

الحرب . فلم أقصّر أبداً عن زيارة آل كريـــك في بيتهم الخلوي الصغير في تيلفورد . وكنت أحب أن ابحث مشاكلي مع بي جي، وان أحصل على مشورته التي كانت أحسن مشورة عرفتها .

وإني أتذكر إحدى هذه الزيارات بصورة خاصة . فقد دعوت فيهـا نفسي الى العشاء متوقعاً أن أتناول طعاماً بسيطاً . ولكن ليدي كريك استطاعت ان تشتري عدداً من الدراج وقد طبختها طبخاً نفيساً . ولم أكن اعلم من قبل انها طباخة ماهرة .واني لا أزال أذكر الاكلة التي تناولتها يومئذ .

وبمناسبة ذكر ليدي كريك او كيرترود (Gertrude) كما أدعوها دائماً ، أرى ان هذه هي اللحظة المناسبة لإدخالها في القصة . لقد التقى بها بي جي أول مرة عندما كان يعمل في جـــداول الرمي ومقاييس الصمامـــات في وولج (Woolwich). وكانوا قد جاءوا به من جبهة سلانيك الى انكلترة لهذا الغرض في نهاية عام ١٩١٧ ، لأنه رياضي ماهر . وكانت كيرترود (أو مس هاوHow) كما كانت تدعي وقتئذٍ) ، تعمل حاسبة في مديرية البالستيقات الخارجيـــة (External Ballistics) التي كان يعمل فيها بي جي أيضاً . وقد نفر منهـــا بي جي أول الامر بسبب مظهرها الذي دلّ على الكفاية المقرونـــة بالنشاط . وفي وسعي أن اتصوّر هذا السبب جيداً فهو يدل على أن صفة « عدم التسامح » بدأت تظهر فيه منذ سن السابعة والعشرين . على أنه أدرك فيما بعد بالتدريج انه كان مخطئاً في رأيه ؛ وتزوجا في تموز ١٩١٩ – وكانت تكبره بضع سنوات .

اني أحمل لـ (كيرترود كريك) اعجاباً بالغـاً – فهي عاقلة وشفيقة وذات رأي صائب . وقد أدركت من دراستي لحياة الرجال العظـام مدى أهمية المرأة الصالحة للرجل العظيم . وينبغي ان يؤلف الزوجـان « فريقاً » واحداً ، وإلا فلا امل في نجاح الرجل ان لم تكن الحالة كذلك . وقـــد كانت كيرترود ولا تزال ، الزوجة المناسبة لـ (بي جي) تمامـاً . وأصبح هو على مر السنين خيالياً محباً للجدال نوعاً ما ، ولكنهـــا تجيد التصرف معه،وتحتفظ بهدوئها التام حتى عندما يغضب عليها – وهو يغضب كلما أبدت رأياً لا يوافق عليه ، وهذا مـــا

يحدث كثيراً . والحق أنهما زوجان مثاليان متعلقان باحدهمـــا الآخر كثيراً . ولا يشعر أي منهما بالسعادة إذا ابتعد الآخر عنه – وهما يفهمان أحدهما الآخر حق الفهم .

وثمة نقطة اخرى جديرة بالذكر ، وهي أن كليهما لا يتحمل المرض . فقــد رأيت كلاً منهما في اوقات عديدة بين يدي الطبيب ، وكانت الحـــالة سيئة في مرة او مرتين . ان حالات كهذه تؤدي الى فقـــدان المعنويات داخل البيت ، وتحل الكآبة فيهما معاً . فيصبحان كئيبين حزينين ، خـــاصة من لم يكن منهما مريضاً .

وكيرترود لا تجيد التمريض عندمـــا يصاب بي جي بالمرض – وهي تعترف بذلك صراحة . أما بي جي فهو كثير اللغط عندمـــا تتمرض كيرترود . وبعد التفكير صرت أميـــل الى الاعتقـــاد ان السبب الحقيقي في ذلـــك هو تعلق احدهما بالآخر تعلقاً شديداً ، وشعور كل منهما باحتمال فقدان الآخر وبقـــائه وحيداً ، وهو شعور فظيع ليس في وسعها التفكير فيه إذ ان كلاً منهما يؤلف جزءاً لا يتجزأ من حياة الآخر .

ولم يبقَ بي جي عاطلاً عن العمل مدة طويلة بعد أن فقد مقعده في البرلمـــان ووظيفته الوزارية سنة ١٩٤٥ . ففكره الوقاد جعـــل كثيراً من الشركات والمنظمات تتنافس في الحصول على خدماته . وهو اليوم مستشار مالي ناجح لعدد من البيوتات التجارية والبنوك . وهو سعيد في حياته الجديدة ، وإذا كان يأسف على شيء ، فهو لأنه مستشار فقط وليس في استطاعتـــه ان يتخذ قراراً . وقد أخبرني بذلك مراراً عديدة ، فأجبته ان شعوري في هذا الصدد يشابه شعوره ان لم يكن اشد . فلقد كانت حياتي كلها كجندي ، اساسها القرار والعمل . امـــا اليوم ، وانا في عشية عمري ، فليس في وسعي ان اتخـــذ قراراً حول شؤوني الخـــاصة !. ويعيش بي جي وكيرترود الآن سعيـــدين في شقة في « البوني » (Albany) . ويمكنك ان تشاهـــد بي جي مساء ايام السبت خـــارج المنزل حـــاملا حقيبة من الخيوط ، يشتري مـــا يحتاج اليه البيت في نهـــاية

الأسبوع . وأنا على يقين من ان لديـــه أصدقاء كثيرين في حوانيت الحي الغربي (Westend) حيث يحصل منهم دائمـــاً على أحسن شرائـح اللحم وأنفس الخضروات .

وكثيراً ما يقيمان معاً في بيتي في هامشاير (Hamshire) . وعندما يكون ابني وعائلته في الخارج ، فانهما يحبان المجيء وقضاء عطلة عيد الميلاد معي . وهمـا ضيفان مثاليان – لا يحتاجان الى التسلية بـــل يفضلان ان يتركا وشأنهما ليظلا هادئين في غرفة الجلوس الخاصة بهما ، وهو الأمر الذي يوافقنا جميعاً لا سيما ونحن لم نعد في دور الشباب . لكنهما يتمتعان بالحديث الطيب . ونحن نتبادل كثيراً من الاحاديث الشيّقة – او على الأقل انني اجدها كذلـك . وإذا استطعت أن تستدرج بي جي الى الكلام عن موضوع يعرفه حق المعرفـة ، فمن الممتع حقاً أن تصغي اليه . وقــد سبق ان قلت أنــه واسع الاطلاع ، وان آراءه عن معظم المواضيع جديرة بأن تسمع .

هذا وسيظل بي جي وزوجته دائماً صديقين من أعظم أصدقائي – واني أجد فيهما الاستقامة التامـــة والاخلاص المطلق ، تلكما الصفتـــان اللتان يندر وجودهمـا . واني لا استطيع ان أتصور ان يبدر منهما أي احتيال او عمـــل مشين . وهما الى جانب ذلك معتدلان .

ورب قائل يقول لي :

« إذا كان بي جي هو ذلك الرجل العظيم والحكيم الذي تدعيه ، وكان ثاقب الفكر الى هذه الدرجة وكثير الحصانـــة والذوق السليم ، فعلامَ إذن لم يرتق الى أعلى المراتب ؟ وجوابي عن ذلك لقد ارتقى حقاً الى المناصب العالية – ويجب ان لا ننسى أيام حياته الاولى وصباه !. فلم تكن لديـه ميزة من مزايا الثروة ، ولم يذهب الى مدرسة غالية الاجور ، وكان عليه ان يعيل نفسه بنفسه ، وان يدفع نفقات دراسته الخاصة بمحض قابليته وبكده . ومن هذه البدايـــة ارتقى الى منصب الرئيس الدستوري للجيش البريطاني ، بل كان أحسن رئيس عرفته في حياتي .

وانا أحب ان أفكر بأني لم أقصّر في حيـــاتي . فقـد ارتقيت الى منصب الرئيس المحترف للجيش البريطاني . ولكن لم الاقِ في حيـــاتي الاولى نفس المشاكل التي لقيها بي جي . وان كنت آسفاً على شيء فهو اننا لم نكن معـــاً في وزارة الحربية في السنوات التي أعقبت الحرب . فلو كنا معاً ، لساعدتني قوتـه الفكرية وحكمته على ان أنجز أكثر مما انجزت – هذا ان كنت قد انجزت حقاً شيئاً يستحق الذكر عندما كنت رئيساً لهيئة الاركان العامـة الامبراطورية من ١٩٤٦ الى ١٩٤٨ .

وأخيراً إذا صادفت رجلاً صغير الجسم وذا وجه ينم عن الحيويـــة والذكاء الحاد ، ماشياً نحو حي السيّ (City) (في لندن) او يتناول الطعام في فندق (الاثينيوم) او يتسوّق الحاجات البيتية بحقيبة من الخيوط صباح أيام السبب في الحي الغربي ، وسألتني من هو هذا الرجـل ؟ سأجيبك إنه « السير جيمس كريك » موظف سابق من موظفي الخدمة المدنية ، وشخصية لامعة ملؤهـــا الحكمة والعقل والمنطق والاعتدال والأدب – وهو الرجل الذي ارتقى بقابلياته وكدّه من بـــداية متواضعة الى المناصب العـــالية ، وذلك بمحض كفـاءته وجهوده .

وسأضيف الى ذلك فأقول باعتزاز « انه هو وزوجته من أعظم أصدقائي .»

الباب العاشر

رئيس من رؤساء الصناعة - نافيلد[1]

ان غرضي في هذا الباب حياة رجال الأعمال الناجحين ، وهو أحد رؤساء الصناعة . رقد اخترت لورد نافيلد لهـذا الغرض لسببين : الأول لانني أعرفه جيداً ، والثاني لأنه بدأ من الحضيض وأسّس عمله بنفسه . فهو لم يتسلّم منظّمة قائمة . وقد تثقّف في مدرسة القرية الابتدائية في كاولي (Cowley) ، وفي سن السادسة عشرة بدأ العمل على حسابه الخاص برأس مال قدره أربع جنيهات .

ان هذا الموضوع سيورّطني في قضية القيادة في الصناعة، وهي مشكلة هائلة، لا يمكن البحث فيها بحثاً كافياً في بضعة أسطر ، في وقت عجزت فيه حتى المجلّدات التي كتبت عنه عن إيجاد حل له . ويبـدو لي انه قبل البحث عن صنعة العمر لصناعي عظيم مثل نافيلد يجب أن لا أتملّص من القضية الرئيسية — بل بالعكس يجب أن أستفيد من حياته لإيضاح المبادىء العـامة للقيادة في الصناعة ، تلك المبادىء التي تكوّنت في فكري في السنوات الأخيرة ، والتي يجب البحث فيها أولاً .

١ - (NAFFIELD) .

انه موضوع شاق بالنسبة لي ، إذ ليست لديّ فيه خبرة عملية . ولكن للقيادة في الصناعة علاقة ، بنفس العامل البشري الذي تعالجة أية قيادة أخرى ، الاّ وهو ادارة الرجال ، وهذا موضوع أعرف عنه بعض الشيء – أو اني أظن ذلك . ولذا فينبغي أن أدلي فيه بدلوي ، مهما تكن المهمة شاقة . وإن ما أذكره هو رأيي الخاص ، وقد كوّنته نتيجة محادثاتي مع عدد من رجال الصناعة الذين أقدّر آراءهم .

يظهر ان الصناعة في أي بلدٍ كان تتأثّر بعوامل « خارجية » ، ليس عليها غير سيطرة قليلة ، إن لم تكن معدومة . وإن أهم العوامل ، هو الموقف الدولي السياسي ، وتأثيره في التجارة العالمية ، ثم سياسة الحكومة الداخلية والخارجية . ومن هذه الناحية بالذات ، ومن بعض النواحي الأخرى ، فإن لكل حكومة دوراً يجب أن تلعبه بخصوص الصناعة ، وهذا الدور ينبغي فهمه والاعتراف به . فمن الواضح ان وجود حكومة قوية ومستقرة ذات سياسة مالية وتجارية معلنة أمر ضروري للصناعة . فإذا ما عرف مديرو المصالح الصناعية ذلك ، أمكنهم وضع الخطط مقدماً بشيء من الثقة – وإلاّ فيتعذّر عليهم ذلك .

لكن ما يهمّني قبل ذلك هي ، العوامل « الداخلية » في الصناعة ، وذلك مما يؤدي بي إلى مشكلة العلاقات البشرية ، ذلك العامل الذي يفوق في أهميته جميع العوامل الأخرى – والذي يجب أن يبحث فيه بشيءٍ من التفصيل . فالمادة الخام لأي عمل هم « الرجال » ، سواء أكان ذلك العمل الجندية أم الصناعة . وإن الفهم الصحيح للطبيعة البشرية أمر جوهري للنجاح سواء أردت أن تربح المعارك ، أو أن تؤسس مصنعاً ناجحاً .

وهنا دعني أشذّ لحظة عن الموضوع ، لأذكر كيف عاملنا الرجال في الجيش في جميع الأوقات وخاصة في وقت الحرب ، في الجيش الثامن وفي جحفل الجيش الحادي والعشرين . لقد جعلت من الجنود شركاء معي في الواجب الذي كلّفنا به ، فوضعت ثقتي بهم ، وفسّرت لهم المشكلة ، وكيف سنحلّها .

وقلت لهم ماذا يجب أن يفعلوا ؟ وكيف ان نجاحهم وفشلهم في أدوارهم، سيؤثر في الخطة الأساسية الكبرى . وأخيراً قلت لهم كيف ينجز العمل ، ومتى ؟ . إن الجنود في الحرب هم الذين ربحوا المعارك بعدئذٍ ، ولم أربحها أنا . وعندما كنا لا نحارب ، كنت أتأكد من تزويدهم بكل النعم الممكنة ، كالطعام الجيد والصحف والبريد من الوطن والحفلات الموسيقية والإجازات . وفي وقت السلم ، زوجات الضباط تزور زوجات الجنود ، وكنا نهتمّ بعوائل هؤلاء في أوقات الشدة . إن كل ما يولّد روح الجماعة ، بين الضابط والجندي وبين القائد وقطعاته ، وروح الجماعة في الجيش شيء عظيم ومدهش – كما أعرف ذلك جيداً. ولكن الأمر في الصناعة هو ليس بالسهولة ، كما في الجيش . ثم ان سلسلة القيادة في الجيش مطلقة إلى درجة كبيرة ، وليست مرنة . فلا يحق للجنود أن يسألوا الأسباب » أو أن يضربوا عن العمل ، إذا كرهوا رئيس العرفاء مثلاً . وقد قرأت في الصحف مؤخراً عن اضراب غير رسمي في احدى المصانع ، لأن ملاحظ العمال استعمل كلمة نابية عند مخاطبة أحد العمال . أما في الجيش فإذا قال رئيس العرفاء لأحد الجنود انه مجنون مرذول ، فلا يحدث إضراب – ولست أريد بهذا الإيحاء إلى رؤساء العرفاء باستعمال ألفاظ كهذه !

والعمال من جهة أخرى ، مستقلون إلى حدٍ ما . وإذا كان جوهر الجيش هو الضبط ، فإن جوهر الدمقراطية هو الحرية . فالجنود يجب أن يطيعوا الأوامر في حين أن العمال يجب إقناعهم . وهنا يظهر الفرق الكبير بين ادارة الجنود والعمال .

ويجب أن ندرك جميعاً ، جنوداً كنا أم رجال صناعة ، أن رجل اليوم جندياً كان أم عاملاً ، هو أكثر معرفة وأحسن ثقافة من ذي قبل – وهو أكثر فضولاً أيضاً. فالثقافة وتقدّم الحضارة وسّعا مقدرته على التفكير والانتقاد. فهو لذلك يحتاج إلى قيادة أفضل من الماضي. وفيما يتعلق بالجنود، إن ما يهم هؤلاء هو أن يثقوا حقاً بأن كل فرد منهم يعامل معاملة عادلة ، وان هناك من يفهم مشاكله وصعوباته ، وانه يجد من يعتني به ، ويحصل على نصيبه العادل من كل شيء

دائماً . وليس من فرق هنا بين الجندي والعامل .

فإذا شعر القائد ان قيادته العليا هي ليست كما ينبغي أن تكون ، فإن ضبط العمال في ساحة العمل ، لا يكون مرضياً في الغـالب . بل سيكون سيئاً إلى درجة كبيرة أحياناً . ولا بدّ من وجود خطأ جسيم في أمرٍ من الأمور عندما يترك جماعة من العمال عملهم بعد إشعار لا يتجاوز بضع ساعات خلافاً لمشورة رؤساء النقـابة ، فيحرمون بذلك الآلاف من رفاقهم عن العمل . وإذا رفض رجل أو رجلان من ذوي الاستقامة الاشتراك في الاضراب، قاطعهم الآخرون فتصبح حيـاتهم تعسة . ويظهر لي ان أعظم مشكلة في الصناعة في عصرنا هذا هو زيادة العمال . وقد استطاعت نقابات العمال في عددٍ من الصناعات أن تتعاون مع مجالس الإدارة في إدخال طرق أوتوماتيكية حديثة الى الصناعة والتوصل إلى اتفاق حول هذه المشكلة. ولكن ذلك لم يكن ممكناً في الصناعات الأخرى . فالصعوبة الرئيسية هي معالجة « فائض العمال » الذي يحدث غالبـاً بعد اختراع أو إدخال المـكائن التي تؤدي إلى الاقتصاد في عدد العمال . ذلك لأن العمال يرفضون العمل بالطرق الحديثة التي تنطوي على إخراج حتى عامـل واحد منهم . وهكذا فالأمر في الصناعة في غاية الصعوبة ، ولا نجابه نحن في الجيش مشكلة كهذه ، والحمد لله !

وقد اتضح لي من الأحاديث التي تبادلتها من وقت لآخر ، مع جماعات من عمال الحوانيت ان كثيراً من الشكوك – والحسد أيضاً – تساور هؤلاء عمـا يجري في مجالس الادارات . ويعتقد الذين اتصلت بهم ان هناك كتماناً أكثر من اللازم ، وإن الإدارة لا تثق بهم الثقة الكافية . وهم يعتقدون ان دورهم يقتصر على العمل لمستخدميهم فحسب ، وان علاقة الطرفين تنتهي عند هذا الحد . على على انهم لا يدركون ان المستخدِم بدوره يعمل لصالح العمال. وان المرء ليتساءل هل ان هذه الحقيقة توضّح للعمال دائماً ، ويجري إقنـاعهم بها بطريقة تلائم منطقهم ؟ . ولقد ساءلت ذات مرة رئيس إدارة إحدى المصانع إن كان قـد خاطب عماله يوماً ما ، وأخبرهم بما يجري في المصنع وجعـل منهم شركاء له في

معركة الإنتاج وفي الكفاح ضد ارتفاع كلفته . فأجابني بالنفي ، وقال إذا فعل ذلك في أوقات العمل فسيخسر المصنع بعض المال ، وإذا قام به خارج أوقات العمل فلا يحضره العمال . فقلت له ان مثل هذه الأحاديث يجب أن تجري خلال ساعات العمل طبعاً . وإذا جرت مرة أو مرتين في الشهر ، ولمدة نصف ساعة فلن يخسر المصنع غير بضع جنيهات ، ولكن ذلك سيعود على الطرفين بفائدة كبيرة ، فهو يولّد حسن الظن والثقة المتبادلة بينهما .

وإني أعتقد ان الطريقة المتبعة في الجيش لإدامة « الاتصالات » بين الجهات العليا والسفلى قد تكون خير طريقة لإقامة العلاقات الطيبة بين الإدارة والعمال. واني أتصوّر ان الأمر يزداد صعوبة كلما اتسعت الشركة . ولكن هذه مشكلة حيوية في الصناعة ، ويجب أن تظهر إدارة الشركات رغبة صادقة في إدامة العلاقات الحسنة مع المستخدمين، مهما كانت هذه الشركات كبيرة. وانه لمن المهم في هذا الصدد بل من الضروري جداً ، أن ينتهز مديرو الشركات كل فرصة مناسبة لزيارة صفوف العمال في جميع أرجاء المصنع فيتسنّى لهؤلاء بذلك أن يشاهدوا رؤساءهم « أثناء العمل » . ويجب أن يقضي المديرون ساعات العمل في الاتصال بأكثر عدد ممكن من العمال على انفراد . إذ لا شيء يكرهه العامل البريطاني أكثر من شعوره المؤلم بأنه يشتغل لرئيس لا يعرفه – ولا يراه أبداً . وهو لا يستسيغ منظر مجلس المديرين الجالسين في برجهم العاجي ، ويتخذون القرارات التي تؤثر في مصلحته ومصلحة زوجته وأطفاله ورفاقه . وهو يريد أن يرى بأم عينيه أولئك الرجال الذين يجاهدون ويحرصون على إيجاد العمل الذي يساهم فيه وينتفع منه ، وعندئذٍ سيعمل مع مستخدميه وليس ضدهم .

لقد كانت الظاهرة المزعجة التي لاحظتها في الصناعة البريطانية طيلة حياتي هي تحوّل إخلاص العمال نحو النقابات وابتعادهم عن المستخدمين (أصحاب العمل) . ولا شك اننا يجب أن نستميل العمال ونجعلهم يشعرون بأن أحسن صديق لهم هو ذلك الذي يستطيع أن يدفع أجوراً جيدة للعمل الجيد . ولكن ها هنا مشكلة لا بدّ منها ، فإن واجب نقابات العمال هو الحصول على أفضل

الأحوال للعمال . وان العامل الفرد يسره كثيراً أن يعهد بهـــذه المهمة إلى النقابة . ومـــا دامت نقابات العمال موجودة فانها ستكافح من أجل شيء ما ، فإن لم تفعل ذلك ، أو لم تنجح فيه أبـــداً ، فسيتوقف العمال عن دفع أجور الاشتراكات لها .

ان تأريخ نقابات العمال يظهر لنا كيف انها قامت بأعمـــال مجيدة في سبيل رفع مستويات العمال . وقد أصبحت هذه جزءاً جوهرياً من الحيـــاة الصناعية . وهي تقوم بواجب المعارضة بطريقة صحيحة . ولكن من واجبها إدامة الضبط ضمن نقاباتها ، والعمل بشجاعة في حالات الفوضى ، لا سيما في حالة الاضرابات غير الرسمية وتجاهل الاتفاقيات الموقعة .

اننا نفتخر لأننا بلد دمقراطي ذو انتخابات حرة ونظـــام حكم دستوري . وفي جميع البلاد الدمقراطية تجري الانتخـــابات بالتصويت السري . ولكن عندما يتخذ العمال قراراً في صناعة من الصناعـــات حول قضية كبرى ، يجري التصويت لها برفع الأيدي وليس بالتصويت السري . واني اعتقد انه لو اتخـــذ القرار بالتصويت السري لقل عـــدد الاضرابات غير الرسميـــة ، ولكان ذلك دمقراطية صناعية حقة .

وهنـــاك نقطة أخرى . أتذكر ان شخصاً ، أظنه سير مـــايلز توماس (Miles Thomas) قال لي ذات مرة : « إن في الصناعة مشكلة أساسية ذات وجهين كانت عسيرة الحل دائماً . وهي ان صاحب العمل من جهة يريد الحصول على أكثر عمل يمكن من عماله بأقل أجور ممكنة ، ليتسنى له ان يكسب من بيع بضائعه في سوق شديدة المنافسة ، والعامل من الجهة الأخرى يريد انجاز أقـــل ما يمكن من العمل لقاء أعلى الاجور ! وقد تكون هذه طريقة بدائية ، نوعـــاً ما ، لعرض المشكلة . وهناك طبعاً كثيراً من الحالات الشاذة النبيلة ، ولكن لما كانت الطبيعة البشرية ، هي كما نعرفها ، فإن ما ذكرناه يمكن ان يكون هـــذا الواقع المفهوم » . والمفروض ان من واجب نقـــابات العمال إدراك هـــذه المعضلة الشائكة ، وعليها ان تعـــادل بين جانبي المشكلة بشكل من الأشكال . ويبدو

إن النجاح لم يحالفها كثيراً من هذه الوجهة في الوقت الحاضر .

واني أتساءل في بعض الاحيان : ألم تتدهور العلاقـــات بين أرباب العمل والعمال في السنوات التي أعقبت حرب هتلر ؟ ان معظـــم الشركات تخصص مبالغ كبيرة الى العلاقات الخارجية العامة . ولكنهـــا لو صرفت قسماً من هذه المبالغ في سبيل تحسين العلاقات الخارجية ، فقد يزداد التجانس في الصناعة بين العمال وأرباب العمل وتقل الاضرابات .

ويمكن ان نفترض ان في الصناعة قـادة رديئين ، او غير أكفاء كما هو الحال في نواحي الحياة الأخرى . غير ان مشكلة اختيار القادة في الصناعة هي ليست من السهولة بمكان . فنحن في الجيش مثلاً ندرّب القادة ونهيؤهم بطريقة الاختيار في سلسلة قيادة واضحة المعالم ، حيث يتسنى بعـــد عدد من السنين التأكد من انتقاء القائد المناسب للواجب المناسب . أما في الصناعة فالحالة تختلف . فالقادة فيها يجب ان يكونوا طبعاً على جانب كبير من الاستقامـــة والاخلاص للواجب كما هو الحـــال في الجيش ، الا انهم يكونون فرديين وذوي شخصيات قوية ومآثر مختلفة . كما يكونون طبعاً من الذين وصلوا الى القمة بالعمل الشاق ، ولكن بطرق مختلفة ووسائل متباينة . فريق فهم بمهارتـه الفنية وآخر بالمامه بالامور المالية ، وثالث لمجرد مقـدرته في قضايا البيع وهكذا . . . وليست ثمة أوصاف عامة يشترك بها هؤلاء . بل يجب ان يكونوا جميعاً من الحريصين على انجـــاز الأعمال وان ينالوا احترام الآخرين بالمثال الذي يقدمونه من أنفسهم ، وهـذه صفة جوهرية في كل قائد . ولكن بأي درجة من الدقة يستطيع الانسان ان يعرّف فرداً كهذا ؟

ان شعوري بخصوص احلال السلام والقناعـــة في الصناعة ، هو ان ذلك لا يخرج حتماً عن دائرة العلاقـات البشرية ، تلك الدائرة التي تتدخـــل فيها السياسة اليوم ، وهذا أمر يدعو الى الاسف . ومهما كان القائد قادراً على الاقناع ، فللعامل في البلاد الدمقراطية الحرة ملء الحق في المجـاهرة برأيه حول الاجور واحوال العمل . ولكنه يتأثر في بعض الأوقات ومع الاسف بالافكار السياسية .

ومهما تضاربت آراء المحافظين والاشتراكيين بخصوص العمال . فلا بد من وجود ثغرة بينهما ما دام هناك « يسار متطرف » . وهذه أصعب مشكلة في بلد تبنى فية الدمقراطية على حرية الكلام .

ارجو ان تكون هذه المقدمة قد مهدت السبيل الى الدخول الى الموضوع الذي نحن بصدده، بحيث صار في وسعنا ان نبحث الآن في الاساليب التي طبقها قائد من قادة الصناعة .

لذلك دعنا نلقي نظرة على نافيلد لنرى هل نستطيع ان سر نجاحه ؟

لورد نافيلد

ولد وليم ريشارد موريس (Wiliam Richard Morris) المدعو الآن فايكونت نافيلد (Viscount Naf field) في تشرين الأول سنة ١٨٧٧ . فهو يكبرني بعشر سنوات . وقد ولد وورستر (Worcester) الا ان عائلته انتقلت الى اوكسفورد عندما كان في الثالثة من عمره ، فعاش هناك منذ ذلك الوقت حتى الآن .

وقد قيل إنه نشأ من العدم، او على الأقل من محيط متواضع غير ان ذلك غير صحيح ، فان أجداده كانوا من ملاكي الاراضي في اوكسفوردشاير (Oxford shire) في القرن الثالث عشر .

ويجب إن نلقي نظرة على أبويه، فان ذلك يزوّدنا بفكرة عن نوع التدريب الذي تلقاه الابن ، الذي كان أكبر إخوته السبعة .

كان ابوه فردريك موريس (Fredrick Morris) يتنقل أكثر من معظم أفراد آل موريس. فذهب الى كندا في سن مبكرة وبعد ان عاد منها ، اشتغل في بيع الاقمشة والمنسوجات في وورستر . واخيراً رجع الى مهنة الزراعة التي امتهنتها العائلة قرب اوكسفورد . ويبدو انه كان رجلا ذا خلق متين فربى أفراد عائلته تربية حكيمة . وفي سنة ١٨٩٣ اصيب بداء الربو الشديد فاضطر الى ترك العمل الفعّال .

وكان الصبي وليم آنذاك في نحو السادسة عشرة من عمره، فشعر بأنه يجب أن يترك المدرسة ويحصل على عمل حالاً، بل كان عليه ان يكون المعيل الرئيسي للعائلة كلها. لذلك فانه حصل على عمل في دكان في اوكسفورد حيث تعلم مهنة الدراجات. لكنه لم يبقَ هناك غير أشهر قليلة لأنه كان يريد دائماً ان يكوّن لنفسه عملا مستقلاً. وبالنظر لثقته الشديدة بنفسه فقد فتح معملاً سنة ١٨٩٣ برأس مالٍ قدره أربعة جنيهات، واستطاع ان يكوّن لنفسه ولعمله شهرة واسعة الى درجة ان عدداً غير قليل من الناس تركوا المعامل التي اعتادوا ان يراجعوها واقبلوا على معمله الجديد – وكان هذا المعمل بناءً من طابوق خلف دار أبيه في كاولي. وقد ساعده أبوه بعدئذ عندما تحسنت صحته، وذلك في إدارة حسابات معمل الدراجات الى ان توفي سنة ١٩١٦.

أما امه فلا بد وانها كانت امرأة ممتازة، إذ كرّست احسن سنوات حياتها الى أسرتها. وقد قيل ان للرجال الناجحين في الغالب أُماً مسيطرة عليهم. ولكن أمه (واسمها دبليو آر موريس) لم تكن من هذا النوع. ولا شك أنها شجعته في عمله، ولكنها لم تحاول التدخل في شؤونه. وقد أحبها حباً جماً وكانت هي التي طبعت سجيته بطابع البساطة التي لازمته طيلة حياته. وماتت سنة ١٩٣٤.

وادرك نافيلد، كما سندعوه الآن، ان تصليح الدراجات وبيع ملحقاتها لن ينفعاه كثيراً. فشرع لذلك في صنع مكائنه بنفسه. وسرعان ما بدأت الطلبات لشراء دراجاته تنهال عليه. وكان ذلك يتطلب منه عملاً شاقاً لساعات طوال، وكان على استعداد للعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، بل وطوال الليل أحياناً. وقد اتسعت اعماله وشهرته فقرّر بعدئذ ان يكون صانعاً للدراجات وبائعاً لها. ولكن ذلك لم يعد يرضي طموحه، فاتجهت افكاره نحو الدراجات البخارية. وفي سنة ١٩٠٢ صمم وبنى محركاً ذا مكبسٍ واحد ركبه في هيكل من هياكل دراجاته. وكان قد قطع وقتئذ شوطاً بعيداً في صناعته.

ويروى عن نافيلد انه كان يرغب في دراسة الطب ليصبح جراحاً ، الا أنه لم يتمكن من تحقيق رغبته هـذه ، لأن مرض أبيه اضطره الى ترك المدرسة ، كما رأينا ، والحصول على عمل لإعـالة عائلته ، وهو لا يزال في سن السادسة عشرة من عمره . وقد كان ماهراً في استعمال يديه ، فصار يستفيد منهما لمساعدة دماغه ، وسرعان ما أصبح «ميكانيكياً» ماهراً . ومهارته هذه في استعمال يديه جعلتني افكر أنه لو درس الطب لكان من المحتمل ان يصبح جراحاً شهيراً . غير أنني عندما ذكرت له ذلك في حديثي ذات يوم قـال لي انه لا صحة للاشاعات التي دارت حول رغبته في ان يكون جراحاً ، فهو لم يفكر في ذلـك تفكيراً جدياً أبداً . وعلى كل حال لم يكن في وسعه ان يمتهن الطب ، لأن ذلك كان يقضي باستمراره في الدراسة مـدة طويلة في حين انه اضطر الى ترك المدرسة مبكراً ليعيل عائلته .

ومهما يكن الامر فانـه تبرع بسخاء كبير الى الكليـة الطبية في جامعة اوكسفورد ، والى المستشفيات بوجه عام كمستشفى سنت دانستان (St . Duns- tan's) والمؤسسات الطبيـة الاخرى التي هي كثيرة الى درجة يتعذر معهـا عدّها . واظن ان مجموع المبـالغ التي تبرع بها لتخفيف الآلام والاوجـاع التي يعاني منها أبناء شعبنا تزيد على ما تبرع به أي شخص آخر على انفراد .

وكان سخياً في تبرعاته الى القوات المسلحة . إذ بلغ مجموع ما وهبتها مؤسسة نافيلد تراست (Naf field Trust) الى قوات التاج البريطاني أكثر من ثمانيـة ملايين جنيه . ومنـذ سنة ١٩٣٩ استلمت القوات المسلحة الثلاث وارداً يقرب من مليونين ونصف المليون من الجنيهات . ويقدّر المجموع العـام لتبرعاته طيلة حياته بأربعين مليوناً من الجنيهات .

ولست انوي هنا ان أترسّم للقارىء كيفية تطور مؤسسة سيارات موريس من بدايتها الصغيرة التي رأيناها في معمل الدراجات في اوكسفورد الى شركـة السيارات البريطانيـة الجبـارة التي نعرفهـا اليـوم ـ والتي جعلت لورد نافيلد من أغنى أغنياء انكلترة ، اذ يمكن الاطلاع على ذلك كله في كتب اخرى .

فيجب ان ننتقل الآن لنلقي نظرة فاحصة على الرجل نفسه . ولكن قبل ان نفعل ذلك ينبغي ان نذكر شيئاً عن زواجه الذي عقد في ١٩٠٤ . فقد أقام هو وزوجته في بيتهما الاول ، وهي دار صغيرة في أوكسفورد غير بعيدة عن البناية التي فيها كان عمله ، والتي كانت تحمل اسم العنوان التالي:

دبليو . آر . موريس

صانع الدراجات العملية ومصلحها

٤٨ هاي ستريت – اوكسفورد

انني لم أتعرف بالليدي نافيلد . ولكن رأيت تصويراً لها ، يظهر وجهاً في غاية الجمال . وكان الاثنان رفيقين صميمين طيلة حياتهما الزوجية . وقد توفيت هي في ربيع ١٩٥٩ ، فغدا وحيداً تمام الوحدة لا سيما وهو خجول ومتحفظ نوعاً ما ، وكان يميل الى الوحدة من قبل . وربما كان السبب في ذلك هو لانه كرّس روحه كلها ونشاطه باجمعه الى دنيا العمل اليومي ، ولم يكن يميل الى أية هواية عدا تلك التي لها علاقة بمهنة الميكانيك .

التقيت بـ « نافيلد » سنة ١٩٤٤ ، لأول مرة وذلك قبل حملة نورماندي . وكنت قبل ذلك قد تركت الجيش الثامن وعدت الى انكلترة وذلك لأتولى قيادة جحفل الجيش الحادي والعشرين وإعداد القوات البرية الحليفة – البريطانية والامريكية لحركة عبور القنال تحت القيادة العليا للجنرال آيزنهاور . وقمت وقتئذ بزيارة القطعات العسكرية ، وعدد من المصانع التي كانت تنتج لنا التجهيزات العسكرية ، ومن بينها مصانع مؤسسة نافيلد .

واني لن انسى لقائي الاول معه . وكان قد تبرع بتصليح عربات القيادة التي استعملتها في الحرب ، في احدى مصانعه في برمنغهام لكي استفيد منها في غزو نورماندي . والحق انها كانت تحتاج الى تصليح ، فقد تضعضعت في مسيرها الطويل بين العلمين ولندن عن طريق تونس وصقلية والى منتصف ايطالية !

وزرت واياه المصنع آنف الذكر في برمنغهام وشاهدنا التصليحات الجارية على العربات الحربية . ثم زرنا بعدئذ مصنعاً آخر من مصانعه في كوفنتري

(Coventry) فتباحثنا في اثناء السفر في كيفية إدارة الرجال. وكان قد سمع عن الاساليب التي اتبعتهـا في الجيش . واذكر انني اخبرته عن فلسفتي التي تتلخص في ان المعارك يجب ان تكسب اولاً في قلوب الرجال ، فانك حالمـا تستطيع ان تنال اعتماد وثقة الذين يخدمون او يعملون تحت امرتك في وسعك تحقيق أعظم المنجزات بعدئذ . وكان تعليقه مثيراً للغاية إذ قال : ان هـذه المبادىء نفسها تطبق في الصناعة . وإن لحظة التي سار عليها دائمـاً هي اعداد جماعة من العمال الذين يحبون عملهم ويهتمون به . واظن ان كلماته الاخيرة كانت « إذا اعتنيت برجالك فانهم سيعتنون بك، ستحصل بالنتيجة على عمال قانعين يفتخرون لأنهم يعملون لك .

وبعد دراسة حياته واستقصاء المعلومـات عنه من الذين اشتغلوا معـه ، حاولت التوصل الى العامل الاساسي لنجاحه . لقد كان طبعاً من رجال الاعمال القديرين. وكان ذا رأي صائب في الرجال، ومقدرة جيدة في اختيار المرؤوسين— وهم الرجال الذين ينفذون خططه . ولكن من البديهي ان هنـاك شيئاً أكثر من ذلك — فما هو هذا الشيء يا ترى ؟

اظنه « الشجاعة » . إذ لم تكن لديه ميزة من ناحية العائلة . ومع ان عائلته هي من أصل الفلاحين السادة اصحاب الأراضي ، الا انهـا كانت فقيرة ولم يكن لديها أي مال اضافي . وقد استطاع ان يديم صحته وقواه البدنية في حالة جيدة دائماً ، باعتداله في عاداته وولعه في سباق الدراجات . وكانت لديـه شخصية جذابة جداً — إذ كان سريعاً في أعماله ، وفعالاً وغيوراً . على ان شجاعته هي هي التي ميزته في الحقيقة ، وهي الصفـة الأساسية التي عزّزت معظم صفاته الاخرى ، وفي مقدمتها القرار والعمل ، والولاء الى عماله . ولنـافيلد نوع من الجاذبية الشخصية التي تكفل له ، اذا ما وجه قابلياته ونشاطه وشجاعتـه الى الواجب الذي يضطلع به ، اسناد هيئة مخلصة من المرؤوسين الذين يعرفون انه يعمل لصالحهم .

وسألته ذات يوم . هل مرت في حياته لحظة لن ينساها أبداً ، وقد علمّته

دروساً للمستقبل ؟ . فأجابني ان لحظة كهذه قد مرت به حقـاً ، ثم قصّ عليّ الحكاية التالية :

في سنة ١٩٠٣ كان قد أمضى عشر سنوات في العمل منفرداً ، وقطع شوطاً بعيداً في تأسيس صناعة الدراجـــات البخارية على أسسٍ راسخة . ثم بدأت أفكاره تتجه إلى صناعة السيارات. وقد راجعه آنذاك أحد خريجي أوكسفورد ومن كلية كرايست جرج (Christ Church) فيها . كان هذا قد ورث مائة ألف جنيه وسيارة بخـــارية ، وأراد أن يستخدم ماله في صناعة السيارات . فأقنع نافيلد أن يشاركه في العمل مع رجلٍ ثالث كان يتعاطى البيع والشراء . وتقرّر أن يكون نافيلد مديراً للعمل ، وتألفت شركة من الرجـــال الثلاثة على هذا الأساس . غير انه لم تكن لشريكه ، خريج الجامعة ، فكرة عن الشؤون المالية للعمل ، فصار ينفق المبـــالغ بمقادير لم تكن تبرّرها الضرورة التجارية آنذاك . أما الشريك المختصّ في قضايا المبيعات ، والذي كان في الوقت نفسه مديراً عاماً للشركة ، فانه لم يتمكن من مقاومة حماس زميله الشاب (خريـــج الجامعة) الذي كان قد موّل رأس المال اللازم للشركة . وكان نافيـــلد يعمل الساعات الطوال في إنجاز الجانب الهندسي من العمل ، فبدأ يشعر تدريجياً ان الكارثة آتية لا ريب فيها . وقد حلّت الكارثة حقاً سنة ١٩٠٤ بعد أن أخفق العمل ، ولمّا يمضِ على تأسيس الشركة غير سنة واحدة . ودفعت الشركة جميع الديون من بيع موجوداتها ، فلم يبقَ لديها بعدئذٍ شيء يذكر . وهكذا فبعـــد عشر سنوات من الكفاح أصبح نافيلد « مفلساً » ، وكان كل ما يملكه هو عدة الأدوات ، وكانت شجاعته خير معين له في تلك الظروف ، فبدأ العمل ثانيـــة من العدم ؛ ولكنه قرّر في هذه المرة ، قراراً حازماً ، على ان لا يشرك معه أحداً في السيطرة على أشغاله ، وأن يحتفظ بالسيطرة العامة عليها في يديه .

وفي أثناء هـــذا الحديث نفسه قال لي عن لحظـــة من اللحظات الصعبة في حياته ، وقد تذكرت أنا تلك اللحظة أيضاً ، إذ انها تركت أثرها في نفسي في حينه . وكان ذلك سنة ١٩٢٠ ، وكنت تلميـــذاً في كلية الأركان في كمبرلي

(Camberly) وبحاجة إلى سيارة . وكان قد حدث كساد في صناعة السيارات ، أظنه من جرّاء الارتفاع العام الذي طرأ على الأسعار في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وخاصة الأسعار الغالية التي كانت تباع بها السيارات . فأدّى تراكم السيارات غير المباعة في معامل موريس إلى صعوبة إيجاد الفسحة اللازمة لجمع السيارات الجديدة الآتية من خط التركيب (Assembly Line) . فقرّر نافيلد حالاً على تخفيض أسعار سياراته تخفيضاً كبيراً ، رغم الاحتجاجات التي أبداها مدير مبيعاته ، ورد الفعل الشديد في قسم من الشركات الأخرى العاملة في صناعة السيارات ، والتي كانت تحسب نافيلد رجلاً حديث النعمة لا يدري ما هو فاعل .

وقد باع خلال ثلاثة أسابيع جميع سياراته الجاهزة – واشتريت أنا احداها . ولا شك انه خسر مبالغ لا يستهان بها بهذه العملية ، لكنه استرجع خسارته كلها خلال ثلاثة أشهر ، واندفعت الشركة ثانية قدماً في طريق النجاح .

واني لا أظن انه في الامكان أن نعدّ نافيلد قائداً من أعظم قادة زمانه . لأنه لا يملك المؤهلات البارزة لهذا الدور . فهو خجول ولا يحب لقاء الناس ، وكان يشعر دوماً بسعادة أكبر عندما يمسك بمفتاح الصامولات أو بزوج من الزرديات (Pliers) . وكان ميكانيكياً بالفطرة ، وقد احتفظ بمقدرته على أن يوفّق بين عمل يديه وعينيه ، إلى أن بلغ من الكبر عتياً . لكنه رغم خجله كله كان واثقا من نفسه دائماً ، ولم تتضعضع أبداً ثقته في نفسه وفي قابلياته الخاصة وفي حكمته . ورب قائل يقول إنه كان محظوظاً ، لأن الزمن كان ملائماً له في حين أن غيره لم يستفد من الزمن الاستفادة نفسها . لا شك ان نافيلد استغلّ كل فرصة واتته ، لكنه كان يخلق الفرص لنفسه أيضاً . فهو لم يضطرب من جراء سوء الحظ ، بل كان ذلك حافزاً له على الإقدام على مخاطر قد تفزع من كان دونه شجاعة . وشجاعته هذه هي التي قدّمته إلى الأمام دائماً . وكانت لديه بالإضافة إليها الإقدام على إنجاز الأعمال .

على انه من المشكوك فيه انه كان سينجح ، برغم صفاته الممتازة هذه ، ذلك النجاح الذي حققه لو لم يكن دؤوباً على العمل . فقد كان على استعداد للعمل من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل ، بل حتى طوال الليل إذا دعت الحاجة إلى ذلك !

وفي محادثاتي مع نافيلد بحثنا عدة مواضيع ، تناولت أغلبها حياته الخاصة والعلاقات الشخصية في الصناعة بين رب العمل والعامل . وقد سألته ذات مرة : لماذا تستغرق الاضرابات في صناعة السيارات في يومنا هذا ، وقتاً أطول مما تستغرقه في أية صناعة كبيرة الحجم مثلها ؟ . فأجابني : ان المشكلة الرئيسية هي ان الشركات في صناعة السيارات لا تسيطر على انتاج الأجزاء الداخلية التي تحتاج إليها السيارة . فهذه الأجزاء تصنع في معامل منتشرة في كافة أنحاء انكلترة ، ولن تجد الأجزاء الداخلية لمنتوجات صناعة من الصناعات الأخرى موزعة على هذا العدد الكبير من الشركات المستقلة . لذلك فإن إضراب جماعة من العمال الماهرين في معمل يصنع جزءاً هاماً من أجزاء السيارة ، قد يعطل انتاج صناعة السيارات البريطانية كلها ، ويسبب عطل عدة آلاف من العمال عن العمل .

أما فيما يتعلق بالاضرابات الصناعية عامة ، والاضرابات الرسمية وغير الرسمية ، فهو يرى أن العمال اليوم لا يشتغلون كما كانوا في الماضي ، عندما كان هو عاملاً يشتغل في دكانه . وهو يستنكر قلة الانضباط بين العمال وفقدانهم روح الواجب والمسئولية والإخلاص نحو رؤسائهم . وهو من المنادين بقوة بوجوب تطبيق أسلوب التصويت السري ، عند قرار العمال الإضراب وعدمه في اجتماعاتهم العامة . ويرى ان مثل هذا القرار ينبغي أن لا يتخذ برفع الأيدي . وقد وجدت الكل يؤيدونه في هذه النقطة .

وسألت نافيلد مرة : هل يتمنى أن تعاد حياته ثانية ، وإذا كان ذلك ممكناً فهل سيعمل بطريقة مختلفة ؟ . فأجابني ان حياته الأولى كانت كفاحاً مستمراً ، وكان هذا الكفاح شديداً أحياناً . ولا يتمنى أن يعاني ذلك مرة

أخرى . ففي الخامسة عشرة من عمره اضطر الى أن يعيل أباه وأمه وإخوته . وبعد عشر سنوات من الكفاح، عندما كان قد بدأ يشق طريقه في عمله بنفسه، خذله شركاؤه فأصبح « مفلساً » ، واضطر الى أن يبدأ العمل من جديد . لا ، ليس في وسعه أن يجابه ذلك مرة أخرى ! ويجب أن لا يغرب عن البال انه عندما قال لي ذلك كان في الثالثة والثمانين من عمره ، وهي سن يستحق فيها المرء الراحة بحق ، لكن نافيلد لا يعرف الراحة ! فهو يذهب الى مكتبه في كاولي صباح كل يوم . فيعمل هناك الى ما بعد الظهر . فهو الرئيس الفخري لمؤسسة نافيلد ، وان الأوقاف الخيرية العديدة التي أسّسها تأخذ من وقته الشيء الكثير . وهو يديم الاتصال الوثيق أيضاً مع منظمة السيارات التي كوّنها . وبنتيجة إلحاحي الكثير اعترف في الأخير انه لو أعيدت حياته ثانيةً فسوف لن يجهد نفسه في العمل كما فعل في حياته الأولى . غير انني أشك في ذلك ، فهو يحب العمل ، بل لقد قال لي انه ليس من شيء أصعب في الحياة من انك لا تدري ما تفعل حين ينتهي العمل . فإن لم تحل هذه المشكلة فالفراغ يسبب الملل للانسان .

وقد سبق ان قلت ان نافيلد اليوم رجل شديد الوحدة وقد قلتها ، لأنه هو الذي أخبرني بذلك . لكنني قلت أيضاً انه خجول ومتحفظ . ومع انني أظن انه يبدو كذلك الى كثير من الناس، فإن جانباً من جوانب شخصيّته تولّد في الإنسان انطباعاً يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً . واني أذكر إحدى زياراتي له في كاولي في مارس سنة ١٩٦٠ . ولم أكن قد رأيته منذ وفاة زوجته قبل ذلك بعشرة شهور . فرحّب بي في مكتبه بحماس وتحدثنا طويلاً . بل وقد فتحت معه موضوعاً كان من الصعب الحصول على كلمة واحدة منه عنه ! وكان ودوداً فأظهر سروره لرؤيتي . وقد استدرجته إلى الكلام ،واستغللت من روح الدعابة فيه . ومكتبه الآن هو في المكان الذي كانت فيه مدرسته القديمة ، وهي مدرسة القرية في كاولي . وقد أخبرني ان أباه كان يعطيه بنسين [1] اثنين في يوم

---

١ – البنس (Pence) في العملة الانكليزية يساوي أربعة فلوس .

الإثنين من كل أسبوع لكي يسلمها إلى مدير المدرسة – وكانت هذه هي أجور الدراسة لأسبوع واحد وقتئذ .

وتناولنا الغداء وحدنا في غرفة الطعام الخاصة به في بناية المكتب ، وكان عليّ أن أتركه بعدها – فتصوّرته ذاهباً إلى بيته بعدئذ ليقضي الأمسية وحيداً . وفي أثناء حديثي معه قلت له : إن المرء في سن الشيخوخة يهتمّ اهتماماً كبيراً في تقدم ابنه في مهنته المختارة ، وفي أحفاده . فأيّدني في رأيي ، ثم علّق على ذلك آسفاً ، إنه لا أطفال لديه ، وإذا مات ، فسيختفي لقبه وبيته وكل شيء آخر . إن الصورة التي أريد تكوينها عن نافيلد هي أنه رجل طيب القلب مسالم وكريم – وهو يفرح للقاء أصدقائه والتحدث معهم عن الماضي ولكن بهدوء وفي الوقت الذي يناسبه ، وصديقاً بعد آخر . وربما يبدو خجولاً ومتحفظاً ولكنه إذا ما اعتقد انك راغب حقاً في رؤيته والتحدث معه والوقوف على آرائه عن بعض الأمور ، فإنه سرعان ما يفتح لك قلبه . واني أحمل له كثيراً من المودة ، وأعجب به إعجاباً شديداً .

لقد كان « رئيس فريق » مجيد ورجلاً ذا قرار وعمل . وهو يملك كل الصفات التي تمكّن الانسان من التأثير والسيطرة على الرجال الآخرين لصالحهم . فمن الواضح إذن ان « الرئاسة » في الصناعة لا تقلّ أهمية عنها في مهن جميع الرجال الذين ندرس حياتهم في هذا الكتاب .

وإن العلاقات الطيبة في الصناعة ، هي ليست في الواقع غير علاقات بشرية وهذا ما أوضحته فيما كتبته . على ان المشكلة الكبرى في الحياة المدنية هي انه من النادر أن تجد مديرين أو رؤساء اختصاصيين في العلاقات البشرية ، أو أن أحدهم قام بدراسة دقيقة لفن القيادة ، في حين أن موضوع القيادة في الجيش يدرسه الضابط منذ اليوم الذي يلتحق فيه بالاكاديمية العسكرية الملكية في ساندهرست – هو يستمر على هذه الدراسة طيلة حياته العسكرية .

ويجب أن لا ننسى ان فكر العامل في بداية هذا القرن ، عندما بدأ نافيلد العمل ، كان يميل لأن يكون « اعتيادياً » . وذلك يعني انه كان راضياً بتنفيذ

التعليمات التي يتلقاها . أما اليوم فالعامل « استقلالي » في تفكيره أكثر من الماضي . وقد أدرك نافيلد هذه الحقيقة حق الإدراك كما رأينا ، فجعل البشر أهم جزء في صناعته . ولم يتخذ خطوة كبرى من غير أن يفكر في تأثيرها على أولئك الذين يهمهم الأمر . ويظهر ان الأمر في الصناعة اليوم لا يشابه ما كان عليه في السابق كل الشبه ، ولا شك ان بعض المبادىء التي عمل بها نافيلد في الماضي قد أهملت إهمالاً واضحاً .

الباب الحادي عشر

قيادة الشبيبة

ألقيت في صيف ١٩٤٨ خطاباً على نقابة الأمهات في لندن ، كان موضوعه « شبيبة بريطانية » : فكتبت إحدى الصحف في تعليقها على خطابي تقول : إن رجلاً في الستين من عمره (وهو عمري وقتئذ) غير مؤهل لأن يتكلم في موضوع الشبيبة ! . لكنني كنت أعتقد وقتئذ إن تجربتي في إدارة الشباب في بريطانيه وجهودي في تحويلهم إلى محاربين أشداء ، حاربوا الجيش الألمـاني المشهور في حينه ،وتغلبوا عليه في المعـارك التي دارت رحاها في نورماندي حتى البلطيق ، وتجاربي بعدئذ في اختبار الشباب في خضم الخدمة العسكرية الإجبارية ، كل ذلك مما يؤهلني لأن أبدي رأيي في أبناء أمتنا . وهذا ما فعلته في خطابي وقلت انني غير راض عنهم .

وها قد مرت أربع عشرة سنة تقريباً على إلقائي ذلك الخطاب . فلنلق الآن نظرة أخرى على أبناء بريطانيه ، ولنرَ موقفهم عام ١٩٦١ . ويجب أن « نفهم » نوع المادة البشرية المتيسرة لدينـا قبل أن نتمكن من القرار على نوع القيادة والتدريب اللذين تحتاج إليهما .

لقد كان من حسن حظي ، في السنوات التي أعقبت عـام ١٩٤٥ ، والتي

دعيت بالسلم ، أن أتصل بالشباب في جميـع دول الكتلة الغربية ، إذ شاهدتهم في أثناء الخدمة الإجبارية ، أو في التدريب العسكري . مضافاً إلى ذلك ، كان من عادتي ، عند زيارة بلدٍ ما في منظمة الدفاع الغربي ، أن أذهب إلى إحـدى مدارس الأولاد لدراسة خواص هؤلاء حسب أعمـارهم . وهكذا اكتسبت معلومات عملية جيـدة عن شبيبة العالم الحر – من النروج شمالاً حتى إيطاليه جنوباً ، وذلك عبر أوربا ، ومن تركيه شرقـاً حتى كندا والولايات المتحدة الامريكية غرباً عبر المحيط الأطلسي . ومن ضمن هؤلاء الأولاد طبعـاً شبيبة بريطانية وشمال ايرلنده . وأنا اليـوم رئيس فخري لمدرستين من المدارس العامة في بريطانية .

إنني لا أجد أي نقص في أولاد أمتنا من حيث المـادة أو النوع . فهم من النوع الممتاز الذي يمكن مقارنته بشبيبة أي أمة أخرى . لكنني أجـد خطأ لا يستهان به في كيفية إدارتنا لهذا النـوع الطيب من الشباب . وإذا ما اعتبرنا أولاد اليـوم هم دون المستوى المطلوب ، فذلك خطأنا على ما أعتقد . وإن ما سأذكره يقتصر على الأولاد وحدهم ، إذ ليست لدي خـبرة في تربية البنات . لكنه من المحتمل أن تتشابه الدروس في تربية الإثنين من حيث المبـدأ . وإني أعتقد أن أهمية البنات من حيث المشكلة التي نحن بصددها ، لا تقل عن أهميـة الأولاد إن لم تزد عليها .

إن جيلاً بعد جيلٍ من الأولاد يمرّون على الدوام في بيوتنـا ومدارسنا سائرون قدماً نحو الرجولة . كل جيلٍ يتميّز عن غيره ، وخاص بأولئك الذين ينتمون إليه . ولكن كل جيل تتداخل أطرافه في الأجيـال التي تسبقه أو التي تعقبه – وهكذا فإن نهراً في الحياة الشابة يجري بغير انقطاع . على أن جيـلاً واحداً هو في رأس فكري دائمـاً . ذلك هو جيل الذين خدموا في القوات المسلّحة ، ووهبوا حياتهم في حربين عالميتين . وان النصب التذكارية في مدننا وقصباتنا وفي ساحات القرى البريطانية الخضراء ، تقف شاكرة لما كانه هؤلاء ولما فعلوه .

ان خصائص كل جيل ، والتي سبق أن أشرنا إليها ، نتجت عن تقدّم البشرية على مرّ السنين . فلقـــد كنت مثلاً ولداً في العهـــدين « الفيكتوري » و « الإدواردي [1] » ، وكانت تلك أيام العوائل الكبيرة . فكان لأبويّ تسعة أطفال ، وكنا نؤلف مجتمعاً صغيراً مكتفياً بنفسه ، يعيش مع بعضه البعض . ولم تكن السينمات قد ظهرت بعد . وكنا نزوّد بمصروف جيبٍ قليل . وكانت المعيشة رخيصة ، وكنا نهيّىء وسائل لهونا بأنفسنا ، فـــلم نكن نذهب إلى الخارج لهذا الغرض . وثمة أمر آخر مهم للغـــاية ، وهو ان البنات لم يكن يسمح لهن بالخروج من البيت وحـــدهن والذهاب مع الأولاد إلى المراقص وغيرها .

أما الجيل الذي بعدي ، وهو الذي جاء في أعقاب الحرب العـــالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، فـكانت أحواله تختلف عن أحوالنا اختلافاً كبيراً . فقد ظهرت فيه السينمات . وصارت البنات ، يخرجن وحدهن من البيوت ويذهبن مع الأولاد إلى الأماكن العامة . وأصبحت العوائل أصغر من ذي قبل ، وذلك من جراء الضغط الاقتصادي . وبدأ الأولاد يبحثون عن اللهو خارج البيوت . ثم فكـّر في الجيل الذي بعد هذا ، وهو جيل أولاد اليوم — وانظر مدى الحرية التي يتمتـّعون بها !

انني لواثق من أن كل شيء في تحسـّن ، غير انه ينبغي فهم التطورات التي طرأت على الأولاد على مرّ السنين . فهم نفس الأولاد لحماً ودماً . ولكن ، كما جنود اليوم يحتاجون إلى نوعٍ من القيادة يختلف عن قيادة الجنود الذين اشتركوا في حرب جنوب إفريقية عام ١٩٠٠ مثـــلاً ، كذلك أولاد كل جيلٍ متعاقب يحتاج الى نوع مختلف من الإدارة والمعالجة — وخاصة أولاد اليـــوم ، من سنة ١٩٦٠ فصاعداً .

إننا نجد في كل جيل أولاداً من بيوت طيبة وآخرين من بيوت سيئة . فيهم

---

١ – العهد الفيكتوري « Victorian Era » عن الملكة فيكتوريا ، والعهد الادواردي « Edwardian Era » عن الملك ادوارد السابع .

أولاد الأغنياء ، وفيهم أولاد الطبقة العاملة ، لكن توحّد بينهم جميعاً إنسانية مشتركة . إن الدراسة الصحيحة للجنس البشري ، تتطلب دراسة الإنسان نفسه . فلننظر إذن في تنشئة أولاد بلادنا في العصر الحاضر .

إن ولد اليوم ، **هو رجل المستقبل** . فيجب أن يكون الغرض من تدريبه بناء سجيّته ليتسنّى له ، عندما يحين الوقت المناسب ، أن يؤثر في الآخرين إلى ما فيه الخير . وهناك أمر يجب أن لا نخطىء فيه ، وهو أن أسس السجية ينبغي أن توضع في البيت . بل ان التدريب الأساسي كله يجب أن يبدأ **هناك** . **فهذا التدريب** ، هو الذي يؤثر في الولد ويوجهه ، طيلة حياته ، أما إلى الخير أو إلى الشر . وعلى أسس الخير القويمة التي تقام في البيت سيبني المعلم سجية الولد عندما يأتي إلى المدرسة . فإن لم تكن تلك الأسس قد أقيمت ، فلا يستطيع المعلم أو أي شخص آخر أن يفعل شيئاً في هذا الصدد . واننا نسمع اليوم الكثير عن « آثام الأحداث » ، التي لا شك ان السبب الرئيسي لأغلبها هو « إهمال الآباء » .

إن تجربتي الشخصية تحملني على الاعتقاد بأن الأسس لبناء السجية يجب أن تغرس في الولد عندما يصبح في السادسة من عمره – وأهم هذه هو التمييز بين الخطأ والصحيح والتحلّي بالصدق والمروءة . ان ذلك ضروري في عالمنا الذي نعيش فيه اليوم . ويظل الولد ينمو حتى يأتي الوقت الذي يفوق فيه عائلته في نموّه – أو هكذا يخيّل له ، وهو نفس الشيء من حيث النتيجة . فسيبلغ الولد حينذاك الرابعة عشرة من عمره ، وان أسس السجيّة التي كان **يقتضي** غرسها فيه قبل ثمان سنوات ،يجب أن تزدهر الآن وتحمل ثمارها . فإن لم يحدث ذلك ، فالولد في خطر . لماذا ؟ لأنه سيرى عالماً ينتج فيه العلماء أشياء كانت البشرية تحلم بها قبل قرون – وقد يكون هذا عالماً موفور السعادة . الا ّ انه سيرى أيضاً عالماً منقسماً إلى كتلتين بسبب مذهبين فكريين متنازعين ، أو قانونين أخلاقيين أحدهما نصف مسيحي ، والآخر نصف مشرك . وهو يرى في الخارج خوفاً وتوتراً دولياً وكلاماً كثيراً عن الحرب . ويرى أيضاً كثيراً من التعاسة في

أنحاء كثيرة من العالم – كملايين اللاجئين التـــائهين الذين حرموا ، لا من الوطن فحسب ، بل من الدولة أيضاً . إن أموراً كهذه لم تكن موجودة عندما كنت صبياً . كما أنني لم أتعرّض إلى عوامل الإغراء التي تواجه الأولاد اليوم من جرّاء تقدّم الحضارة .

إلاّ أن البشرية قد عانت ، منـــذ أن بلغت سن الرشد ، قسوة لا يمكن تصوّرها في حربين عالميتين ، ومن أمم تدّعي انها متمدّنة . وهكذا فالتناقض واضح . فبينما نجـــد من جهة عالماً سعيداً مليئاً بالإمكانيات الوافرة المدهشة ، نرى من الجهة الأخرى ان الإنسان يسيء الاستفادة من هذا العالم نفسه وبشكل فاضح .

إذا حدثت الناس عن ذلك ، قـــال لك الكثيرون « إنها قضية تدعو إلى التفكير » . ولكن ترى هل سيفكرون بها حقاً ؟

ألسنا نعيش جميعاً في ضبابٍ من خداع النفس ، وفي عالمٍ تستحوذ عليـــه المادية ، وتنبذ فيه القـيم الروحية ؟ . فلنفكـّر على سبيل المثال ، في نماذج الاعلانات الكثيرة التي تواجهنـــا أنـّى ذهبنا ، والتي تؤثر في كثيرٍ من الناس . فهي توحي إلينا أن حل كل مشكلة يمكن أن يشترى بالمال . إنها تقول مثلاً : أتنشد السعادة في بيتك ؟ إذن فاشترِ هذه المكنسة الكهربائية ، أو ذلك النوع من طعام الفطور ، أو هذا الصابون ، أو اشرب تلك البيرة ! . ولا شك ان الناس جميعاً ، لا ينخدعون بهـــذه الاعلانات . ولكن الولد المراهق يتعرّض للخطر وهو يعيش في هذا الضباب من خداع النفس .

« ماذا ينفع الإنسان ، لو حصل على الدنيا كلها ، وأضاع روحه [1] »؟ .

لقد نشأ أولادنا البريطانيون ، كما نأمل ، نشأة مسيحية . ومن المحتمل أنهم سمعوا مواعظ عن سيدنا المسيح ، وقيل لهم ، إنه لو وجد آخرون من أمثاله لصار العالم أفضل مما هو عليه الآن. ولكن هذا لا يحل مشكلة الأولاد . فالمسيح عليه السلام ، لا يريد منهم أن يعبدوه ، بل كل ما يريده من الإنسان والبشر

---

١ – سورة من الانجيل .

جميعاً ، هو أن يؤيدوا قضيته ، إنه لم يقل « اعبدوني » ، بل قال : «اتبعوني».
وهو بعد هذا يقدّم لنا مجموعة من المبـــادىء ومثالاً من نفسه لا ينسى . فلو
استطعنا نحن المسيحيون أن نفهم هذا كله ونقبله، فواجبنا واضح إذن الا وهو:
إذا أردنا أن يجتـــاز العالم بسلام وتعقّل حالة الهياج والاضطراب التي تسوده
اليوم ، فينبغي أن نحيا الحياة الحقه ، وأن نقتدي بالمسيح عليه السلام ، بدلاً من
التخبط في دياجير الظلام . وهو يدعي انه النور الذي نحتاج إليه ، ولم يسبق
لرجل أبداً أن ادعى مثل ذلك .

وهكذا نرى مدى الصعوبة التي يجابهها أولاد اليوم، وجسامة الواجب الذي
يجابهه الآباء ومعلموا المدارس – في تفسير كل ذلك لهم وتوجيههم نحو الصراط
المستقيم . وقد زادت المهمة صعوبة زيادة كبيرة من جراء أحوال الحيـــاة
العصرية–الحياة التي يواجه الأولاد فيهامغريات ومشا كل أعظم من تلك التي واجهها
أي واحدٍ منا عندما كنا شباباً . فالأشيـــاء المثيرة وأفلام العصابات والبيوت
المخرّبة من جرّاء التهاون في الواجبات الزوجية ، ونشر القضايا الجنسية في بعض
الصحف – كل هذه تفرض على الولد المراهق ضغطاً شديداً، وليس من السهل أن
ننمّي فيه السجية في ظروف كهذه .

ثم ان تقدّم الحضارة والعلم قد ولـّد مشا كل أخرى . فعندما يجتـــاز الولد
دور المراهقة ،وينمو نحو الرجولة يرى إن عالمه المنظور قد اتسع . فهو يستطيع
أن يذهب إلى السينما ، ويشاهد كيف يعيش النـاس ويتصرّفوا في سائر أنحـاء
العـالم . وفي البيت لديه الراديو ، التلفزيون يستطيـع أن يستمع بواسطتها إلى
شؤون العالم وشؤون الوطن ، وإلى أحاديث الاخصائيين حول أي موضوع من
المواضيـع تقريباً . وهو يستطيع أن يقرأ مـــا تكتبه الصحف عن المحرّضين
الاشتراكيين ، وعن الدعوة إلى أجورٍ أكثر وعملٍ أقل، وعن معضلات الصناعة
في الوقت الحاضر . وبسبب هذه الأمور كلها يستطيـع الولد المراهق اليوم أن
يقيس محيطه اليومي بطريقة كان من المستحيل تطبيقها قبل خمسين سنة . وإذا
ما كبر ، فإنه لا يحتمل أن يرضى بأحوال العمل التي لا تلائم الأفـــكار التي

شربها . لذلك فمن الضروري له أن يشرب الأفـكار الصائبة . ويجب أن يتعلـّم التعاون في المجتمع ، وأن يعرف أن إحدى أسس الحياة الدمقراطية ، هي ضبط النفس الطوعي لصالح الجماعة التي ينتمي إليها . ويجب أن يتدرّب على إخضاع النفس لمنفعة رفاقه والمجتمع على العموم ... مضافاً إلى ذلك كله ، يجب أن يكتسب رأياً متزناً في الأمور ، وسلوكاً متزناً في الحياة . ويجب أن يتعلـّم المحافظة على ملكة التمييز الباطنية فيه عندما تكون الأحوال الخارجية مشوّهة وصعبة .

لقد سبق ان ذكرت كلمة « الضبط » . إن لهذه الكلمة صدى غـــير حسن عنـــد فريق من النـــاس . وربما كان السبب هو لأنها غير مفهومة فهماً صحيحاً . ان الأساس الحقيقي للضبط، هو ضبط النفس . وهو ينطوي على فكرة السيطرة على النفس وكبح جماحها ، وأن يعيش الإنسان حيـــاة منظمة ومقيّدة بقيود اختيارية يفرضها على نفسه . وقد تعدّ هذه القيود بمثابة واجبات يجب أن نشعر بضرورة القيام بها .

ان مفهوم الواجب هذا يؤكـّد أهمية كافة التعاليم المسيحية الخاصة بالسيرة الشخصية للإنسان . ويجب أن يُوحي بهذه التعاليم إلى كل طفلٍ حالمـــا يبدأ بالذهاب إلى الروضة . وينبغي أن يتمّ ذلك حتماً ، قبـــل بلوغه السادسة من عمره . والواقع أنه يمكن تعريف الضبط بـ « القيام بالواجب » . وأعتقد أن له قاعدة أخلاقية يجب أن لا يخشى أحدنا من الاعتراف بها .

وللضبط أيضاً ما يمكن تسميته بـ « قاعدة اجتماعية »، ولا أجد كلمة أفضل للتعبير عن ذلك . فإن جميـع المجتمعات المتمدنة تفرض على مواطنيها درجة من ضبط النفس . ومن مصلحـــة المجتمع كله أن يخضع كل منـّا بمحض إرادته إلى سيادة القانون وسلطة وكلائه وهم الشرطة . فعندما يقلّ تموين شيءٍ ما ، نقف بنظام في صف واحد للحصول عليه ، ولا نتشاجر في الدكان من أجـل ذلك — هذا ما يحدث في انـكلترة على كل حـــال . وكلنا نشعر ان المجتمع ، كمجموع ، يلقي على عواتقنا مسئوليات عديدة . ولـكي نتمكن جميعاً من أن نعيش معـــاً

بحرية وسعادة ، فاننا نفرض على أنفسنا وبمحض إرادتنا بعض القيود .

وإذن فللضبط أساس اخلاقي واجتماعي معاً . ومن الضروري جداً التشديد على أهميته الحقيقية لدى شبيبة أمتنا .

ان جذور الضبط هو ذلك « الشيء » الذي يجب أن يفضّله الولد أو الشاب على نفسه ، والذي يجب أن يتخلّى في سبيله عن رغباته الخاصة ، ليتسنّى للقضية التي يؤمن بها أن تسود – وللمجتمع الذي يعيش فيه أن يبقى ويدوم .

لقد وجدت من الصواب ان أدخل هـذا التحليل في بحثي لأوضح رأيي في الموضوع .

ولنأتِ الآن الى الجزء الصعب من مهمتنا وهي ان أوضّح كيف يجب القيام بهذه الامور ،ومن الذي يجب ان يقوم بها ؟ . انها تبدو مهمة جبارة ، ولكني لا اعتقد انها يجب ان تكون كذلك ، لو حددنا غرضنا بوضوح ثم اوجزنا المبادىء التي ينبغي اتباعها في بلوغ هذا الغرض. وينبغي ان نجتنب التورط في الاساليب المفصلة ، لأن هذه تختلف باختلاف الاولاد والمحيط الذي يعيشون فيه .

فما هو غرضنا ؟ . ان الغرض هو ان نبث في صفوف الشبيبة الاستقامـة والشجاعة الادبية والحمية ، بغية إقامة حصن يتحدى المؤثرات المخربة التي تسعى الى تحطيم اخلاق اولادنا . وينبغي تدريب هؤلاء على ان يكونوا « **نقاطاً قوية** » في الامة ، تدافع عن الامانة وسط مغريات تحرض على الخيانة، وتدافع عن العمل الجماعي والاخلاص وعن الجهد الصادق وشعور الواجب الرفيع بـل وعن كل شيء فيه خير البلاد .

أين يجب ان يبدأ التعليم ؟ في البيت طبعاً ، **فذلك هو المكان الذي يجب ان يبدأ فيه تكوين السجية** . وينبغي ان يتعلم الولد في البيت ان أموراً معينة تعد خطأ ، واخرى تعد صواباً . ويجب ان يتعلم اسس الأمانة والاخلاص والصدق والثبات على ما يعتقده صواباً وحقاً ، ثباتاً راسخاً برغم ما يواجهه من إغراء . ويجب ان تبدأ اسس هـذا التعليم في وقت مبكر ، وان ترسخ في ذهن الطفل عندما يبلغ السادسة من عمره . حتى إذا ما بدأ في الذهاب الى المدرسة لا يكون

فريسة لأية تأثيرات شريرة قد يواجهها . ويجب ان يشترك الأبوان في هذا التعليم وان تبدأ به الأم أولاً ، ثم يتولى الأب الامر كلما تقدم الولد في السن . ويتحتم ان يتم هذا التعليم قبل بلوغ الطفل العاشرة من عمره على وجه التقريب .

ولنأتِ الآن الى السن التي يترك فيها الولد مدرسته الابتدائية او التمهيدية ، وينتقل الى مدرسة ثانوية او مدرسة نحو (Crammar School) أو اية مدرسة عامة . ان هذا هو الدور الذي يتعرض فيه الصبي الى الاغراء . فهل سيتخلى عن كل ما قد تعلمه في البيت ؟ ام سيظل متمسكاً بمبادىء الأخلاق المسيحية ؟. ان ذلك يتوقف كثيراً على نوع الجماعة الذين يلتقي بهم في هذا الدور الحيوي من حياته ، وعلى كيفية قضائه اوقات فراغه . وهناك خطر من وجود اوقات الفراغ الزائدة لديه الا اذا تعلم كيف يستفيد منها . إذ ان اوقات الفراغ التي لا هدف لها تؤدي الى ضجر الولد ،وقد تصبح خطراً عليه . ويجب ان يشجع الولد في هذه السن على ان تكون لديه هواية .

وعندما يبلغ حوالي الثالثة عشرة من عمره يحين الوقت الذي ينبغي ايجاد وسيلة للتنفيس عنه،وذلك بالحاقه في احدى منظمات الاحداث الجيدة او نوادي الاولاد . وان وحدات التدريب العسكري للتلاميذ او الكشافة مثالان ممتازان لهذا النوع من المؤسسات ، فهو يتعلم فيهما الضبط والتربية البدنية ويكتسب الشعور بالواجب . اني اؤمن بهذه الحركات ، لأنها تيسر للصبي محيطاً دمقراطياً سليماً يمكن ان يتربى فيه ، في صغره ، ويكافح ليكوّن رأيه الخاص . وبانتمائه الى جماعة كهذه سيتعلم ضبط النفس والاعتماد عليها . كما سيتعلم ان « يعطي » أكثر مما « يأخذ » . ثم انه عن طريق الصداقات التي يعقدها مع رفاقه سيبدأ في تعلم المعنى الحقيقي لروح الجماعة وقيمتها . ولا تقتصر المنافع التي سيحصل عليها على الاشتراك في الالعاب والفعاليات الاخرى التي ينظمها ناديه فحسب ، بل سيتعلم ايضاً بالممارسة والمثال ان يقوم بدوره كاملاً كعضو مسؤول في فريق . وفي وسع النادي ، ان كان جيداً وذا رئيس ماهر ان يضع قواعد للسلوك والذوق والفعاليات ، من شأنها ان تؤثر في حياة الولد

ونموّه . وبينما هو ينمو نحو الرجولة سيدرك مسؤولياته نحو النادي كمجموع ، وسيتعلم ان الواجب قبل اللهو ، وانه لا يستطيع التمتع بالامتيازات إلا إذا تحمل الواجبات الملقاة على عاتقه بصدر رحب . والواقع أنه في الإمكان « صياغة » سجية الولد تحت قيادة رئيس نادٍ ماهر صياغة تجعله رجلاً على جانب كبير من الاستقامة والشجاعة الأدبية والبدنية ، وقادراً على ان يقوم بعمل يوميّ شاق ، وان يجد السعادة في منجزاته . لهذه الاسباب اعتقد ان الولد يحتاج الى ان يكون عضواً في حركات الشبيبة عندما يقترب من سن المراهقة ويمر بها ، أي ما بين الثالثة عشرة والثامنة عشر من عمره مثلاً .

وأود بهذه المناسبة ان اذكر حادثين طريفين من حوادث اتصالاتي بنوادي الأولاد .

ففي سنة ١٩٤٦ اراد ضابط ، كان في هيئة اركاني خلال الحرب ثم عاد بعدها الى الحياة المدنية ، ان ينشىء نادياً للاولاد الفقراء في بلدته . وسألني إن كان في وسعي ان أساعده مادياً في مشروعه . . فابديت له المساعدة مقترحاً ان يكون للنادي قاعدة اساسية واحدة يجب ان يوافق عليها جميع الاعضاء الا وهي :

« في هذا النادي شعارنا الصدق »

ويجب ان تكتب هذه العبارة على لوحة اعلان كبيرة في النادي . فاذا كذب صبي على رفاقه وجب ان يحاكمه الأولاد أنفسهم . فان ثبت ذنبه ينبغي ان يطرد من النادي . وتمّ الاتفاق على ذلك ، واستكرى الضابط بيتاً قديماً متروكاً ليتخذه مركزاً للنادي . وقام الاولاد أنفسهم بالتصليحات اللازمة فيه وبصبغه والخ . . . وقد حضرت حفلة افتتاح هذا النادي الذي نجح نجاحاً كبيراً في تحقيق الغرض الذي انشأ من أجله . والامر الذي يجب ذكره هنا ، هو انه لم يكن في النادي أنظمة مدونة ، بل كان الاولاد يضعون انظمتهم بأنفسهم ، ويقومون بجميع الأعمال في النادي . وكل ما كان يطلب منهم هو أن يطلب منهم ان يقولوا الصدق – وهو أمر في غاية السهولة وقد اسفر عن نتيجة طيبة .

وفي سنة ١٩٤٨ ذهبت الى فرانسة لأعيش فيها بحكم منصبي ، وفي صيف احدى السنين دعوت ستة من اولاد النادي لقضاء عشرة أيام في قصري الذي كان يقع بالقرب من (فونتانبلو) (Fontanbleau) وقد استأنسنا جميعاً بتلك الزيارة . وكان احد الاولاد شيوعي الميول بشكل واضح عندما وصل ، ولكننا شفيناه منها قبل ان يعود !

أما الحادثة الثانية التي لا زلت أذكرها فهي زيارة قمت بها سنة ١٩٥٩ الى مركز من مراكز الاحداث في شرق لندن . وبعد ان شاهدت ارجاء المركز رجاني مدير النادي ان أذهب معه الى غرفة كان فيها أفراد « عصابة » من عصابات لندن المشهورة يتلاكمون . وقال ان هذه العصابة كانت جماعة خطرة من غلاظ الأكباد يتسلحون جيداً حين ينوون القتال . وكان في وسعهم مقابلة الشرطة او أي عصابة أخرى في لندن ، وإذا ما أُحرجوا رموا ليقتلوا .

وقد انتمى جميع أفراد العصابة ، وعددهم نحو ستة عشر ، الى هذا النادي وكانت اعمارهم تتراوح بين السابعة عشرة والعشرين . وأثارت أقوال مدير النادي اهتمامي الشديد فذهبت معه لمشاهدة هؤلاء . وعندما وصلت الى غرفة الملاكمة كانوا قد انتهوا من رياضتهم . فابديت أسفي لذلك، وسألتهم إن كان في وسع اثنين منهم اظهار مهارتهم في الملاكمة أمامي . فأمر رئيس الجماعة ولدين منهم ان ينزعا سترتيهما ويدخلا في حلقة الملاكمة . وعندها شاهدت نزالاً حامياً كان أشبه بالعراك منه بالملاكمة . وقد تبادل المتلاكمان خلالها ضربات شديدة . ثم اجتمع الاولاد حولي وتحدثنا – بالأحرى انني حملتهم على الكلام ، ورحت استمع الى حديثهم . وكان لقائي بهؤلاء تجربة ممتعة حقاً – فهم من أحياء لندن الشرقية ومن بيوت فقيرة ، ولكنهم يشتغلون جميعاً ويكسبون مبالغ طيبة . وهم ذوو قابلية جيدة وسريعو الفهم ،ولديهم ملكة الفكاهة المستملحة التي يتميز بها رعاع لندن (Cockneys) . كما ان لديهم (روح جماعة) عظيمة واخلاصاً لـ « العصابة » . وكانوا يبدون جميعاً اولاداً طيبين للغاية ولا يعرفون الخوف وراغبين في التحدث معي . ولم يكن فيهم من يتوسم فيه السوء .

ان المرء يستطيع حقاً ان يفيد أولاداً كهؤلاء فائـدة كبيرة ، لو استطاع العناية بهم في وقت مبكر !. ولقد كان هـذا النوع من اولاد آل (كوكني) أنفسهم رفاقي في السلاح في ميادين إفريقيـا وأوربا ، فقاتلوا بشجاعة فائقة وضحى كثيرون منهم بأرواحهم ليتسنى لنا نحن الذين بقينا على قيد الحيـاة ، ان ننعم بالحرية . ولكن دعنا نمضِ في دراستنا للأحداث .

بعد أن يبلغ الولد السادسة عشرة من عمره تقريباً ، أشكّ انه في وسع أحد أن يفعل الشيء الكثير لصياغة سجيّته ، إلا بالتأثير والمثال . فانك لا تستطيع ، بعد هذه السن أن تجبره على أن يفعل « هذا » أو « ذاك » ، لأنه سيفعل مـا يشاء . وان ما يفعله ، ونوع الحياة التي سيحياها يتوقفان على مدى نجاح أبويه في بناء سجيّته في البيت – يساعدهما في ذلك طبعاً ، معـلم المدرسة ، ورئيس النادي . ولا بدّ لي ، أن أبدي هنا ملحوظة هامة ، ألا وهي : ان الأبوين ومعلم المدرسة ورئيس النادي ، كلهم شركاء في معركة تنشئة الولد – المعركة التي ترمي إلى بناء سجيته ومساعدته على الثبات بوجه الصدمات التي يجابهها في حيـاته . وإنه لمن الخطر ، أن يضطر المعلم ، على أن يقاتل معركة خاسرة مع الأبوين ، أو العكس بالعكس . ولهذا السبب ، أرى أن يكون بين الطرفين تشاور . فإذا حاولت المدرسة أن تعلـّم الولد نوعاً معيناً من القيم الإخـلاقية ، وكان أهله في البيت يمارسون غيرها ، فقد يحدث تضارب في فكر الولد. ومن واجب المدرسة أن تقدّم القيم الأخلاقيـة التي تدعو إليها بشجاعة وإيمان ، وأن تكون على استعداد لبحث هذه القيم مع الآباء . وربما كان أهم أعمال معلم المدرسة الاتصال مع آباء وأمهات الأولاد الذين يدرّسهم . ويمكن أن يبحث معهم في هـذه الاتصالات أموراً شتى ، منها ما هو صريح يتناول مثلاً اختيار مسلك للتلميذ ، ومنها ما يتعلق بمناقشة الأسباب الـكامنة وراء مشكلة خطيرة وقع فيها الولد ، كغيابه عن المدرسة ، أو ارتـكابه جريمة من جرائم الأحداث . ان آباء كثيرين من الأولاد الذين يتمون الآن تعليمهم الثانوي ، أو الذين قد يلتحقون بالجامعة ، ربما لم يحصلوا على هذه الامتيازات . وكثيراً مـا يكون من الضروري تخفيف

بعض الإجهاد الذي يصيب عائلة ما بتنمية بعض القابليات والطموح غير المألوف في طفلٍ موهوب . ويجب أن يكون المعلم دائماً على استعداد لتقديم المعونة في هذه الأمور .

يجب أن نحاول الآن الوصول إلى بعض الاستنتاجات أو المبادىء التي تبرز ما سبق ان قلته : توجد في بريطانية في الوقت الحاضر منظمات كثيرة للشبيبة ، ولكن فعالياتها لا تبدو منسّقة بأي طريقة كانت . ان هذه نقطة ضعف تؤدي إلى تشتيت الجهود وضياع الموارد المتيسّرة لتربية الأولاد . واني أعتقد ان مؤسسة حكومية كوزارة التربيــة هي ليست السلطة المناسبة لإدارة خدمات الأحداث . فالخدمة المدنية وإن كانت جهــازاً ممتازاً ، لكنها مقيّدة بالروتين والأنظمة والتعليمات . وإن وزراء التاج مشغولون في الإجابة على الأسئلة البرلمانية والقضايا السياسية الحزبية إلى درجة لا يجدون معها غير القليل من الوقت للتفكير الهادىء ، وإمعان النظر فيما هو الأصلح لأبنــاء بريطانيه . ولم ينتج الأسلوب الحالي غير سيل من البلاغات التي أدت إلى تطورات عرضية ، جعلت خدمات الأحداث في بريطانيه في حالة انحطاط مزمنٍ . فيقتضي لذلك تنظيم مقر غير خاضع للسيطرة الحكومية لمعــالجة الأمر . ويجب أن ترأسه شخصية معروفة يشعر نحوها الجميع بالولاء لخدماته ولحسن طويته . ولا يخفى أن الأولاد تتأصّل فيهم عادة ، عبادة الأبطال ، وهم يرغبون دوماً أن يتبعوا قائداً معروفاً يثقون به ويعتمدون عليه . وليس من المتوقــع أن يتبعوا بحماس رجلاً من رجــال السياسة الحزبيين أو موظفاً مدنياً ، فهذان تنعدم عندهما « حرارة » القيــادة لأنها لا يحتمل أن يكونا قد درسا موضوع القيــادة . واني أعتقد أن تشكيل مثل هذه المنظمة هو من أولى الضروريات .

ثم يجب أن تعطي وحدات الشبيبة بعض المثل التي تساهم فيها . والواقع ان قسماً من هذه الوحدات لديها مثل عليــا ، كالكشافة ووحدات الطلبة ولواء الأولاد والمنظمات الكثيرة الأخرى . ولكن معظم نوادي الأولاد ليست لديها مثل عليا . ولا يخفى ان الغرض من هذه النوادي هو ليس مجرّد أخذ الولد من

الشارع لكي يلعب (الدارت) أو كرة المنضدة في النادي ، بل يجب أن يكون الغرض أسمى من ذلك . ولقد بذلنا جهوداً كبيرة في النصف الأول من هـذا القرن لإلغاء الامتيازات غير العادلة ، وللقضاء على الفقر الذي لا يستحقه المواطنون ، ولإعطاء فرص متكافئة لكل فرد مهما كان أصله . لكننا عندما قمنا بذلك أخفقنا بعض الشيء في أن نوضّح لأولادنا ان الامتيازات والمنافع تولّد المسئوليات . فالولد يجب أن لا يطالب بـ « حقوقه » فحسب ، بل يجب أن يتحمّل أيضاً نصيبه العادل من المسئولية . أو بالأحرى يجب أن يتعلّم أن للحياة غاية . ويجب أن نوضّح لأبناء بريطانيه ان لديهم شيئاً من الماضي ، يجب أن يفتخروا به ، وشيء من المستقبل يجب أن يحقّقوه . وينبغي أن ننمّي فيهم الشعور بأن السعادة الحقيقية تأتي من العمل . واننا لا نستطيع أن نحقّق شيئاً في هذه الحياة الا بالعمل الشاق . ويجب أن يعلموا أن « خدمة » الآخرين هي من أكثر تجارب الحياة ارضاءً للنفس ، على شرط أن تكون هـذه الخدمة اختيارية . ان روح « الخدمة » هذه يجب أن تنمو في الولد نمواً طبيعياً في دور المراهقة ، ويجب أن لا يفسح المجال لكي تتبدّد وتموت في حياته التالية . انني لا استطيع أن أتصوّر انه في وسع الخدمة المدنية المرهقة بالعمل أن تعالج بنجاح هذه الأمور كلها من إحدى وزارات (وايتهول) . فهي ليست من الأمور التي تبلّغ إلى سلطات المعارف المحلية مثلاً في « بلاغ رقم ١٠٠٠ » !

دعنا الآن نلقي نظرة على مسألة « المثل العليا » هذه . توجد اليوم نزعة عامة إلى فقدان المثل العليا . وتكاد أهمية الإلهام الذي يمكن أن يؤثّر في المجتمعات ، ان تتلاشى في تيه من التفاصيل . أين هي المثل العظمى التي قامت عليها كلمات مثل « انكلترة » فلا يكفي أن نقول ببساطة أن كلمات كهذه أصبحت قديمة . وفي الانتخابات النيابية لا أحد يدعو إلى المثل العليا ، أو أن الدعوة لها تكون قليلة . حتى ان كلمات « الحرية » و « العدالة » لا تذكر إلا من قبيل الزيادة في التبجّح بالوعود التي يقدمها المرشحون حول رفع مستوى المعيشة، وتحسين الخدمات الاجتماعية وتقليل الضرائب. ولكن، أهذا هو الشيء

الصالح لشبابنا ؟ هل يصح أن نعلم أولادنا بأن لا يبالوا بما يحدث لبريطانية ما دامت « الدولة » تدبّر شؤون رفاهيتهم المادية ؟ اننا إن لم نبالِ بما يصيب بلدنا فمن المحتمل أن توقظنا نكبة تحلّ به . وان المواطن الذي يتخذ من بلده وسيلة لمجرّد الحصول على المال أو السلطة أو لنيل مركزٍ اجتماعي ، سرعان ما يجد أن وطنه قد أصبح بلداً ثانوياً ، وان سلطنة المال أو الجاه التي أنشأها بأنانيته غدت لا قيمة لها وعرضة إلى التدمير السريع .

لكي نخدم بريطانيه ونفتخر بأننا إنكليز ليس من الضروري أن نملك قنابل ذرية بقدر أمريكا ، أو علماء بقدر روسيا . فليست البلاد التي تنقصها القنابل الذرية ، أو القوات الكبرى هي التي يجب أن تدعى دولاً من الدرجة الثانية ، بل ينبغي أن يطلق على البلاد التي تعوزها المثل العليا . والمثل العليا تختلف عن القوات الكبرى عادةً في انها تبقى وتعيش . ولذلك ينبغي أن نعلّم أولادنا ليجعلوا « انكلتره » تعني لهم شيئاً أكثر من مجرد **دولة رفاهية** . إذ يجب أن يفكّروا في مجتمعنا ويعملوا له عملاً مثالياً ، وليس أنانياً . ولا شك ، إن الحصول على المنافع المادية أمر ضروري ، وقد سبق أن بلغنا هذه المرحلة ، فليس في وسعنا الآن أن نقف ، بل يجب أن نمضي قدماً إلى الإمام، وإلا فمصيرنا الهلاك . وان أول ما نحتاج إليه ، هو معالجة الجهل العام المتفشّي بيننا عن الحقائق الأولية للدين المسيحي . إن كثيرين من جنودنا الشبان لا يعرفون عن هذه الحقائق الا القليل . فقد سئل جندي مستجد حديثاً عما يعرفه عن يوم (جمعة الآلام) (Good Friday) وهل يعني هذا اليوم أي شيء له ؟ فأجاب بعد أن فكر هنيهةً ، انه قرأ عن (جمعة الآلام) ذات مرة ، وعلى قدر ما تسعفه ذاكرته انه كان خادماً عند « روبنسون كروزو » !

ليس في وسعي أن أدعي أن أيام صباي كانت حافلة بالسعادة. فقد أوجزت مشاكلي الرئيسة في تلكم الأيام في « مذكراتي . » ولهذا السبب صار من دأبي في السنوات الأخيرة مساعدة وتشجيع كل من أصادف من الأولاد الذين يبدو لي انهم بحاجة إلى ذلك .

وليست هناك مشكلة كبيرة بالنسبة للأولاد الذين يذهبون الى المدارس العامة أو مدارس النحو ، فإن معظم هؤلاء من عوائل طيبة . غير ان هناك مشكلة كبرى بالنسبة للاولاد الذين يتركون المدرسة في سن الخامسة عشرة ليشتغلوا ، اذ ان معظم هؤلاء من بيوت فقيرة ، وهم الذين يحتاجون الى المساعدة. والامثلة التالية جديرة بالذكر: في تموز ١٩٤٧ ذهبت لزيارة نيوزيلندة بدعوة من رئيس وزرائها . وقد بلغت في تلك البلاد مدينة (انفركاركيل) (Invercarcill) الواقعة في النهاية الجنوبية من جزيرة ساوثلاند (Southland). وحال وصولي اليها ذهبت الى فندق من فنادقها يدعى (غراند) لأقيم فيه . وكان خارج الفندق جمهور كبير من الناس جاءوا للترحيب بي . فلاقت الشرطة شيئاً من الصعوبة في إدخالي الى الفندق . وفي تلك اللحظة شق بائع صحف صغير طريقه نحوي وبين الجمهور وناولني نسخة من صحيفة(ساوثلاند ديلي نيوز) فاردت ان أدفع له ثمنها الا انه رفض ذلك واختفى بين الجمهور . وفي مساء اليوم نفسه تذكرت ذلك الولد ورجوت مدير الشرطة ان يجده لي لكي اشكره على عمله الودي . فوجدوه في اليوم الثاني في احدى مدارس يوم الاحد ، وجيء به إلي في الفندق . كان الولد في الحادية عشر من عمره ، واسمه (كليف ادامسون) (Clive Adamson) وكان يعيش مع أبويه في رقم ٩٠ شارع فوكس . وكان اجتماعي به في الفندق بداية صداقة دامت حتى اليوم . وبناءً على رجائي صار يراسلني بانتظام، ويحيطني علماً دائماً عن حياته وآماله ومطامحه. وكان يخبرني عن كل مشكلة يجابهها. وفي أجوبتي له كنت أقدم له أحسن نصيحة في وسعي تقديمها . وقد كان ذلك ضرورياً في بعض الاحيان عندما كان يبدو عاجزاً عن الثبات في مهنة من المهن مدة طويلة . وهو لم يطلب مني مالاً أبداً . كما انني لم أرسل له أي مبلغ إلا في مناسبة واحدة ، وذلك في عيد ميلاده الحادي والعشرين . وقد استعنت في رعايته بزوجة محافظ المدينة وكانت وقتئذ السيدة (ميبل واكنر) (Mabel Wackner) التي نابت عني في مساعدته بهمة وأخلاص .

والآن ، لقد تزوج بائع الجرائد الصغير ، وغدا رباً لبيت وعائلة . واني أشعر بانني قدّمت له شيئاً من المساعدة في السنين الصعبة التي مرّت به عندما كان صبيّاً ومراهقاً . وإذا قدّر لي ان اسافر الى نيوزيلنده ثانية فلا شك أنني سأذهب الى (انفردكاركيل) وأزور (كلايف أديسون) .

ثم هناك حكاية تلميذ انكليزي كان في السادسة عشرة من عمره عندما عرفته . وقد ُطلب اليه في حينه ان يكتب مقالاً عن إحدى الشخصيات المشهورة التي سمع عنها . فاختارني موضوعاً لمقاله . وقد قرأ عني ما استطاع اليه سبيلا من الصحف . وكان معظم ما قرأه بعيداً عن المجاملة . ووصف حياتي في الجيش ثم اختتمه بالقول « انني شخص مكروه معجب بنفسه وقاسٍ والخ ... » فأرسل أبوه مقاله اليّ لأقرأه . وقد قرأته باهتمام !. ثم كتبت لأبيه قائلا ان ابنه يجب ان يكون منصفاً في الاقل . فهو لم يقابلني أبداً ، بل لم يشاهدني أيضاً ، ومع ذلك فقد ذكر عن أخلاقي اموراً جازمة . وقلت أنه كان في وسعه ان يبدأ ملاحظاته الانتقادية بهذه الطريقة :

« انني لم ألتقِ به ولكن قيل انه ... »

وطلبت من الولد ان يزورني في بيتي ، فجاءني بالفعل ، فإذا به صبي بهيج حاد الذكاء ذو شخصية جذابة. وقد تحدثنا حديثاً ممتعاً وهو الآن احد اصدقائي الشبان المخلصين . وهو يزورني كلما عاد من المدرسة لقضاء العطلة . وقد أقنعته ان يذهب الى ساندهرست ليصبح جندياً . ولا بد أنه سيكون جندياً مجيداً ..

ثم لديّ صديق شاب آخر . وهو عامل في التاسعة عشرة من عمره ، يتكلم بأضخم لهجة (لانكشارية) سمعتها في حياتي !. وقد ترك المدرسة في الخامسة عشرة من عمره وراح يتعلم البرادة في شركة هندسية كبيرة . وفي سنة ١٩٥٩ عهدت إلي مدرسته بمهمة توزيع الجوائز على البارزين من تلامذتها ، فنال هو جميع الجوائز الكبيرة لمهارته في مهنته . وقد أثار هذا الشاب إعجابي الشديد وكان يبدو تام السجية . وسألت الشركة ان كان في وسعها ان ترسله الى بيتي

لكي يقضي عطلة عيد الميلاد معي، ولكي أتمكن في الوقت نفسه من التعرف عليه. فجاء واخبرني عن حياته وآماله في المستقبل. وكان يطمح في ان يكون لاعب كرة محترف، وقد سبق ان سجّل نفسه كمحترف وقتي في نادٍ من نوادي فرق الدرجة الرابعة. على انني وجدت انه برغم مهارته الفنية في مهنته، يفتقر كثيراً الى الثقافة العامة، وقد برهنت له ان من الضروري معالجة هذا الضعف إذا أراد ان ينجح في حياته، كما برهنت له أنه ليس له مستقبل حقيقي كلاعب كرة محترف. ففي الخامسة والثلاثين من عمره ستتخلى عنه نوادي الكرة فيبقى بغير مهنة. فإذا أراد ان يحقق هدفاً أفضل في الحياة ينبغي ان يكرّس جهوده على المهنة الهندسية التي اختارها، وان يتزوج فتاة لطيفة وينشىء بيتاً طيباً، ويكفل لأطفاله ثقافة أفضل مما حصل عليه هو نفسه. فوافق على نصيحتي هذه. ثم رجوت شركته ان تبدي المساعدة في تثقيفه، فوافقت على ارساله الى كلية فنية لمدة أربعة أسابيع في كل ثلاثة أشهر، الى ان يبلغ الحادية والعشرين من عمره. ومما هو جدير بالذكر ان «اريك»[1] اخبرني ان احداً لم يتحدث معه من قبل بهذه الطريقة، او ابدى له نصيحة حول كيفية تخطيط حياته تخطيطاً منطقياً. وعلى كل حال فان امور اريك الآن تسير على ما يرام وعندما ستتحسن ثقافته ستجني منه شركته فوائد جمة، لقاء الجهد الذي بذلته في سبيل تثقيفه.

ان علامات الصداقة هذه اقنعتني ان عدداً كبيراً من أحسن اولاد بلدنا ينتمون الى افقر البيوت. فاذا امكن الاتصال بهؤلاء في وقت مبكر من حياتهم وتطوير سجاياهم على اسس صحيحة، لاستطاعوا بلوغ اعلى المراتب. ولا ريب أنه إذا اضطر ولد او شاب ان يكافح المصاعب في صغره، فان ذلك قد يؤدي الى تقوية أخلاقه الى درجة كبيرة. لكنه يجب ان تقدم اليه النصيحة والمساعدة. وهو لا يحتاج الى المال بل النصيحة المنطقية.

ولقد سبق ان ذكرت ان الاولاد يحتاجون الى الالتحاق باحدى حركات

---

١ - «اريك» هو اسم الشاب.

الشبيبة او منظماتهم حيث يكونون هناك تحت تأثير رئيس نادٍ جديد . ولكن قد يجهل الكثيرون ان ثلثي اولاد بريطانية تقريباً لا ينتمون الى منظمات الشبيبة . وهناك نحو ٢٠٠٠٠٠ ولد بين سن السابعة عشر والعشرين (من مجموع ٣٠٠٠٠٠ ولد في بريطانية كلها) لم ينل عناية كهذه . وهؤلاء هم الذين يجب ان نتصل بهم ونعتني في تربيتهم . ان واجب المؤسسة المسؤولة عن خدمات الاحداث يقتصر على إدارة النوادي والمنظمات القائمة الآن ، وان المناسبات التي تعطى فيها المنح ، كمنحة دوق انبره ، تقتصر على المشتركين في إحدى هذه النوادي والمنظمات .

وفي رأيي ان احسن تدريب اخلاقي يمكن ان يدرّب عليه ابناء بريطانية هو ما تقوم به مؤسسة (آوتورد باوند تراست) (Outward BoundTrust) وذلك بواسطة مدارسها البحرية والجبلية. وتستهدف هذه المؤسسة اختيار ولد من عائلة فقيرة وأخذه بعيداً عن بيئته ، ثم العمل بعدئذ على تطوير سجاياه لمدة أربعة أسابيع في محيط يختلف اختلافاً كلياً عن محيطه ، وذلك إما في الجبال او على ساحل البحر . فإذا ما عاد الولد الى بيئته الاصلية صار (نقطة قوية) تعمل للخير في شارعه او مجتمعه . ويجب ان يكون الاولاد المدربين بهذه الطريقة ما بين السابعة عشرة والعشرين من اعمارهم . وتعطى لهؤلاء أشغال شاقة وعنيفة ويدرّبون بطريقة الإثارة والتحدي واعطاء المسؤولية . وهي امور يستجيب اليها كل ولد دوماً . ومن المؤسف ان هذه المؤسسة لا يمكن ان تقبل اكثر من ٤٠٠٠ ولد تقريباً في السنة . وان عشرة بالمائة من هؤلاء فقط يأتون من المنظمات القائمة المعروفة ، اما الـ (٩٠) بالمائة الباقون فهم من الـ (٢٠٠٠٠٠) ولد الذين لا ينتمون الى منظمات الشبيبة . والحق انه إذا كانت هناك منظمة تستحق التأييد والعون ، فهي منظمة (آوتورد باوند تراست) التي نحن بصددها والتي يرأسها الأمير فيليب . وقد اتصلت بهذه المنظمة للمرة الاولى سنة ١٩٤٧ عندما كنت رئيساً لهيئة الاركان الامبراطورية ، فأثارت وقتئذا هتمامي الشديد. وقد أظهرت رغبتي في حينه لأن أدفع أجور تدريب ولد فقير من احياء شرقي

لندن في احدى مدارس المنظمة . فاختارت إدارة المنظمة ولداً يدعى (جورج ستايلز) ، وهو شاب يسوق سيارة حمل ، وعضو في نادي (فيربيرون هاوس) (Fairbairn House) للاولاد . وجاء جورج ليراني في وزارة الحربية قبل الذهاب الى المدرسة . فطلبت منه ان يزورني ثانية عندما يعود من المدرسة . وقد فعل ذلك ، فإذا به قد تغير كثيراً عما كان عليه من قبل . وفضلاً عن ذلك انه شعر هو نفسه بهذا التغير . واستفاد من الدورة فوائد جمة اهمها ، انها ساعدته في تصحيح قيمه الاخلاقية . وباختلاطه مع الاولاد الآخرين الذين كانوا من مختلف مشارب الحياة، تعلم ان للحياة غاية وان له فيها دوراً يجب ان يقوم به — وهو الآن متزوج وسعيد العيش في والثامستو (Walthamstow) وقد قيل لي أنه كثيراً ما يذكر احاديثه معي والاسابيع الاربعة التي قضاها في دورة الـ (آتورد باوند تراست) . وهو يكتب لي من حين لآخر .

هذا وقد أتيح لي أخيراً ان اطلع على رسالة كتبها بعد عودته من احدى الدورات في مدرسة (آتورد باوند تراست) وقد جاء فيها :

« كان في فريقي شاب اعجبت به إعجاباً شديداً — بل وقد أعجب به جميع أفراد الفريق . ذلك لانه كان عديم الأنانية للغاية . وهو لم يعجز عن العمل أبداً — مهما كان من العبث الاستمرار عليه . ولم يطلب الآخرين ان يزيدوا في نصيبهم من العمل . وقلما كان يتكلم . ولم يكن يملك من الملابس غير ما كانت عليه . وكان يبتسم دائماً حتى في أسوء اللحظات . ومع أنه لم يقل شيئاً ليجعل الغير يشتغلون او يشاركون في الشغل ، لكنه بالمثال الحقيقي الذي كان يضربه بنفسه ، وبحبه للآخرين كا يبعث فينا ما يشبه الشعور بالاتحاد كلما اشتركت معه في العمل . وكان هذا الشاب ملهماً لي . ومع أن تأثير الهامه لم يظهر فيّ بوضوح تام ونجاح ، الا أنه جعلني اتمتع بالدورة وزودني بشيء من الكمال الذي لم أعرفه من قبل » .

انها شهادة رائعة حقاً . ويسرّني ان اتعرف على هذا الولد .

ان هذا الباب القصير يظهر بايجاز نوع القيادة التي أنادي بها لأبناء

بريطانية – ولبناتهـا أيضاً في يومنا هذا . وقـد لا تكون آرائي مقبولة على العموم . لكنها بسيطة على الأقل ، وقد بنيت على مثل عليـا وحقائق أزلية لن تتغير مهما كان العصر الذي نعيش فيـه . وإن من الواجب ان لا ينـاط تنظيم وإدارة خدمات الاحداث بالخدمة المدنية ، ثم يجب علينا ان نهتم أيضاً بالعـدد الكبير من الاولاد الذين لا تشملهم خدمات الاحداث .

انني آسف لأن الخدمة الوطنية الالزامية ستلغى قريباً . فقـد كانت في صالح أبناء بلدنا ان يلتحقوا بالخدمة العسكرية مـدة من الزمن ليتعلموا الضبط والاحساس بالواجب وروح الجماعة – وحيث يجد كل منهـم من هو في سويّته في مجتمع اكبر من بيئته . ولقد كان الدخول الى الخدمة الوطنيـة كملتقى طرق لشبان بريطانية . فكانوا يأتون اليها من المدارس الاهلية والحكوميـة ، ومن مختلف أنواع المشاريع الصناعية . ومن بين صفوف هؤلاء كان يظهر نوع ممتـاز من الضباط الشبان وعدد كبير من ضباط الصف حتى رتبة جنـدي اول . ومن المؤسف اننا سنفتقد هؤلاء جميعاً .

اقتراحات إلى الكبار

أعتقد انه من واجبنا نحن المتقدمين في السن ، أن نستعين بملكة الاهتـداء لإيجاد حل منطقي وعملي لمشكلة مساعدة الشباب في مرحلة من حياتهم هي في غاية الصعوبة . فالولد يترك المدرسة ليـذهب تواً الى مصنع أو دائرة . وحتى ذلك الوقت لم يكن قد أعطي غير مصروف جيب قليل، ولم تتيسّر لديه أوقات فراغ كثيرة ، وذلك بسبب الأعمال البيتية التي كان عليه انجـازها مساء كل يوم استعداداً لدروسه المدرسية في اليوم الثاني . ثم يجد نفسه وهو يتقاضى راتباً ولديه أوقات فراغ يستطيـع أن يستمتع بها في الأماسي . إن هـذا التحوّل الآني والمفاجىء ، هو الدور الخطر في حياته . ففي هذا الوقت نفسه يرغب الولد في الحصول على شيء من المتعة (وهـذا أمر طبيعي) وبدون مسئولية . ان أولئك الذين يحاولون معالجة هذه المشكلة يجب أن يكونوا انسانيين وذوي

خيالٍ واسع . فيجب أن يتذكروا انهم أنفسهم كانوا في يوم من الأيام شباناً. وإن حل هذه المشكلة لا يكون في نوادي الأولاد فقط. فإن كثيرين من أولاد السوء يأتون من عوائل عاجزة عجزاً تاماً عن تربية الأطفال . فهم يفسدونهم حتى سن السادسة ثم يفقدون السيطرة عليهم بعدها ، ويحرمونهم من المحبة التي من حقهم أن ينالونها . أو ليس **الآباء اذن هم الذين يحتاجون إلى التعليم ؟** . وربما يقتضي أن يبذل الموظفون والآباء جهداً مشتركاً للبحث عن حل لهذه المشكلة الكبيرة . ويجب أن يرعاهم ويساعدهم في القيام بهذه المهمة القادة المسئولون عن خدمات الأحداث .

وينبغي تشجيع الولد على أن يضع خطة حياته بفطنة ، على أن يبدأ بالتفكير في ذلك عندما يبلغ الخامسة عشرة من عمره مثلا. فإذا أهمل اختطاط حياته ، فإن مستقبله قد يكون عرضياً . وعندما يترك الولد المدرسة ، ستبدأ صفحة جديدة في حياته ، وسيكون وقتئذٍ ما بين الخامسة والثامنة عشر من عمره ، وبه حاجة إلى هدف . على أن وجود هدف لديه لا يعني بالضرورة انه سيصل الى هذا الهدف . ولكن إذا لم يكن ثمة هدف ، فلا شيء يمكن الوصول إليه ، وسيكون تقدمه في الحياة عرضياً . وهناك عامل كبير يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار الا وهو : يجب أن يمتهن الولد مهنة يحبها ، ويجد فيها مجالاً واسعاً لمؤهلاته الخاصة . وقد لا تكون هذه هي المهنة التي يستطيع منها أن يكسب نقوداً أكثر مما يكسبه من غيرها . وعلى الوالدين أن يوجهاه في هذه القضية ويجب أن يساعدهما معلم المدرسة في ذلك .

ويجب أن تقوم التربية بدورٍ كبير في هذا كله . لكن الغاية منها ينبغي أن تكون مفهومة حق الفهم . فما التربية ؟

أولاً ، أرى ان التربية تمكن الولد أو الشاب من مواجهة بعض المشاكل والأزمات في حياته وتحليلها والتفريق بين العوامل الهامة ، وبين تلك التي لا أهمية لها ، بغية الوصول الى قرار ثم القيام بعملٍ ما ـ أو بالأحرى انها تعلمه القرار والعمل . هذا هو وجه التربية الذي يروق للكثيرين ، على ان للتربية

مغزى أكبر من ذلك :

ليست التربية في أساسها اكتساب المعرفة ، وإن كانت هذه ضرورية في الحياة العصرية لاغراض الامتحان ، بل هي تدريب الناس وتوجيههم والتـأثير فيهم – والنـاس مخلوقات بشرية لها جسم وفكر وروح ، فهي لذلك شديدة الحساسية بكل ما يحيط بها من عوامل مؤثرة ، وفي مقدمتها تأثير الناس الآخرين. لذلك ، فالتربية ، في آخر الأمر ، **هي ليست الا علاقة بشرية ، علاقة يقوم فيها بعض الناس بتدريب الآخرين وإرشادهم ، وتزويدهم كل ما في وسعهم أن يزوّدوه – وعلى هؤلاء ان يستجيبوا إلى الارشاد ، فيتعلّموا بدورهم كيف يزودون غيرهم** ، إن التعليم في غرف الدرس عامل مهم في هذا الصدد ، لكنه ليس إلا عامل واحد . أما العامل الآخر ، والأهم فهو بناء السجية التي سبق أن عرّفناها في الباب الأول ، ومساعدة الولد في تقويم ملكة الأمور فيه . وإني من المؤمنين إيماناً راسخاً بوجوب توجيه الشباب نحو العلى ، ويجب أن نوضّح لهم ما ينبغي أن يفعلوه لبلوغ ذلك ، وأن نبيّن لهم السبب . إن ذلك أمر مهم ، لأن المستقبل هو للشباب ، فهم الذين يجب أن يستلموا المشعل منـا . ان مهمتنا هي أن نوحي إلى شبيبة بريطانية ورابطة الشعوب البريطانية ، أن يستهدفوا غرضاً أخلاقياً عاماً مبنياً على إيمانٍ واعٍ وقوي بالدين المسيحي . فإذا استطعنا بعدها أن نوحّد شبابنا وراء قـادة يهتمّون بهذا الدين كما يهتمّ الشيوعيون بعقيدتهم ، فما من شيء نخشاه ، لا الأعداء ولا المشكلات الاقتصادية ، إذ يمكن التغلب عليها معاً إن أهم ما في التربية – وفي الحيـاة لذلك – هو أن يكون لدى الولد أو الشاب إحساس بالغرض ، قويّ إلى درجة تمكّنه من مواجهـة الصعـاب والتغلب عليها . إن غرضاً كهذا لا يبنى الا على عقيدة . ولا يمكن تنمية هذه العقيدة الا في زمن الصبا . لكنه يجب أن تكون هذه العقـيدة حسنة ، فالعقيدة السيئة هي السبب في معظم ما نعانيه اليوم من اضطرابات .

لقد ذكرت كلمة المشعل بصدد الشباب . ان هذه الكلمة استعملها جون ماكري (John Macrae) في قصيدته « في حقول الفلاندرز » التي قال فيها :

« خذ المشعل وارفعه عالياً
فإذا نكثت بعهدك معنا
نحن الذين نمـــوت
فلن نرقد في قبورنا مطمئنين » .

اننا نحتفل في أيام مذكورة في كل سنة بذكرى أولئك الذين ماتو في سبيل الحرية التي نتمتع بها اليوم – كيوم الهدنة في تشرين الثاني، ويوم معركة بريطانية في أيلول وغيرهما من الأيام المذكورة . ففي مثل هذه الأيام يجتمع الناس في كل بلدةوقرية حول النصب التذكارية ليضعوا عليها باقات الورود على شرف أولئك الذين سقطوا من أبناء بلدتهم وقريتهم . ولكن هل ان شبابنا يدركون ، بـــل هل اننا جميعاً ندرك ، ان في الأيام المذكورة هـــذه تحدٍ لنا ؟ . وما هو هذا التحدّي ؟ انه كما يلي :

لقد وهب هؤلاء كل شيء من أجلي ، فهل أنا أستحق ذلك ؟ وإذا كنت استحقه فماذا أنا فاعل من أجله ؟ . وأخيراً ان جيلنا مدين كثيراً الى الأجيـــال الماضية ، فماذا أنا فاعل لأجعل المستقبل مديناً لنا بشيء ما ؟

هذا هو التحدّي وقـــد يجد بعضنا صعوبة في الإجابة على هـــذه الأسئلة الثلاثة . لكنه ينبغي تعليم شبابنا لينظروا الى حياتهم على ضوء ذلك .

هاأنذا أقترح أموراً أربعة لنفكـّر فيها :

الأول – عند تنشأة ولد ، أو شاب صغـــير ، يجب أن نفترض مقدماً انه صالح . وينبغي أن نعدّه طالحاً لمجرد الاشاعة أو الأقاويل . فهو إذن صالح حتى يظهر طلاحه .

الثاني – بعد تحليل صفاته الطيبة ، يجب أن نركـّز على تقويتها ، بدلاً من انتقاده وترديد أخطائه دائماً. وعندما تبدأ خصاله الطيبة في الازدهار، ستغطـّي الأخطاء التي ستتلاشى في النهاية . ان المثل الذي قيل عن البستاني ينطبق هنا. فالبستاني الذى يقضي أوقـــاته كلها في استئصال الحشائش الضارة ، لا ينبت ازهاراً جميلة .

الثالث – سئلت ذات مرة عن رأيي في أسوأ جريمة يمكن أن يرتكبها أي رجل؟ . فأجبت من غير تردد : « تضليل ولدٍ أو طفل اخلاقياً » .

وأضفت إلى ذلك أقول : انه ما من عقوبة تعدّ قاسية بحق رجلٍ كهذا .

الرابع : سألت صديقاً شاباً في الآونة الأخيرة ، وهو تلميذ مدرسة في السادسة عشر من عمره ، ما هو الأمر الهام الذي يعتقد انه يؤثر في الشبان ؟ فأجابني بدون تردّد : « المثال » . وربما كان جدير بنا أن نتذكر جميعاً هذا الأمر وأن نعمل به . ولقد رأينا مدى التأثير الذي يحدثه « المثال » في الرسالة التي كتبها ولد بعد عودته من دورة (آوتورد باوند تراست) ، وهي التي أشرنا إليها قبل هذا .

في ايام الصبا

إذا عدت الاقتراحات التي قدمتها أعلاه الى المتقدمين في السن صائبة ، فما هي النصيحة التي يمكن أن اقدمها الى الشباب ؟ – كيف يمكنهم ان ينالوا مجد الفتوة ؟. انني اقدم لهم الوصايا الأربع التالية :

اولاً – ليكن لديك شيء من رزانة الفكر . ان ذلك لا يعني ان الولد او الشاب يجب ان لا يكون سعيداً نبيهاً بل بالعكس ، ولكن أنبه الناس هو من كان ذا عين بصيرة وقلب بسيط وضمير طاهر ، ومن يحاول متواضعاً وقلبياً التمسك الشديد بقاعدة داود الذهبية في المزمور (١٣٧) .

« كن حسن النية ، وافعل الشي الصحيح دائماً ، فذلك هو الذي يدخل الراحة في قلب الانسان في النهاية » .

ان الملذات التي لا نهاية لها ، والفرص الضائعة والامتيازات التي يساء الاستفادة منها – كل هذه أمور لا تعوّض عن ضياع الفضيلة وفقدان الرجولة وعدم احترام النفس .

ثانياً – اوصي بالطاعة – تلك الفضيلة السامية التي يبنى عليها السلطان . وهي تعني قبول قانون الواجب ، عن رضى ، قانوناً للحياة . ان الله سبحانه

وتعالى يفوّض شيئاً من سلطته الى رفاقنا البشر منذ السنين الاول من حياتنا . يفوّضه اولاً الى أبوينا . ومن ثم الى الذين يولون علينا . فاحترام السلطة إذن واجب مقدس كما هو أمر إلهي . وما من عصر انتهكت فيه حرمة هـذا الامر إلا وساد فيه الفساد . ان آمال الامم تتعلق في اخلاص ابنائها وتواضعهم، وفي طاعة شبيبتها واحترامهم لمن هم أكبر منهم سناً .

اين تكمن عظمة سبارطة ؟. لقد ظهر ذلك جلياً في العبارات المدونـة على قبور الثلثمائة في ثيرموبلي[1] ، فهي تقول :

« أيها المار بنا ، اذهب وقل للاسبارطيين
لقد متنا هنا اطاعة لقوانينهم . »

أليست الطاعـة – أليس مجرد الاخلاص لمجرد الواجب ، هو أساس كل شيء عظيم في شرف بريطانية ؟ ماذا حدث عندمـا تحطمت السفينة بيركنهيد (Birkendhead) في شباط ١٨٥٢ ؟ كانت هذه ناقلة جنود في طريقهـا الى جنوب افريقيا . وقد اصطدمت في الساعات الاولى من الصباح خارج المنطقـة الخطرة على بعد نحو خمسين ميلاً من مدينة الكاب (Cape Town) . وقـد أخلي منها النساء والاطفال بواسطة القوارب القليلة التي أمكن انزالها الى البحر. وامر الضباط الجنود ان يقفوا ثابتين على ظهر السفينة، وان لا يخـاطروا باغراق القوارب بالقفز عليها من فوق سطح الباخرة . فأطـاع الجنود الاوامر وغرقوا مع السفينة وهم وقوف على ظهرها وفي « وضع الاستعداد » . وكان من بين تلك الزمرة المقدامة التي غرقت ، ضابط واحـد و٤٧ جندياً من كتيبتي (رويال ورو كشاير) (Royal Worwiekshire) . فهناك مثال لعشرات الرجـال الذين اعتادوا الضبط والطاعة ، يفضلون الموت على مخالفة الأوامر .

---

١ – ثيرموبلي (Thermopylae) مضيق في اليونان دافع فيـه ٣٠٠ اسبارطي ضد الجيش الفارسي الذي غزا اسبارطه حتى قتلوا عن بكرة أبيهم ، وكان ذلك عـام ٤٨٠ قبل الميلاد . وفي العبـارة المكتوبـة على النصب التذكاري يخـاطب هؤلاء الابطال أحد المارة بقبرتهم .

ثالثاً – اوصي بالجد والمثـــابرة . فالوقت المتيسر العمل والدراسة قصير . وسن الصبا سرعان ما يمر من غير ان نشعر به، الى دور الشباب فدور الرجولة. عندما زار نابليون مدرسته القديمـــة بريين (Brienne) ، خـاطب الاولاد المجتمعين بالعبارات التالية ، ولم يقل غيرها : « أيهـــا الأولاد . تذكروا ان كل ساعة تمر في المدرسة عبثاً ، تعني ضياع فرصة من حياتكم في المستقبل . »

ويجب ان لا يجد الولد او الشاب نفسه على عتبـة الرجولة ، وهو مفلس في القوة والحكمة من جراء الكسل . وهذا ما سيحدث له إذا ما بدّد الشاب حيوية شبابه ، التي يفترض ان تكون من رأس مال مستقبله – بدلاً من ان يعيش على مورد الحاضر . ونصيحتي الى الشبيبة هي « لا تكن كسولاً أبداً . » ان الولد الذي يجمع المعرفة في صغره ، يكون قد خطا الخطوة الاولى للحصول على ثروة المعرفة والحكمة في الكبر .

رابعاً – لقد تعلمت في حياتي الخـــاصة ان صفات ثلاثاً ضرورية للنجاح : العمل الشاق ، والاستقامة المطلقة ، والشجاعة الأدبية – وهي تعني عدم خوف الإنسان من قوله ما يعتقده صواباً ؛ والثبات على هذا الاعتقاد .

فكرة أخيرة لنا جميعاً

ينبغي ان نتذكر انمعظم الاقتراحات عن احوال الشبيبة اليوم والمشكلات التي تواجههم ، وافضل الوسائل لمساعدتهم وهم في طريق النضوج ، انما يقدمهـا رجال ونساء قد اجتـــازوا زمن الشباب منذ سنين طوال . فإن لم ندرك هـــذا الاختلاف في العمر ، فقد تختلف النتائج النهائية عما نريد ، مهما كانت اقتراحاتنا قيمة ونوايانا صادقة .

والواقع ان اختلاف السن امر لا يمكن تجاهله . فالناس الذين يعيشون حياة تختلف عن حياتنا يختلفون عنا كذلك في شعورهم وتفكيرهم وأعمالهم . وان الدوافع التي تؤثر في الشباب والاماني التي تلهب خيالهم ، قلمـــا تشبه الدوافع والاماني التي تعمل في قلوب الناس الذين بلغوا أواسط أعمارهم . ذلك لأن آمال

الشباب ومخاوفهم وليدة أعمارهم . وهناك خطر من السهل ان نقع فيه إذا اخطأنا فاقترحنا على الشباب اموراً نحن نعتقد انها ينبغي ان تشغل افكارهم ومشاعرهم. وربما نعجز عن مساعدتهم لأننا لا نفهمهم ، او لأننا نجعلهم يشعرون بأننا لا نفهمهم .

ان الأساس المادي للأزمان قد تغيّر تغيراً كبيراً في السنوات الاخيرة . بل ان ذلك قد حدث في أثناء حياة الجيل الحاضر نفسه . فالرفاه الذي نعيش فيه قد اعطى إحساساً جديداً بالاهمية والقوة الى آلاف المراهقين الذين لم يدربوا غير تدريب قليل على تحمل المسؤوليات التي تنطوي عليها حياة الرفاهة التي نعيشها . بل ان اكثريتهم الساحقة لا يدركون المسؤولية أبداً . وربما كان السبب في كثير من الانحرافات التي تصيب الشباب في يومنا هذا ، وعلى نطاق واسع ، هو عدم ادراكهم للمسئولية . ان روح هذا الزمن الذي تؤلف « دولة الرفاهة » شعاره ، تؤكد هذه المشكلة ، وتعلم الولد المراهق ان لديه حقوقاً ، لكنها تفشل فشلاً ذريعاً في ان تؤكد له أيضاً ان هذه الحقوق تنطوي على التزامات متممة . فيجب ان نتعلم كيف نوجه الخيال الاجتماعي لأبنائنا ، من دون ان نبالغ في الوقار . ومهما كان وجود « دولة الرفاهة » مثيراً ومنعشاً للأمل ، فاننا سنعيش في ظل خطر عدم المبالاة ما لم نتمكن من أن نعلن على نطاق واسع ، ان المجتمع لا يمكن ان يكون سليماً وقوياً إلا إذا آمن أفراده بأغراضه الديمقراطية – وكانوا راغبين في ان يقوموا بأدوارهم في إدامة حيويته

هذا واننا لن نحقق الصحة الفكرية والادبية والروحية والعاطفية في الاولاد والبنات بمجرد حثهم على ان يكونوا خيرين وأمناء وصادقين ونافعين. إذ لو كان الامر بهذه السهولة لتغلبت المواعظ الدينية ، منذ أمد بعيد ، على الضعف البشري !. ان لاطفال الذين يتعرضون في طفولتهم الى القلق وعدم الاستقرار الادبي والعاطفي ، ينـدر ان يشعروا بالأمن والاستقرار الأدبي او العاطفي في حياة الصبا او الرشد . وان ما يحتاج اليه الطفل الصغير أكثر

من أي شيء آخر هو الحب والشعور بالطمأنينة . فهو يريد أحداً يقبله ويعترف به . وهو يريد ان يشعر ان أبويه أقوياء ويعتمد عليهم ، وان سلطانهم عليه معتدل وعادل . ويجب ان يتعلم الطفل (ولداً كان أم بنتاً) دروس الحب والتعاون والصدق في السنوات الست او السبع الاولى من حياته ، كما سبق ان أكدّنا على ذلك في هذا الباب .

أما فيما بعد ، وخاصة في دور المراهقة ، فعلى الآباء ، إن كانوا عقلاء ، ان يقللوا تدريجياً من سيطرتهم على اطفالهم ، ليفسحوا المجال لهم لإنماء قواهم العقلية وشخصيتهم المستقلة . وان الطريقة الوحيدة التي يصبح بها الطفل معتمداً على نفسه ، هي المران المستمر . فالشباب سريعو التعوّد على تحمل المسؤولية بصدر رحب ، وعلى الآباء ومعلمي المدارس ومديري الصناعات وقادة الشباب ان يركزوا انتباههم على هذه المشكلة الهامة ، وان يهيأوا فرصاً كثيرة للاولاد يتولون خلالها قدراً محدوداً من المسؤولية .

فبهذه الطريقة وحدها تستطيع أمتنا ان تهيأ القادة الذين نحن بأشد الحاجة اليهم في جميع مناحي الحياة .

والحق ان جهوداً كثيرة قد بذلت في العالم الغربي لحل المشكلات الاساسية للخوف والعوز المادي – أي التحرر من العوز . ولكن هل أبدينا اهتماماً كافياً في بناء اسس **السلوك** ؟ وهل ان شبابنا راغبون حقاً في الاستفادة من حريتهم لتحمل المسؤولية وانجاز شيء ما ؟. أم هل صرنا جميعاً نخشى الحرية الحقيقية الايجابية الى درجة اننا تركنا التحدي الذي يواجهنا بتقييد أنفسنا وأطفالنا في قيود الامتثال (الروتيني) المعجز .

هذه هي بعض الاسئلة التي يجب ان نسأل أنفسنا عنها .

الباب الثاني عشر

القيادة في الغرب

من الصعب كتابة هذا البـاب في أي مستوى كان . ذلك لانني لو قلت الحقيقة ، فقد يسبب ذلك الاستياء في بعض المحافل . على انه من حق كل امرء أن يبدي رأيه . ويجب ان لا ننسى أيضاً ان للحقيقـة أوجهـاً عديدة ! . ومهما يكن الأمر فـلا مناص لي من البحث في هذا الموضوع ، لا سيما ونحن سنبحث في القيادة الشيوعية في البـاب القادم . – ولذلك فينبغي أن نعالج مشاكلنا الخاصة أولاً .

ان القيادة الغربية اليوم (١٩٦١) غير واثقة من نفسها تماماً . وربما كان الأولى بنا أن نبدأ بالبحث عن السبب . فعندما جـاء هتلر الى الحـكم ، تبنّى سياسة التوسّع الاقليمي ، خارج الحـدود الشرعية لالمانيا . وانتهي به الأمر أخـيراً إلى شنّ حربٍ اجماعية عام ١٩٤٠ لتحقيق اغراضه على عجل . وسرعان ما اكتسحت قوات المانيا المسلّحة الدول في أوربا الواحـدة تلو الأخرى .

ثم رأى العالم رابطة الشعوب البريطانية ، تقاتل وحدها ضد القوى المشتركة لدولتي المحور–المانيا وايطاليا – اللتين كانتا مسيطرتين على قارة أوربا بأسرها .

ويجب أن نضيف إلى ذلك فنقول ، انه لولا القتال البريطاني لكان من المحتمل كثيراً أن تصبح بريطانية نفسها تحت الاحتلال الألماني . ولو حدث ذلك ، لانطفأ نور الحضارة الغربية . ولكننا وقفنا صامدين ، وبعزمنا الشديد شتّتنا العاصفة في تلكم الأيام السوداء من عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ .

ولكن لماذا استطعنا أن نصمد حين بدأ الجميع وكأنهم قد ضاعوا ؟

أولاً – لاننا بريطانيون . فنحن شعب ذوو روح استقلالية وفردية . وان تحرّرنا من الظلم منذ أمدٍ بعيد قد ولّد فينا ثقة بأنفسنا وإيماناً شديداً في حق الفرد في أن يكون حراً يعيش حياته الخاصة ، وأن يعمل ما يشاء ضمن حدود القانون بطبيعة الحال . وقد اقتنعت أكثرية الشعب البريطاني أن حرب هتلر هي حرب الحياة أو المات بالنسبة لبريطانية . وكانت فكرة بقاء بريطانية حرة ومستقلة وقوية ، عميقة في نفوس أبنائها . أما شعار « الحرية » ، فلم يعنِ كثيراً إلى عامة الشعب . بل ان حقيقة الحرية كانت مفقودة في الغالب . فقد كان الكثيرون من أفراد الشعب البريطاني معرّضين إلى نوعٍ أو آخر من أنواع الضغط الاقتصادي الذي قلّل كثيراً من حرية عملهم . لكن وهم الحرية كان يقدّر بقدر حقيقتها تقريباً . فحرية الكلام وحرية الصحافة والحرية التي تجعلك أن تعيش الحياة التي تريدها – كل هذه أمور كانت تستحق أن يحارب الفرد من أجلها . فلو أراد الألمان أن يمنعوا (توم جونس [1] (Tom Jones) من الذهاب إلى الحانة ، لحارب توم جونس الألمان . لكنه كان يحارب من أجل حريته الفردية ، أكثر مما يحارب في سبيل مبادىء مجردة لها علاقة بها – أي كـ « قضية » مثلاً .

اننا البريطانيون نحارب أفضل عندما نعقد العزم على ذلك . ماذا قال بيريكليس (Pericles) في الحرب التي دارت بين أثينا واسبارطة ؟ . لقد قال : « انهم (أي الاسبارطيين) يجدّون منذ الصبى في طلب الشجاعة ، أما نحن (الاثينيّين) فمع اننا نعيش أحراراً وننتقل كما نشاء ، لكننا إذا ما عقدنا

---

١ – اسم عام باللغة الانكليزية كزيد وعمرو باللغة العربية .

العزم لا نقل عنهم شجاعةً في مواجهة الأخطار نفسها » .

لكم يعجز أعداؤنا عن هذه الحقيقة ! . انني لا أعتقد ان الجنود البريطانيين يتأثرون كثيراً بـ « قضية » معينة . فهم لا يتقدّمون في أرضٍ تكتسحها النيران سعياً وراء مثل عليا أو من أجل شعار معيّن كالحرية أو الدمقراطية . ان الجندي يتقدم في المعركة لان قائده يتقدم أمامه ورفاقه يتقدمون حواليه — وذلك بعد ان يثق في قائده ويشعر نحو رفاقه بشعور التضامن والاتحاد . والواقع ان القيادة والاتحاد هما اللذان ولّدا فينا ، نحن البريطانيين ، الانضباط وساعدانا على أن نصمد في حرب هتلر .

ثانياً — يتّضح مما ذكرته أعلاه ، انه كان لدينا قائد جاهز لتولي القيادة — وهو ونستون تشرشل . فناشد روح الشعب البريطاني ، وأوحى إلى الأمة ، وولّد فيها إحساساً بالغرض . كما انه أعطى ثقة الى الدول الأخرى التي اكتسحتها المانيا — أو التي كانت تنتظر على الخط الفاصل لترى أي من الطرفين سيربح الصراع قبل أن تشترك فيه . والأمر الذي يقتضي أن نلاحظه ، هو ان ونستون تشرشل ، قاد الدول الحليفة في حربها ضد دول المحور ووحّد صفوفها. وان هذين العاملين ، القيادة والاتحاد ، قد حقّقا لنا الظفر أخيراً . ولكن القيادة كانت أساس كل شيء . واني اعتقدت دوماً ان ما فعله ونستون تشرشل لضمان ظفر الحلفاء في الحرب يفوق ما فعله أي رجل آخر — والفضل في ذلك يعود الى قيادته الرشيدة .

زعامة الولايات المتحدة

عندما انتهت الحرب الهتلرية ، انتقلت زعامة العالم الحر ، الى الولايات المتحدة الامريكية . وإني أرى انه كان بامكاننا تثبيت زعامة بريطانية في أوربا الغربية ، في أي وقت كان بين أواسط عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٠ مثلاً . ويمكن إلقاء اللوم في اهمال ذلك على عاتق حكومة العمال التي كان يرأسها (اتلي) . وربما كان (ارنست بيفن) هو المسئول الأول عن هذا الاهمال وعدم التبصّر .

ولقد وجّه ساسة حزب العمال اهتمامهم ، يومئذٍ ، نحو انشاء « دولة رفاهة » في بريطانية وتأميم الصناعة ، نحو سن الدراسة في زمنٍ لم يتيسّر فيه الأبنية أو المعلمون لمواجهة العدد المتزايد من التلاميذ . ان هذه الأمور كانت لازمة ولا شك ، ولكن حكومة العمال قامت بها كلها في آنٍ واحد وبسرعة ، وهو ما لم يكن ممكناً في حينه . وبانشغال بريطانية في مشاكلها الداخلية ، اضطرّت الى اهمال مشاكلها الخارجية . وقد أعطى للتحالف مع أمريكا الأولية على زعامة بريطانية لأوربا . وربما كان ذلك هو الصواب ، ولكن الاهتمام في التحالف مع أمريكا لم يكن ليبرّر اهمال الزعامة البريطانية في أوربا ، بل كان في الامكان ان نعمل وفق كلتا السياستين في آن واحد .

وبعد ذهابي الى فرانسه لأعيش فيها عام ١٩٤٨ ، كنت أعود الى لندن من حين لآخر ، وأزور المستر بيفن ، الذي كنت أحمل له أشد الاحترام . فكنت أؤكّد عليه ، مرةً بعد أخرى ، ان بريطانية يجب أن تقوم من عزلتها ، وأن تضع أقدامها في أوربا — وكنت أضيف الى ذلك بقولي : انه في وسعنا أن نقوم بذلك دون أن نضرّ حلفنا مع امريكا، أو مسئولياتنا تجاه رابطة الشعوب البريطانية . ولكن أقوالي هذه ذهبت عبثاً . وأخيراً ، جاءت وقت لم يعد في وسع أوربا فيه أن تنتظر، أكثر مما انتظرت ، فأضعنا بذلك زعامة أوربا الغربية . ولكن كيف سار الغرب تحت قيادة الولايات المتحدة ؟ .

أظن أنه يجب أن نعترف ان قيادة الولايات المتحدة لم تكن دائمة الاندفاع لأسباب عديدة . فقد بدأت بداية حسنة في أول الأمر ، لأن أكثرية دول أوربا كانت تعاني الخراب من جراء حرب هتلر . وكان النظام الاقتصادي في العالم قد تضعضع . فقدّمت أمريكا بسخاء مساعدات اقتصادية ، ومعدّات عسكرية ، إلى الصديق والعدو على حدٍ سواء . وبنتيجة ذلك استفاقت دول أوربا الغربية اقتصادياً في وقت أسرع بكثير مما استفاقت به بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . وحقّقت المانيا الغربية واليابان درجة من الرفاهية ربما تزيد على ما حقّقته بعض الدول الأخرى التي حاربت ضدها .

وقد يظن الكثيرون ، ان الولايات المتحدة ، كان يجب أن تكسب شكر ومودّة الدول التي قدّمت لها هذه المساعدات السخيّة . ولكن الواقع انهـا أخفقت في ذلك ، فما السبب يا ترى ؟ .

إذا كانت دولة ما ، واسعة الغنى ، وكان هنـاك عدد من الدول الفقيرة التي تريد ان تساعدها ، فان نجاحها في مساعدتها لهـذه الدول يتوقف كثيراً على طريقة تقديم تلك المساعـدات - لا سيما إذا كانت تلك الدول الفقيرة فخورة بنفسها ، ولديها حضارات وتقاليد عريقة. ان قادة أمريكا لا يدركون ، على ما يظهر ، ان التأريخ سيقيس زعامتهم للعالم الحر بالطريقة التي مارسوا بهـا هذه الزعامة اكثر من قياسها بعدد الدولارات التي وهبوها لدول هـذا العالم . وقد ظن الامريكيون على العموم ، انـه في وسعهم شراء كل شي بالدولارات ، إلا انهم سرعان ما وجدوا انه لا يمكنهم ان يشتروا بالنقود مـودة الشعوب الفخورة واخلاصها . فهذه الشعوب تريد ان تقرر مصيرهـا بنفسها ، وتأبى ان تترك ذلك الى الولايات المتحدة . ان ذلك ينطبق على الدول النـاشئة بصورة خاصة . وثمة مسألة أخرى يجـدر ذكرها ، وهي ان الأمريكيين يرغبون أشد الرغبة في ان يحبهم غيرهم. وقد اصيبوا بصدمة عندما شعروا ان الاوربيين يكرهونهم كراهية شديدة برغم الدولارات التي وهبوها لهم .

اما نحن البريطانيين فإننـا نختلف عن الامريكيين في هذا الصدد ، فإننـا لا نتوقع من غيرنا ان يحبونا . وهو أمر يختلف من حيث النتيجة عمـا حدث للامريكيين . فلقد كنا بغضاء في تأريخنا أشد البغض !. على أننا لا نملك طبعاً، دولارات زائدة لكي نعطيها الى غيرنا ، ولذلك لا نتعرّض لخطر تعرض اليـه غيرنا ، فعدوا افظاظاً متعجرفين !

ثم ان بعض الأمم قد أصابتها الحيرة ، حين وجدت ان الامـة الامريكية التي كانت قـد احجمت احجامـاً شديداً في حربين عالميتين سابقتين ، عن الاشتراك في القتال ، بـل ولم تشترك فيه إلا بعد ان كافحت أمم العـالم الحر الأخرى وحدها وبدونها ، بضع سنوات ، ان هـذه الامم قد احتارت حين

وجدت أن الامة الامريكية نفسها تبدو اليوم، وكأنها اكثر احتمالاً من غيرها . لان تقودنا الى حرب عالمية ثالثة !. انني أظن ان سبب ذلك يعود الى الصدمة التي أصيبت بها كرامة الامريكيين حين باغتهم اليابانيون في (بيرل هاربر) في ٧ كانون الاول ١٩٤١ . وهم مصممون على ان لا يباغتوا ثانية . لذلك فهم يصرون على ان يكونوا دوماً في حالة من التهيؤ للحرب هي ليست غير ضرورية فحسب بل انها قد تولد أيضاً انفعالاً ، او ربما بلبلة ، بين الدول الاخرى في الحلف الغربي - هذا عدا عن الشك القوي الذي تحدثه في دول الكتلة الشرقية ، وهو الامر الذي يحول دون حدوث أي تقدم في موضوع التعايش السلمي ، او في مباحثات نزع السلاح .

وعلى كل حال ، فالمستنتج مما ذكرناه هو ان الموقف العالمي العام قد ساء تحت زعامة امريكا - فهو اليوم أسوء مما كان عليه قبل بضع سنوات . وفي بريطانية ، كنا نرجو جميعاً ان يؤدي التقارب الذي كان من المتوقع حدوثه بين امريكا وروسيا في أعقاب محادثات كامب ديفيد (Camp David) ، الى ارخاء التوتر الدولي . فإن آيزنهاور معروف في العالم بأسره بأنه على جانب كبير من حسن النية ، والاخلاص . وقد ظهر أخيراً ان خروشيف هو الآخر كان ينوي إظهار شيء من حسن النية ، او ان يكون معتدلاً على الأقل . ولكن حسن نية آيزنهاور فقدت قيمتها بالنسبة للغرب في مارس ١٩٦٠ عندما أخذ على عاتقه مسؤولية حادثة طائرة (يوتو) . إذ ان اعترافه بمسؤولية هذه الحادثة كان كارثة ، لا سيما وانه كان لا يزال أمامه نحو ثمانية أشهر من مدة رئاسته ، وربما حققت حسن نيته خلال هذه المدة إرخاءاً آخر في التوتر الدولي . ولو استطاع ان يقوم بزيارته المقررة لموسكو في حزيران ١٩٦٠ ، وان يذهب بعدها الى طوكيو ، لأصبح كل شيء على ما يرام . ولكن الحقيقة المؤسفة هي ان القيادة الامريكية قد اخفقت في معالجة حادثة طائرة (يوتو) بطريقة تساعد رئيس جمهوريتها على الاستمرار في ممارسة اخلاصه وحسن نيته من أجل السلام العالمي . ولا نغالي إذا قلنا ان الحكومة الامريكية قد تعثرت

في كل خطوة خطتها عند اكتشاف الروس الطيران التجسسي فوق بلادهم ، وهو الامر الذي أدى الى ان يفقد الحلف الغربي احدى مؤهلاته الكبيرة ، ألا وهي حسن نية الرئيس آيزنهاور .

هذا وان من الامور المعروفة جيداً، ان لجميع دول العالم خدمة استخبارات سرية ، وان هذه تستفيد من أساليبها الخاصة في الحصول على المعلومات . ولكن واشنطن خالفت القواعد الاساسية الثلاث لأعمال الخدمة السرية وهي .

١ – حاول ان لا تعرف

٢ – فإذا انكشف سرك فلا تعترف به

٣ – القِ اللوم دائماً وجازماً على عاتق الغير .

ولقد علمنا ان خروشيف أثار في محادثات (كامب ديفيد) قضية طيران التجسس الامريكي الذي كانت روسيا على علم به . وقيل إن آيزنهاور قد وعد بإيقافه – مهيئاً بذلك ، جواً مناسباً لمحادثات أخرى . ولكنه عندما قبل آيزنهاور بعدئذٍ ، مسؤولية الطيران التجسسي وصرّح بأن ذلك سيستمر ، اضطر خروشيف ان يقف الموقف الذي وقفه في باريس . ولو لم يفعل ذلك لكان من المحتمل ان يفقد منزلته في روسيا فيما بعد – وهو أمر لم يكن في وسعه ان يجازف به .

وانه لمن المفجع حقاً ان يؤدي الجو الذي سبق مؤتمر القمة في باريس ، الى تحطيم الجو الذي ساد العالم بعد محادثات كامب ديفيد ، تحطيماً تاماً . ولا شك ان البعض سيتهمني بالتعقل بعد فوات الاوان . فمن الطبيعي ان الامور تبدو اكثر وضوحاً إذا نظر المرء اليها بعد أوانها ، ولكن يجب ان لا ننسى ان هناك فضيلة كبرى هي سبق النظر في الأمور كما ان هناك مبدأ المرونة في وضع الخطط . وان المرء لا يسعه إلا ان يعتقد بأن واشنطن لم تدرك عند اتخاذ قراراتها الى أين الأحداث سائرة في روسيا والشرق .

اوهام الغرب

ان إحدى المشاكل الكبرى ني الغرب هي أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة في اوربا وآسيا قد بنيت على الاوهام . ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن بريطانية .. ولكن بريطانية قد احجمت عن القيام بالعمل الصحيح والمنطقي، خشية ان يؤدي ذلك الى إضعاف حلفنا مع الولايات المتحدة. وكانت دول الحلف الغربي يعوزها الشجاعة لمواجهة الحقائق العملية .

وانه لوهم لا يقبله العقل ، ان نتوقع من روسيا الموافقة على توحيد قسمي المانيا ، وتسليحها بالأسلحة النووية ، وضمها الى الحلف الغربي – إذ إن ذلك من شأنه أن يجعل مواقع الصواريخ التي تقذف الأسلحه النووية على الحدود البولندية .

ومن الأوهام الأخرى التي يمكن ان نذكرها ، عدم الاعتراف بوجود ألمانيا الشرقية ، او الادعاء بأن الاحداث التي جرت في اليابان في حزيران ١٩٦٠ ، قد دبرها عدد قليل من المشاغبين الشيوعيين العاملين بتوجيه خارجي .

وفيما يتعلق باليابان ، انني أعتقد بأن اليابانيين يرغبون في أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، ولا يريدون ان يكونوا من الدول السائرة في ركاب امريكا.

ولعل أكبر أوهام الولايات المتحدة هو افتراضها بأن حكومة الصين الحقيقية هي حكومة فرموزا ، ورفضها ان تعترف اعترافاً واقعياً بجمهورية الصين الشعبية التي حكومتها في بكين .

ولنفكر أيضاً في مشكلة احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة ، حرب نووية عارمة بين الشرق والغرب . ففي أعقاب حرب هتلر عام ١٩٤٥ ، انقسم العالم الى كتلتين تدينان بمذهبين متنازعين او بشريعتين أدبيتين متناقضتين . فهناك الكتلة الشرقية بقيادة روسيا ، ثم الكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة . وقد ظن الكثيرون في وقت من الأوقات بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٢ ، أن الصراع بين الشرق والغرب ، قد يؤدي الى الحرب . ولكن تشكيل الناتو

والاعمال المجيدة التي قامت بها هذه المنظمة ، مضافاً الى ذلك ادخال وسيلة رئيسية جديدة الى الاستراتيجية العسكرية - وهي الرادع النووي - قد قضى على امكانية التجاء الكتلة الشرقية الى الحرب تحقيقاً لأغراضها وأهدافها. كما ان الكتلة الغربية سوف لا تبدأ الحرب لأن تسليحها خلال السنوات الماضية كان لأسباب دفاعية بحتة. وهي لن تهاجم الكتلة الشرقية إلا دفاعاً عن النفس - ولا تشن أبداً ، وبطبيعة الحال ، ما يسمى « بالحرب المانعة » (Preventive War).

ليت دول الكتلة الغربية تعترف بهذه الحقائق الاساسية. إذن لأصبح من السهل تمهيد الطريق الذي أمامنا ، ولأمكن ايضاً ، ان نقلل الى حدٍ كبير احتمال التورط بالحرب من جراء خطأ في التقدير او حادث عرضي. وان الاتفاق على هذه الحقيقة الأساسية هو الخطوة الاولى نحو ارخاء التوتر الدولي بين الكتلتين - ذلك التوتر الذي إذا ما قلّ ، وامكن إزالته في النهاية ، يتمهد السبيل نحو نزع السلاح. ولكن الغرب ، تحت قيادة الولايات المتحدة ، لا يقبل هذه الحقيقة. ان بعض القوى قد بدأت تعمل وتتململ في روسيا والعالم الشرقي الآن - وليس في وسع الغرب ان يبني خططه السياسية على الاوهام.

مشكلة روسيا

لا شك ان المشكلة التي تواجه القيادة الغربية في يومنا هذا هي العلاقات بين الشرق والغرب ، ويمكن ان تتلخص هذه بمشكلة روسيا.

ان لروسيا دوراً إيجابياً من حضارة اوربا وثقافتها - وفي نواحي الموسيقى والبالية وغيرها.

وثمة شيء واحد لا نريد ان نراه الا وهو وقوف روسيا بجانب آسيا ضد اوربا. إذ اننا نريدها ان تنظر نحو الغرب. ولكن ليس من السهل ان نقوم بذلك. فان روسيا هي ليست من الدول المغلوبة في حرب هتلر ، شأن ألمانيا

الغربية ، بل هي دولة منتصرة ، غنية بالانجازات الفنية ومحاطة بالتوابع والحلفاء . ولقد تألف الحلف الغربي في دور الانفعالات والتوترات ، ذلك الدور الذي بدأ بالحصار الروسي لبرلين الغربية في عام ١٩٤٨ وبلغ ذروته بنشوب الحرب الكورية عام ١٩٥٠ . وقد تم الاتفاق على ان الغرض الوحيد من إنشاء هذا الحلف وقيامه بالعمل ، هو إيقاف التوسع السوفيتي في اوربا — وقد نجح في هذه المهمة . ثم ذهب المستر ماكميلان الى موسكو في شباط ١٩٥٩ . فكانت زيارته هذه بداية علاقات شخصية جديدةبين القادة السياسيين للكتلتين الشرقية والغربية . وتمخض عن ذلك ذوبان في ثلوج الحرب الباردة . ولكن ذلك كله انهار، ومع الاسف، في مؤتمر القمة الذي انعقد في مارس ١٩٦٠ ، في باريس كما رأينا قبل هذا .

والآن، هل في الامكان استعادة ما فقدناه في علاقاتنا مع روسيا؟.أعتقد أن ذلك ممكن ولكن الامر يتوقف كثيراً على كيفية معالجة الولايات المتحدة للموقف. وربما نكون قد فقدنا (معارك) سياسية قليلة ولكننا لم نخسر (الحملة) بعد. فالحلف لا زال قوياً ، والولايات المتحدة لا زالت أقوى دولة في العالم . ومن البديهي ان الغرب يحتاج الى ضمان لا شك فيه ، بان أي اتفاق مع روسيا يكون مخلصاً وجازماً، وانها لن تعيد فتح جبهة الناتو ثانية في اوربا في المستقبل ، ولن تحاول الحصول على مغانم عن طريق التهديد بالهجوم النووي-بل انها ستظهر استعداداً حقيقياً لملاقاة الغرب في منتصف الطريق على الاقل . على اننا قد نضطر الى ان نذهب الى اكثر من منتصف الطريق لملاقاة الروس . والصعوبة هنا هي في جعل الولايات المتحدة تواجه الاحوال المتغيرة . فما هي هذه الاحوال المتغيرة ؟

لقد زرت موسكو في نيسان ١٩٥٩ وتحدثت مدة يومين في الكرملين مع المستر خروشيف ، ومع وزير الدفاع الروسي ورئيس أركان جيشه . ومع ان موضوع الحرب العالمية الثالثة ، هو محور الأحاديث العامة في نصف الكرة الغربي ، فإن هذا الموضوع لا يذكر في روسيا ، والاعتقاد السائد هناك انه

خارج الإمكان . وعندما تزور موسكو تجد صداقة حقيقية في كل مكان – في الكرملين وفي الشارع .

ان الشعب الروسي متعطّش الى البضائع الاستهلاكية – الى الغسالات الكهربائية والثلاجات وأجهزة التلفزيون ، وإلى كاليات العصر الحاضر . وهم يهتمّون اهتماماً حقيقياً في شعوب الدول الأخرى .

وربما كان ذلك لأول مرة في التأريخ . فلقد عاشوا قروناً طويلة في العزلة . فلم يكن الستار الحديدي من إيجاد ستالين وحده . واليوم ، يريد الشعب الروسي أن يعرف ، وأن يرى . وليس لحب اطلاعه من حدود . وخروشيف يريد أن يستفيد من ذلك ، ليمنح الشعب الروسي ما يريده ، وأن يذكره التأريخ كـ « رجل السلام » الذي حقق للشعب الرفاهة والأمن بخلاف لينين وستالين – اللذين لم يفعلا ذلك .

ولكن خروشيف يواجه صعوبتين كبيرتين . الأولى هي ان يحقق بطريقة ما ، ارخاءً في التوتر الدولي ليتسنّى له أن يتابع سياسته الداخلية في جوٍ سلمي . لكنه يلاقي ضغطاً من داخل روسيا موجّه ضده . والثانية هي انه غير واثق تمام الوثوق ، من موقف جمهورية الصين الشعبية . خلاصة القول : يبدو ان المنطق ، يحتّم على الغرب ، أن يبدي تجاوباً ودّياً مع الروح الجديدة التي يبديها خروشيف في روسيا . وإذا استطاعت دول الناتو ان تتفق مع حكومة الاتحاد السوفيتي اتفاقاً يمكّن روسيا أو الحلف الغربي من العيش بسلام ، فسيعود ذلك علينا وعلى روسيا بفوائد جمّة . وإذا كان ما قلته هو الصواب ، وإني أعتقده كذلك ، فعلى دول الحلف الغربي ان تعيد النظر في سياستها الخاصة بروسيا كما سبق ان اقترحت ، وبالصين الشعبية أيضاً . فالسياسة الامريكية التي استهدفت مقاطعة الصين ، لم تنجح في كبح جماح هذه الدولة أو في مشاغلتها ، وهي لن تنجح في ذلك بعد الآن أيضاً .

الصين الجديدة

في مايس ١٩٦٠ قررت زيارة جمهورية الصين الشعبية ، لأتعرّف على قادتها ، ولأطلع على آرائهم فيما هو ، جارٍ في العالم اليوم . ثم لكي أرى شيئاً من حياة الناس هناك . وقد ذهبت بصفتي الشخصية وعلى مسئوليتي الخاصة. وقد أخبرني صديق لي ، عن سببٍ طريفٍ لزيارتي ، وذلك على أثر سماعه جنديين يبحثان في هذه القضية :

إذ قال الجندي الأول — « ما هو السبب الحقيقي لذهاب (مونتي) إلى الصين يا ترى » ؟

فأجابه الجندي الثاني — « ألا تعلم ؟ لقد كان ذلك من أجل فتاة » .

وكان الجنديان شابان من رعاع لندن . حقاً ان لرعاع لندن جواباً لكل شيء دائماً ! .

انني سأذكر في الباب القادم شيئاً عن قادة الصين ومقاصدهم . أما هنا فاكتفي بذكر المعالم البارزة في الصين الجديدة ، تلك المعالم التي ينبغي أن يهتمّ بها القادة الغربيون .

تحتاج الصين إلى سلمٍ طويل الأمد . وقد أكّد كل من ماونسي تونغ وشو آن لاي ، ان الصين قد تحتاج إلى ما يزيد عن الخمسين سنة لتستفيق من رواسب العدوان الخارجي ، والظلم الداخلي ، والحرب الأهلية الطويلة الأمد ، ومن جميع مشاكل الماضي على العموم ، ثم لكي تبني اقتصادها على أسس سليمة وراسخة .

فالسياسة الخارجية للصين إذن مبنيّة على القضية الداخلية — وهي تستهدف بناء هذه الجمهورية الشعبية لتصبح دولة عظيمة وجبارة . ولهذا الغرض فالسلم أمر ضروري للصين . ويجب أن لا يظن قادة الغرب ، ان ماوتسي تونغ كان الدافع الشرير وراء خروشيف في مؤتمر القمة ، في باريس في مايو عام ١٩٦٠ . فالصين بأشد الحاجة إلى السلم ، وليس في صالحها أن تحمل روسيا على اتباع

سياسة من شأنها أن تزيد في التوتر الدولي في العـــالم ، وقد تؤدي إلى الحرب . وفي أحاديثي مع القادة الصينيين ، لم أرَ منهم أي دليل يخالف هذا الرأي .

ان الصين ستصبح بعد عشرين سنة دولة تزيد نفوسها على ألف مليون نسمة، ولها قوات مسلّحة جبّارة مزوّدة بالأسلحة النـــووية ، ولديها اقتصاد قوي سريع النمو . وفي خلال خمسين سنة ، ستسيطر هذه الدولة الجبّارة على آسيـا وتصبح كأقوى دولة في أوربا – وربما في العالم أيضاً . فعلى قادة الغرب ، أن لا يعتريهم أي وهم حول هذه الحقيقة .

وقبل أن نحاول إيجاد الحل لمشكلة العلاقات الشرقية – الغربية ، ينبغي أن نتذكر عاملا آخر ، ألا وهو ، كراهية الصينيين للولايات المتحدة الأمريكية ، وإلى كل شيءٍ أمريكي . ولا تقتصر هذه الكراهية على قـادة الصين فحسب بل تمتد إلى رجل الشارع ، وإلى الفلاحين في الكوميونات . وقد يظن البعض ان ذلك أمر لا يهمّ كثيراً ، ولكنه في الحقيقة مهم جدّاً . فمن المؤسف حقاً أن تتعرّض الدولة الأولى في الحلف الغربي الى كراهية أعظم دولتين في الكتلة الشرقية – روسيا والصين ، وخاصة الصين ، التي هي أكبر دول العالم نفوساً .

القيادة والاتحاد

ما الحل يا ترى لجميع هذه المشاكل التي تحدق بنا ؟ . عندما وقع الغرب في أزمة ١٩٤٠ وجد الحل في القيادة والاتحاد ، والحل لمشكلاتنا اليـــوم ، هو هذان الأمران أيضاً . ولقـــد كنت من المؤمنين دوماً في أهمية القيادة إيماناً راسخاً . ولكن القيادة تحتاج إلى ثقة ، وهذا هو ما يفتقر اليه الغرب اليـوم . وان الواجب الأول للقيادة الغربية ، هو تخطيط استراتيجية المستقبل للغرب . فاننا نحتاج إلى سياسة عامة مبنية على الحقائق والوقائع – وليس على الأوهام . ان الولايات المتحدة ، ستبقى زعيمة الحلف الغربي – وهو النـاتو ، وعليها أن تبني زعامتها على أسس راسخة . غير انها تحتاج إلى شيء من اعادة النظر .

ومن الواضح ان الواجب الأول للقيادة الغربية هو تقوية النـــاتو سياسياً

وإقامة الاتحاد الحقيقي ، الذي كان ينقصها دائماً . وهـذا النقص هـو السبب الرئيسي ، في الموقف الذي نحن فيه اليـوم . لكنه يجب علينا ، نحن الذين في اوربا ، أن نقدّم الى الولايات المتحدة المساعدة التي من حقها أن تتوقـّعها منـا – وهـذه المساعدة ، هي أن تقف أوربا الغربية صفاً واحداً ، وأن تزدهر اقتصادياً ككتلةٍ واحدة . وعلينا نحن البريطانيين أن نأخذ المبادرة بأيدينـا في أوربا . لكن أوربا ، تعاني مشكلة كبرى ، فهي منقسمة على نفسها من الناحية الروحية . ولا نغالي إذا قلنا ، انه ينبغي إعادة النظر بصورة خاصة في الكيان السياسي والعسكري للنـاتو ، فبهذه الوسيلة وحدها سنحصل على خططٍ استراتيجية وسياسية مشتركة ، تشمل جميـع الكرة الأرضية – وهو مـا لم نحصل عليه حتى الآن .

قصيدة الشرق والغرب

كتب رديار كبلنغ (Rudyard Kipling) عام ١٨٨٩ الأبيـات الشعرية التالية :

« آهٍ ، الشرق شرق والغرب غرب
والجزءان لن يلتقيا أبداً
حتى تقف الأرض والسماء معاً
بين يدي عرش الله
ولكن لا شرق ولا غرب ولا حدود
ولا نسب ولا مولد
عندما يقف رجلان قويان وجهاً لوجه
وان جاءا من أقاصي الأرض ! »

إن هذه القصيدة تستحق القراءة ، فهي تنطوي على درسٍ لنا جميعاً . ولقد آن أوان التقاء الشرق والغرب على الرغم مما كتبه كبلنغ قبل سبعين سنة .
إن أولى الضروريات في هـذا الأمر ، هو أن نفكّر تفكيراً جليّاً حول

أكبر دولة في الشرق – ألا وهي الصين . فإن القوى المنفعلة المحبوسة في أكثر من ستمائة وخمسين مليون صينيّ قد انطلقت انطلاقة إيجابية وبنّاءة ألهبت خيالهم ، وان قوى عظيمة في الصين الجديدة قد بدأت تتململ . وخير نصيحة يمكن تقديمها إلى العالم الغربي ، هي أن يمدّوا يد الصداقة إلى جمهورية الصين الشعبية .

وستقوم الصين بدور متنامي الأهمية في شؤون العالم كلما تعاظمت قوتها ، وهي اليوم بلاد يسيء الناس فهم كثير من الحقائق عنها . لكنه مهما كان رأي كل منا عن سياسة الحكومة الصينية ، فلا ريب انه في صالح الجميع الحصول على معلومات صحيحة عن هذا الشعب وقادته . ولهذه الأسباب نفسها قمت بزيارة الصين في مايو ١٩٦٠ ، ان من الناس ، من يقول، ان الغرب يجب أن لا تكون له علاقة بالعالم الشيوعي . إذ ليس بالإمكان أن نصدّق أي شيء يقولونه ، ولا يمكن الاعتماد على كلماتهم المدوّنة . إن مثل هذا التفكير ، لا يؤدي بالنتيجة إلا الى الحرب ، أو بالأحرى إلى حرب نووية عارمة تسبّب تدمير الحضارة الغربية الحاضرة – والحضارة الشرقية أيضاً . وفي الآونة التي تسبق ذلك سينشأ شبيبة أمتنا في عالم تتناهبه الخصومات ، وتتقاذف فيه الدول التهديد بالتدمير النووي – عالم لا تعايش سلمي فيه حقاً – فهل هذا هو ما نريد ؟ معاذ الله !

لقد اتضح لي منذ عدة سنوات ، ان مفتاح السلم العالمي في الأمد البعيد ، يكمن في الصين . وان نهوض الصين الجديدة وسيطرتها الحتمية على آسيا ، يمكن أن يكون في صالح البشرية العام ، وفي صالح السلم العالمي ، ذلك السلم الذي ينشده عامة الناس في بلاد العالم كله . ولكن العامل الأكبر في تحقيق ذلك هو أن يحاول العالم الغربي تفهّم الصين الجديدة الآن . ويقتضي ، بوجه خاص ، أن تكفّ زعيمتنا الولايات المتحدة عن التخاصم معها .

والواقع انه إذا أردنا أن ينشأ أطفالنا مواطنين طيّبين في عالم يسوده السلام ، وهو ما أرغب فيه أشد الرغبة ، فلا مناص من أن يلتقي الشرق والغرب ، وأن يتّفقا مع بعضهما البعض بالسرعة الممكنة ، وأن لا ينتظروا

حتى نقف معاً « أمام عرش الله في يوم القيامة » .

مشكلة للغرب

ان المشكلة التي يواجهها الغرب هي ذات وجهين ، ويمكن أن تتلخص فيما يلي :

أولاً – العمل للسلام مع العالم الشيوعي ، وينبغي إيجاد طريقة تستطيع بها دول ذات عقائد ونظم اجتماعية مختلفة من أن تعيش جنباً إلى جنب بسلام ، ومن غير أن يتدخّل بعضها في أسلوب حياة البعض الآخر .

ثانياً – وفي الوقت الذي يفعل فيه الغرب ذلك ، يجب أن يضمن المحافظة على تراثنا المسيحي القيّم ، وحماية الحرية التي حاربنا من أجلها ، والتي مات في سبيلها كثيرون . كما يجب أن لا نفقد الموقع الجيد الذي وصلنا إليه خلال السنوات الشاقة من الحرب الباردة منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن . **ينبغي أن لا نسمح أبداً بحدوث ذلك ؛ فهو من الأمور الأساسية في كل خطوة نخطوها لانهاء الصراع الحالي .**

واني لا أعتقد ان هاتين المهمتين متناقضاتان، أو أن المشكلة يتعذّر حلـّها. ان قادة العالم الغربي يواجهون الآن ظروفاً عليهم فيها التزام جانب الحكمة والثبات والشجاعة السياسية . لكنه ينبغي لهم أن يحطـّموا الموانع ، وأن لا يلتفتوا إلى أولئك الذين يريدون إقامة هذه الموانع . ولو قدّرنا نفوس العالم اليوم بنحو ٢٨٠٠ مليون نسمة ، فمن البديهي ان نصف سكان العالم تقريباً سيكونون بعد عشرين سنه ، من الشيوعيين . إذ ان نفوس الصين ستبلغ أكثر من ألف مليون نسمة، ونفوس روسيا أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة. هذا بالإضافة إلى المجتمعات الشيوعية القائمة في أماكن أخرى . وما لم يتمكن نصف العالم الذي نحن فيه ، وهو النصف المحب للحرية ، من إيجاد طريقة ما للتعايش مع النصف الآخر الشيوعي ، فلا مناص من وقوع الحرب بين الكتلتين . إن هذه حقيقة تشبه في وضوحها كون الفجر يعقب الليل .

الخطوات الأولى

إذا أرادت الكتلتان الشرقية والغربية أن تعيشا معاً بسلام ، ومن غير أن تتدخل احداهما في شؤون الأخرى وفي طريقة حياتهـــا ، فمن الضروري إزالة الشك القائم بينهما الآن ، واستبداله بالثقة والاعتماد المتبادلين . ومن الطبيعي إنه يجب أن يعالج الغرب أولاً مشاكله الخاصة .

عندما تخدم في مؤسسة دولية ، كما خدمت أنا مدة عشر سنين ، فانك تخدم مجموعة من الدول لا تستطيع أن تتفق على المبادىء الأساسية . وكل منها يرفض التضحية بسيادته في سبيل مصلحة الجميع العـــامة — وذلك من جرّاء تعصبها الوطني . والواقع انه ليس ثمة اتحاد حقيقي في الغرب ، ولتحقيق هذا الاتحاد يجب أن تتوفّر الأمانة والثقة بين الحكومات — وهو ما يعوزها الآن .

لذلك ينبغي أولاً أن تكون دول الغرب متحدة ، وذلك يتطلّب قيـادة . لكنه ليس في الغرب اليوم قائد بارز يحوز القبول — إذا كنا نعني بالقائد رجلاً قديراً ، وراغباً في ابداء مشورة واضحة ومنطقية إلى مجموعة الدول الغربيـــة كلها ، وتثق فيه هذه الدول ثقة مطلقة . وإلى جانب هذه الصفات التي ذكرتها ، يجب أن يكون القائد المنشود رجلاً ذا قرار وعمل . غير انه في حلفٍ تشترك فيـــه خمس عشرة دولة من الدول الدمقراطية ، يصعب القرار على أي شيء . والواقع ان من واجب القائد في حلفٍ كهذا ، أن يحاول اقناع عددٍ لا متناهٍ من الموسيقيين غير المتجانسين ليعزفوا لحناً واحداً . عند مناقشة مشكلة الاتحاد في الغرب ، سيقول بعض الناس ، إن الحل لهذه المشكلة هو في تأسيس ولايات أوربية متحدة — أو اتحاد فيدرالي أوربي — ولقد بحثت هـــذا الموضوع مع ونستون تشرشل ، ذات مرة وقلت له : إن تأسيس اتحاد فيدرالي أوربي أمر غير ممكن في رأيي . وأضفت إلى ذلك بقولي : ان الدول ذات الحضارة العريقة والتي لها جذور عميقة في الماضي ، لا تخضع إلى برلمان فيدرالي في أوربا . فنحن البريطانيون مثلاً لن نقبل بذلك بالتأكيد . أمـــا تشرشل فهو يظن انه كان في

الإمكان تحقيق ذلك فور انتهاء حرب هتلر ، لو لم يختطف ستالين النصف الآخر من اوربا . وبعد إنعام النظر في الأمر ، صرت أعتقد ان الاتحاد الفيدرالي لا يمكن تحقيقه ، إلا بين الدول الناشئة التي نالت استقلالها حديثاً - وليس بين الدول القديمة .

وبعد تأسيس درجة من الاتحاد بين صفوفنا، يجب أن نستهدف تحطيم حاجز الشك الذي يفصل بيننا وبين الكتلة الشرقية . وإني أعتقد إن أفضل طريقة لذلك هي أن تعود القوات المسلّحة للكتلتين الشرقية والغربية إلى امبراطوريتها ، أو أراضيها الأصلية ، وأن ينتهي الاحتلال العسكري لبلاد الشعوب الأخرى في أوربا وآسيا . ان ذلك أمر يتطلّب قراراً سياسياً . وقد يستغرق تطبيقه بعض الوقت ، نحو خمس إلى عشر سنين مثلاً . لكنه ، في الإمكان الاتفاق حول ذلك من الناحية المبدئية حتى الآن ، واعتباره تدبيراً يجب أن تعمل كلتا الكتلتان على تحقيقه في آنٍ واحد - على أن تزداد سرعة سحب القوات بازدياد الثقة والاعتماد المتبادل بين الطرفين . ويجب أن يجري انسحاب القوات في كلا الجانبين في آنٍ واحد . ويقتضي تنظيم السيطرة والتفتيش تنظيماً مشتركاً . ويبدو لي انه من الحماقة تسمية هذا « التحلّل من المسئولية » (Disengagement) كما يحلو للبعض أن يقول ، فجبهة الناتو في اوربا يمكن أن تحرسها قوات دول غرب القارة الأوربية والتي يبلغ مجموع نفوسها نحو ٢٠٠ مليون نسمة . والواقع ان رغبة هذه الدول في بقاء قوات دول الناتو الأخرى في بلادها بالاضافة إلى قواتها الخاصة ، دليل واضح على قلة ثقتها بنفسها . ثم انها استطاعت أن تحصل على مساعدة الدول الأخرى في الدفاع عن أراضيها ، فلا تحتاج إلى اعداد قوات كبيرة لهذا الغرض بنفسها! . ولكن لو ان دول أوربا تدرك ان روسيا ليست لديها أية نيّة للهجوم على الغرب ، لأضحي الأمر على غاية السهولة ! .

وفي آسيا ، يجب أن تنسحب قوات الولات المتحدة انسحاباً مماثلاً من بلاد الدول الأخرى - من اليابان وفورموزا ومن البر الآسيوي الرئيسي - وان

انسحاباً كهذا يتطلب أيضاً وقتاً للتفاوض والتنظيم، نحو خمس أو ربما عشر سنوات. ولا ريب انه من الضروري تدوين بعض التحفّظات في الاتفاقية التي تعقد لهذا الغرض. وفي كل من اوربا وآسيا، ليس من المهم كثيراً عامل الوقت، بل المهم هو الاتفاق على الانسحاب

وما لم نتمكن من القيام بهذه الخطوات الأولى - وهي تأمين الاتحـاد ضمن الحلف الغربي والاتفاق على انسحاب جميع القوات المسلحة الأجنبية إلى بلادها الأصلية في وقت معين (مثلاً في سنة ١٩٧٠) فلا يمكن أن يحصل أي تقدم في نزع السلاح، أو في تحقيق سلمٍ عالمي دائم. ويجب أن نعمل وفق سياسة تدعو إلى الصداقة بين الشرق والغرب.

إن بيت القصيد في هذه القضية كلها هو:

ان الخطر اليوم هو ليس في أن روسيا ستلجأ الى الحرب عمـداً لتحقّق أغراضها في وقت أسرع مما تستطيعه في السلم، بل الخطر هو في أن يؤدي بعض قضايا الحرب الباردة، الى اصطدام طائش بين الشرق والغرب. ان هذا الخطر، وهو خطير جدّاً، لا يمكن أن يزول بالرسائل التي يتبادلها قادة الطرفين، برغم ان الرسالة التي بعث بهـا ماكميلان الى خروشيف والتي قرأت في مجلس العموم يوم ١٨ تموز ١٩٦٠، كانت ممتازة. وقد حاول المستر ماكميلان، قبل ذلـك، أن يتلافى الخطر بزيارة موسكو في شباط ١٩٥٩، لكنه لم ينجح في مسعاه. ولم يكن فشله نتيجه لخطأه، بل من جراء أخطاء أمريكا.

ان الوسيلة الحقيقية الفعّالة لتلافي هذا الخطر هو إزالة أسبابه. ولقـد حاولت أن اقترح كيف يمكننا أن نبدأ في ذلك من غير أن نضعف موقفنا بأي حالٍ من الأحوال. وعلى الغرب أن يقدّم العرض التمهيدي، لكنه على الشرق أن يظهر إخلاصاً في تنفيذه.

اننا نسمع الشيء الكثير في هذه الأيام، من القادة السياسيين في جميع أنحـاء العالم، عن السلم وعن حاجة الدول ذات المبادىء الفكرية والاجتماعية المختلفة الى أن « تعيش وتدع غيرها يعيش بسلام ».

ولكننا ، بعد ست عشر سنة من السلم ، أو ما يسمى بالسلم – اذ لم يكن سلماً هيّناً ولا شك – لسنا أحسن حالاً من ناحية التعايش السلمي ، مما كنا عليه حين بدأنا هذه التجربة عام ١٩٤٥ . فهل نفكّر في تجربة ست عشرة سنة أخرى من **تعايش لا سلمي** .

وهل يجب أن ينشأ شبيبة الغرب في عالمٍ يسوده الخوف – ولا يمكن فيه المحافظة على السلم الا بتوازن الأسلحة النووية ؟ . انني لا أرجو ذلك . ولكننا اذا ظللنا نبني سياستنا على الأوهام ورفضنا مواجهة الحقائق فلا مناص من الحرب بين الشرق والغرب – كما سبق ان قلت .

أما الحرب الباردة – أو الضوضاء الأيديولوجية – فانها ستستمر بطبيعة الحال . وهذا أمر واضح . ولكن اذا استطعنا أن نزيل أسباب الشك وعدم الثقة – حتى وان لم يكن ذلك حالاً ، بل تدريجياً ووفق خطة شاملة – فمن المحتمل أن يخف هياج الحرب الباردة ثم تبدأ بالخمود . انني أعترف اننا قد نجد هنا بارقة أمل ، وأنا باذل جهدي في البحث عن هذه البارقة ، فإذا ما وجدناها – وأظن اننا نستطيع أن نجدها – فيجب أن نستغلّها . وإذا ما نجحنا في ذلك ، فسيتسنّى لنا عندئذٍ أن نسلّم لأطفال أطفالنا عالماً يسوده السلم .

وإني سأحاول جهدي في محاولة ذلك .

اين هو القائد

ولكن أين هو القائد الذي سيعالج لنا كل هذه الأمور ؟ : من ذا الذي يقنع دول الغرب لتواجه الحقائق وتوافق على اتباع سياسة عامه مبنية على الحقيقة وليس على التفكير الخيالي ، وان تبدأ بإزالة أسباب النزاع بين الشرق والغرب؟. ويجب ان لا تكون ثمة أوهام غامضة ولا دوران حول النقاط الحيوية ، ولا مماطلات بالكلام. ويجب أن نطرح جانباً كل ما هو تافه وطارىء. وأن نعرض العوامل الحيوية على بساط البحث لنتوصّل إلى حلٍ يبنى على أسس قوية . ويجب أن نعالج أمر القادة العسكريين بحزم ، فهؤلاء سيكافحون كفاحاً شديداً

في سبيل الحفاظ على (امبراطورياتهم) .

من ذا الذي سيضطلع بهذه المسئولية الشائكة ؟ لا شك انه سيتولّى مهمة جبّارة . وستكون إحدى مشكلاته الكبرى التخلّص من شبكة العنكبوت التي حاكها باتقان في مجلس الناتو في باريس عدد كبير من مختلف أنواع العناكب –وكلهم خبراء في إقامة أحجبة الدخان عندما لا توافقهم بعض الفقرات في جدول الأعمال . إن ما يحتاج إليه جهاز الناتو هو البساطة والذوق السليم والشجاعة – مع تجديد الجهاز تجديداً تاماً ، وتنظيفه من التعقيدات والشوائب .

وقد سبق ان ذكرت أن القيادة في حلفٍ يضمّ خمس عشرة دولة دمقراطية أمر صعب ، لكنه مع ذلك ليس بمستحيل . وهي تتطلب الصفات الجوهرية الآتية : –

اليقين (Conviction) .
الأمانة والإخلاص الواضحين .
الصلابة .
الشجاعة السياسية .

لا قـــائد يستطيع أن يستمر طويلاً في قيادته ان لم تكن لديه شجاعة سياسية .

إن هذه الصفات الجوهرية تقضي على كل الأمور التي تنـــافي الاستقامة في السياسيين – كل المحـــاولات لاصطياد الأصوات وكل السخافات التي يرددها السياسيون من جانبي المحيط الأطلسي . وتتطلب هذه الصفات الجوهرية إخبار الشعب بالحقيقة ، وبناء العمل على الحقائق المنطقية ، وليس على التفكير العاطفي – ولا على العوامل التي توجّه الأصوات نحـــو حزبٍ سياسي معيّن – تلك العوامل التي هي ليست عملية أو واقعية .

فأين هو هذا الرجل ؟ . انني أعرف جميع القادة الوطنيين في العالم الغربي . ان الرجل الذي أختاره قائداً لنا ، ليتولّى هـذا الواجب الكبير هو الرئيس ديغول ، رئيس جمهورية فرانسه . فهو يتصف بالحكمة واليقين والصلابة والشجاعة

في اتخاذ القرار ، إنه قـــائد بحق . وهو شريف النفس ومخلص ولا ينهمك بالدسائس السياسية أو الكلام الفارغ . وستكون مهمته الأولى ، ازالة عوامـل الخوف والشك بين الشرق والغرب ، فبدون ذلك لا يمكن أن يحصل أي تقدم في مباحثات نزع السلاح . وعليه أيضاً أن يعلن بوضوح انه من المستحيل بحث الشؤون العالمية،أو نزع السلاح بحثاً منطقياً لو تجاهلنا أكبر دولة في العالم – وهي الصين الشعبية .

الباب الثالث عشر

القيادة الشيوعية

لا بد لي ان أوضح هنا ان هذا الباب هو ليس بدراسة للشيوعية . فلست مزوداً بالمعلومات التي تساعدني على القيام بمثل هذه الدراسة . كما ان كتابي لا يتسع لها . وما غرضي إلا دراسة قادة العالم الشيوعي الذين أعرفهم ، والبحث في سجاياهم ، والوقوف على ما يبدو انهم يسعون الى تحقيقه ، واستنتاج كيفية تأثير قيادتهم في العالم الغربي .

قد يقول البعض لست مؤهلاً لإبداء الرأي في هذه المواضيع . ولكن ذلك هو خلاف الواقع . فلقد زرت أهم قادة الكتلة الشيوعية في بلادهم ، وتحدثت معهم ، وهم ستالين وخروشيف وتيتو ، وماوتسي تونغ وشوآن لاي. كما تحدثت مع وزراء دفاعهم ورؤساء اركان جيوشهم . واني أشك إن كان أي شخص آخر في العالم الغربي قد تحدثت مع هؤلاء الخمسة كلهم ومع مستشاريهم العسكريين المحترفين . انني أعرف القادة السياسيين والعسكريين في العالم الغربي ، وقد تحدثت معهم . واتيح لي أيضاً ان ارقب عن كثب السياسة الدولية العليا منذ نهاية الحرب الهتلرية .

هذا وان الصفحات التالية تعبر عن آرائي وحدها. فاذا كان في وسع أي شخص آخر ان يزن القيادة الشيوعية ومعضلات العالم اليوم (سنة ١٩٦٦)

أحسن مني ، فاني أرجو له حظاً طيباً .

ستالين

أود ان أبدأ بستالين ، فقد كان زعيم روسيا عندما أخذ معظم الناس في بريطانية يهتمون في شؤون ذلك البلد – وكان ذلك عندما هاجمت قوات هتلر روسيا في حزيران ١٩٤١ ، واصبحت تلك البلاد حليفتنا الفعّالة الاولى في الحرب الالمانية . وكنا قبل ذلك الوقت ، ندير الحرب وحدنا ، فيمكن لذلك ان نفهم السبب الذي حدا بالشعب البريطاني لأن يرحب بستالين حليفاً ، ترحيباً حاراً . وسرعان ما أصبح اسمه يتردد في كل بيت وفي أرجاء البلاد .

ولكن عندما انتهت الحرب ، بدأ ستالين في ضوء يختلف كثيراً عن ذي قبل . وصار الناس يكرهونه تدريجياً كرهاً شديداً قلما كرهوا رجلاً آخر مثله من قبل .

لقد التقيت بستالين لأول مرة في مؤتمر بوتسدام في تموز ١٩٤٥ . إلا أنني درست سياسته وأعماله قبل ذلك بسنين طوال . فاستنتجت أنه كان قديراً جداً ، لكنه كان في الوقت نفسه ، ماكراً جداً ، ولا بد ان القارىء يتذكر ان ستالين وقّع في آب ١٩٣٩ ميثاق عدم الاعتداء مع هتلر . ثم كشف عن نواياه الحقيقية عند تعاونه مع ألمانيا ، بضبط اراضٍ تقع في جناحه الغربي – وهي الدول البلطيقية الثلاث (استونيا ولاتفيا وليتوانيا) ، والقسم الشرقي من بولنده ، وجزءاً من فنلندة وبسارابيا وبوكافينا ، وبعض الجزر في نهر الدانوب . وباشتراك ستالين مع هتلر في الميثاق آنف الذكر سمح للألمان باطلاق قوتهم العسكرية نحو الغرب . ولكن برغم محاولات ستالين لارضاء هتلر ، فانه هو الذي طلب من الحلفاء عندما تحول الالمان شرقاً في حزيران ١٩٤١ ، فهاجموا روسيا ، ان يأتوا لمساعدته مهما كانت النتائج . وكأن ذلك حق من حقوقه !. غير ان البريطانيين والامريكيين كانوا في غاية الحكمة ، فلم يقدموا على غزو نورماندي ، عبر القنال الانكليزي، قبل ان يتسنى لهم تقليل الاخطار

العسكرية التي تنطوي عليها هذه المحاولة ، الى درجة يمكن قبولها .

واني كلما اعدت النظر في احداث تلكم الأيام ، بدا لي ان روزفلت لم يقدر حقيقة ستالين تقديراً صحيحاً ، فقد ظن انه بالصبر والصداقة يمكن توجيه الروس الى طريقتنا في التفكير . وظن أنه (أي روزفلت) يستطيع ان يقوم بذلك . وكان يرغب أحياناً ان يقوم بدور الوسيط بين ستالين وتشرشل عندما تحتدم المناقشة بينهما ، كما حدث مثلاً عند البحث في قضية بولندة . بل ان تشرشل نفسه كان ينسى أحياناً مكر الزعيم الروسي ، فقد وافق في خريف ١٩٤٤ ، على الحدود بين مناطق الاحتلال الالمانية التي خصصت للروس وبين تلك التي خصصت للدول الغربية حتى اصبح الخط المتفق عليه يمر غرب برلين بمسافة كبيرة !. ويتضح من رسالة بعث بها تشرشل الى ستالين في تموز ١٩٤٤ ، انه كان يحث الروس على التقدم نحو برلين . وتدلنا فحوى الرسالة انه قبل مبدأ وصول الروس الى تلك المدينة قبل الحلفاء الغربيين !.

وبعد ان أيقن ستالين ان روسيا تستطيع ان تقاوم الاحتلال الالماني . وانه في وسعها ان تقاتل الالمان وتكيل لهم الصاع صاعين ، اخذ يعزز سيطرته على جميع الاراضي التي تحتلها جيوشه . ولما وجد ان القادة الغربيين لم يستسيغوا أعماله تبدلت لهجة الرسائل التي كان يرسلها الى روزفلت وتشرشل من المودة الى التحفظ ثم البرود فالجلفة واحياناً الى الخشونة الواضحة . وانه لمن الغريب حقاً كيف ان روزفلت أخفق في إدراك مكر ستالين . ويرى هربرت فيس (Herbert Feis) وهو مؤرخ امريكي مشهور ، ان التفكير الامريكي حول ستالين كانت « قد شوّهته فظاعة شرور هتلر » . أما تشرشل فلم ينخدع بستالين ، الا انه أخفق في تصحيح رأي الامريكيين عنه ويتضح مما نعرفه عن سيرة ستالين وعن كيفية وصوله الى الحكم في روسيا ، انه كان ماكراً ، حقوداً ، كثير المهارة في الضغط التدريجي . وكما قال عنه هربرت فيس :

« لقد كان شخصاً غامضاً يحيّر عارفوه فيتساءلون عند كل عبارة يقولها : ترى أية لفيفة سيلف على هذه البكرة ؟ ؟ »

وعندما التقيت بستالين للمرة الاولى في تموز ١٩٤٥ ، دعـــاني لزيارته في موسكو . فقمت بتلك الزيارة في كانون الثـاني ١٩٤٧ . وكان ستالين بالنسبة لي طبعاً شخصية تبعث على الاهتمام الشديد ، فقد كانت لديه ملكة استراتيجية مدهشة . واني لا أتذكر أنه خطا خطوة خاطئـــة في مناقشاتنا عن الادارة الاستراتيجية للحرب التي كنا نخوض غمارها ضد المانيا الهتلرية . وكان مضيافاً وبارع الفكاهة . غير أن الانطبـاع الذي تركته الزيارة في نفسي هو ان الشعب الروسي تحت حكم ستالين كان مكتئباً وتعساً . ولم يكن ذلك من جراء مـــا عانته هذه الامة المنهوكة من الحرب فحسب بل كان ثمة خوف يسود البلاد .

وكان البوليس السري ضارياً في أعماله ، والمواطنون لا يجرأون على الافصاح عما في أفكارهم . واني اتذكر حفلة عشاء أقامهـا لي في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٧ في الكرملين . وكان الضيوف قد اجتمعوا في قاعة استقبال ، وكنت انا أحدهم ومعي هيئة أركاني ، وكان الجميع قـد انهمكوا في نقاش بينما تدور عليهـــم كؤوس الكوكتيل . ثم حدث فجـأة سكون مطبق ، حتى كأنك تستطيع ان تسمع سقوط الإبرة . وأغلق جميع الروس أفواههم كالقواقـــع ونظر بعضهم الى بعض شزراً ، وهم خائفون ، وكأنهم يتحدثون حدثت خيانة وقـــد افتضح أمرهم . ودخل ستالين القاعة بهدوء وحـــده . وان انسَ لا انس وقع هـذا الحادث ، فقد كان مشؤوماً . وكان جميع الروس الحاضرين في الدعوة من ذوي المناصب العليا ، ولكن الخوف مع ذلك كان بادياً على وجوههم .

هكذا كانت روسيا في عهد ستالين . وقد صمم هذا الزعيم الروسي على ان يشدد قبضته ، وبقوة متزايدة على اوربا الشرقية . وكان الشعب الروسي كئيباً وخائفاً في زمانه . ولم يعمل ستالين من اجله الا الشيء القليل – فالطعام كان قليلاً والبضائع الاستهلاكية يصعب الحصول عليها ، وأحوال السكنى يرثى لها. يضاف الى ذلك كله ان الخوف يجتـاح البلاد باسرها على الدوام . وعندمـــا تركت روسيا بعد تلك الزيارة كنت اميل الى ان اسجل ستالين كغولٍ – بل وغولٍ مـــاهر . ولم أرَ ستالين ثانية ، فقد توفي في مارس ١٩٥٣ بعـــد حكم

دكتاتوري طاغ دام نحو ثلاثين سنة . ولا بد انه سبب إعدام المئات من مناوئيه السياسيين رمياً بالرصاص . أما الذين نجوا من أعماله الاستئصالية العديدة فالعالم يتساءل : ترى أي ضرب من الناس هؤلاء ؟

وخلّف ستالين مالنكوف. ولا أتذكر التقيب به عندما كنت في موسكو عام ١٩٤٧ . وإذا كنت قد التقيت به حقاً ، فلا بد أنه لم يترك لديّ انطباعاً يذكر . وقد عكس هذا سياسة ستالين ، فاستهدف ارخاء التوتر بين الشرق والغرب والسماح بزيادة البضائع الاستهلاكية للشعب الروسي . وقد بعث ذلك كله الأمل في الغرب ، ورأى البعض ان الستالينية في طريقها الى الزوال .

ولكن مالنكوف عزل عن منصبه على حين غرة ، وحل محله ما يشبه قيادة ثنائية تتألف من بولغانين وخروشيف . وكنت أعرف الاول إذ سبق أن التقيت به وتحدثت معه في موسكو عام ١٩٤٧ . وقد اعتبرته في حينه شخصية شريرة نوعاً ما . وقام الاثنان برحلات كثيرة ، الى بلغراد وجنيف والهند وبورما عام ١٩٥٥ ، ثم الى لندن في مارس ١٩٥٦ ، حيث استقبلا استقبالاً بارداً . وربما كان السبب في ذلك الملاحظات المهينة التي أبداها خروشيف عنّا نحن البريطانيين عندما زار الهند .

وبمرور الزمن ، عزل خروشيف بولغانين ومولوتوف والمارشال زوكوف — وكنت أعرف الثلاثة ، ولا سيما زوكوف ، الذي كنت أعرفه حق المعرفة — وانتخب خروشيف رئيساً للوزراء في ربيع ١٩٥٨ . مع احتفاظه بمنصب السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعي .

وهكذا أصبحت مقاليد الامور بيد خروشيف، وصار يدير مكينة الحكومة الروسية .

خروشيف

لنأتِ الآن الى القادة الوطنين في الكتلة الشرقية في الحال الحاضر – ويمكن اعتبار هذه الكتلة لغرض بحثنا هي روسيا والصين الشعبية .

عندما انسحبت من الخدمة الفعلية في الجيش البريطـــاني والناتو في أيلول ١٩٥٨ ، قررت زيارة قادة العالم الشيوعي . فقد بدا لي ان الحكم على هؤلاء من غير ان اتصل بهم أمر غير صحيح . وساءلت نفسي : « أي ضربٍ من الرجال خروشيف؟ ». ثم فكرت ان خير وسيلة لمعرفة ذلـــك هي ان أذهب وأراه. لذلك ارسلت له رسالة في اوائل عام ١٩٥٩ سألته فيها إن كان في وسعي أن أزوره في موسكو ، لأتباحث معه في الموقف العـــالمي . فأجابني بأنه يرحب بزيارتي أجمل الترحيب . وهكذا سافرت الى موسكو فوصلتها في ٢٨ نيسان ١٩٥٨ . وكان غرضي من الزيارة الوقوف على آراء خروشيف حول مشكلة الأمن الدولي الشائكة ، وفي الوقت نفسه التعرف اليه شخصياً .

لقد وجدته شخصاً ممتازاً ، فهو سريع التفكير واضحه ، وانك لا تحتاج الى تكرار أي شيء له مرتين . وهو واقعي حقاً وشديد التمسك برأيه . ويبدو ان لديه معلومات مدهشة عن حقـــائق أي موضوع تثيره ، وهو لا يعجز عن الاجابة على أي سؤال يوجّه اليه .

وقد جلست أمامه في قصر الكرملين على منضدة واحدة ، وتحدثنـــا معظم الوقت خلال يومين ، ومع ذلك كنت سأجد صعوبة بعدئذ في وصف وجهـه . إذ أن لوجهه تغيرات لا حصر لها ، وهي تتغير تغيراً سريعاً .

ان الباري عز وجـــل قد خلقنا من الصلصال ، لكنني أظن ان نحـــاتاً عصرياً قد يجد صعوبة في صنع تمثال نصفي جيّد لخروشيف !. وفي وسعي ان أقول إنه زعيم سياسي ألمعي ، يملك بين يديه جميع البراهـــين والحجج . وإذا أردت الحصول على أحسن النتائج منه ، وجب ان تستيقظ في الصباح الباكر . وليس في وسعك ان تخيف خروشيف او ان تتغلب عليه . فهو شخص شديـد

الصلابة حقاً . لكنه قد تغلب عليه العاطفة أيضاً . وفي وسع المرء ان يلحظ فيه من حين لآخر طيبة القلب التي يتوقعها في شخصية قاسية مثله . وهو عظيم الثقة بنفسه ، وفي وسعه ان يسير مع الملوك وان يتكلم مع ذلك كلاماً ودياً مع الناس العاديين . ولا شك انه شخصية جبارة في السياسة الدولية . وهو ابن عامل من عمال مناجم الفحم . ولد سنة ١٨٩٤ ، فهو اليوم (سنة ١٩٦١) في السابعة والستين من عمره .

وحينما كنت في موسكو اردت ان أقف على رأيه في المواضيع الثلاثة الآتية بصورة خاصة :

الأول – هل هو على استعداد لشن حرب كبرى لتحقيق أغراضه بسرعة أكثر ؟ – علماً بأن حرباً كهذه تعني حرباً نووية عامة .

الثاني – ما هو تفكيره عن الالمان ؟

الثالث – ما هي نظرته الى نهوض جمهورية الصين الشعبية – حكومة بكين ؟

كل هذه أسئلة مهمة جداً ، ولأجوبتها تأثير كبير في السياسة الغربية – إذا أمكن تصديقها .

السؤال الاول – الحرب : اعتاد خروشيف قبل بضع سنين (حوالي عام ١٩٥٣) ان يقول ان الاتحاد السوفياتي سيبقى بعد حرب نووية أما الغرب فلا . وفي محادثاتي معه في موسكو في نيسان ١٩٥٩ ، كان في بادىء الأمر مشاكساً بعض الشي – لكنه غيّر موقفه عندما اوضحت له بشيء من التفصيل ما يستطيع ان يفعله الغرب بأسلحته النووية في الاتحاد السوفيتي عند نشوب الحرب – ففي وسعه تدمير المدن الرئيسية للدولة المعتدية ، بالاضافة الى شعبها وصناعاتها . وقد داخلني شعور في حينه ، انه كان يدرس نتائج الانفجار النووي . ومهما كان الأمر ، فان خروشيف بدأ يقول في خطبه التي القاها في السنة التالية (اوائل ١٩٦٠) ، بأن الحرب النووية ستكون كارثة لجميع شعوب العالم ، وانه لا ينبغي إفساح المجال حتى للحروب المحلية ، إذ انها

قد تتحول الى حرب عالمية . وفي تموز ١٩٦٠ القى خروشيف خطاباً رائعاً في فينّا قارن فيه بين الحياة في سفينة نوح مع الحياة في هذه الدنيا واختتم خطابه بالجملة الآتية :

« إذا لم نكن قادرين على ان نعيش بسلام معاً على هذه الأرض ، كما استطاعت المخلوقات الحية ان تعيش في سفينة نوح ، وإذا بدأنا حرباً لفضّ الخلافات بين دول – بعضها يكره الاشتراكية ، وبعضها يكره الرأسمالية – فاننا سنحطم سفينة نوحنا « الارض » » .

هذا وبنتيجة مباحثاتي في موسكو مع خروشيف ، ومع رؤساء الاركان الروسيين ، وبعد أن رأيت التقدم الذي حدث في روسيا منذ نهاية حكم ستالين، أيقنت أن روسيا يجب ان تحصل على السلم . فالحرب ، ولا بد انها ستكون حرباً نووية ، ستدمر كل ما حققته روسيا من تقدم منذ زيارتي الاخيرة لموسكو عام ١٩٤٧ حتى الآن ، وستؤخر البلاد نحو نصف قرن . وإني لواثق من أن خروشيف ضد الحرب . لا لأنه يرى ان الحرب خطأ او شر ، بل لأنه يعتقد أن الحرب المقبلة ستدمر الاتحاد السوفياتي كما ستدمر بلاد العالم الأخرى أيضاً . ولا يستبعد ان يغيّر خروشيف وجهة نظره إذا اتبع الغرب وحده سياسة نزع السلاح ، وتخلى عن الرادع النووي !. ولكن ذلك لن يحدث . وان الأمر الكبير الذي يجب ان نعلنه هو ان خروشيف قد استبعد الحرب لأنه يرى انها لا تجدي نفعاً بعد الآن – وهو مصيب في رأيه .

ان ذلك تساهل كبير من جانب خروشيف . وإذا أضفنا الى ذلك انه يريد ان يسجله التأريخ « رجل السلام » الذي حقق الرفاهة والأمان الى الشعب الروسي ، كما أوضحنا ذلك في الباب الثاني عشر ، سهل علينا ان ندرك ان هذا التساهل أمر يجب ان نعترف به ، وان نستفيد منه في حل المشكلة القائمة بين الشرق والغرب . لكن خروشيف يعاني ضغطاً في روسيا ، وهذا أمر يجب ان نفهمه .

وقد أيقنت من أحاديثي مع القادة الروس السياسيين والعسكريين في

موسكو أنهم يمكن ان يقسموا الى جماعتين : جماعة تؤيد نظرية لينين القائلة بأن الحرب أمر محتم في المدى البعيد ، وأخرى ترى ان الحرب يمكن اجتنابها بالاتفاق مع الغرب على سياسة « عش ودع غيرك يعيش » . وهذه في الواقع هي سياسة التعايش السلمي . وتحتوي الجماعة الأولى على الماركسيين المتعصبين . أما خروشيف فهو ينتمي الى الجماعة الثانية التي تعتقد ان نظرية لينين حول حتمية الحرب قد فات أوانها . وينتمي الى هذه الجماعة الجيل الحديث من قادة الاتحاد السوفيتي .

فإذا حدث صراع من أجل السلطة بين الجماعتين ، وهو أمر محتمل كثيراً ، فاننا نأمل ان يفوز خروشيف . إلا ان استمرار الامريكيين على الطيران التجسسي ، كحادثة اليوتو ، أو طيرانهم فوق الاراضي الروسية في أي وقت كان ، او قيامهم بتدابير تنطوي على العدوان (كإنذار قيادة القاصفات النووية بلا سبب واضح) ، فان ذلك كله من شأنه ان يؤدي ولا ريب الى زيادة الشك والتوتر بين الشرق والغرب ، وسيعزز موقف الجماعة المتعصبة في روسيا . وإذا نظرنا الى المشكلة من هذه الوجهة ، سهل علينا ان نفهم لماذا يردّ خروشيف أحياناً بشدة وخشونة بالغتين على محاولات الامريكيين للحصول على المعلومات عن بلاده .

ان الدرس الذي يمكن ان نستنتجه من ذلك هو : إذا كان الغرب مهتماً حقاً في إيجاد طريقة للعيش بسلام مع الشرق ، فعلى قادتنا اجتناب النواحي العسكرية لما يسمى بـ « سياسة حافة الهاوية »[1] . إذ إن الغباوة في تطبيق هذه السياسة قد تؤدي الى مواقف حرجة ، وقد تسبب شرارة تندلع منها نار حرب حامية — او بالاحرى ، حرب نووية . ومن البديهي ان هناك قضية أخرى ، وهو أنه عندما تكتشف فعاليات تجسس كالتي ذكرناها ، فانها ستعزز موقف خروشيف في حملته الرامية لأحداث الانقسام في الحلف الغربي ،

---

١ — « Brinkmanship » — وهي السياسة التي نادى بها دالاس وزير خارجية امريكا السابق .

وهو الامر الذي ينبغي ان نحول دون حدوثه . فالناتو أصبح مضعضعاً نوعاً ما ، وان أي انقسام آخر قد يخيف الدول الصغرى ، ولا سيما القريبة منها الى الاراضي الروسية مثل النروج والدانمارك وتركيه .

ان كل الناس يعرفون ان الدول جميعها تقوم بأعمال الاستخبارات لجمع المعلومات ، عن بلاد الأعداء التي قد تحاربها في المستقبل . ولكن فعاليات التجسّس هذه يجب أن تجري بفطنة ومن غير أن تنفضح . وان العمل السياسي الصحيح الذي كان ينبغي القيام به ، قبل مؤتمر القمة في نيسان ١٩٦٠ ، هو إعداد جو صالح للمفاوضات بين الطرفين ، وعدم إفساد الجو الودي الذي كان يسود العلاقات الشرقية – الغربية آنذاك. إلا ان الامريكيين أرسلوا طائرة تجسّس فوق موسكو قبيل المؤتمر – فلم يكن عملهم هذا حكيماً جداً ، ومما زاد في الطين بلة ، ان الطائرة قد اكتشفت وأسقطت .

السؤال الثاني – المانيا : عندما تحدثت مع خروشيف، حصل لدي انطباع ان روسيا ، تخشى من إحياء المانيا ، ومن الروح الانتقامية التي قد تظهر في تلك البلاد نتيجة لذلك . وقد أوضح لي خروشيف بأنه مستاء من الإشارات المستمرة التي يبديها الغرب حول توحيد المانيا . إذ أن جمهورية المانيا الدمقراطية (المانيا الشرقية) هي أهم توابع روسيا من النواحي السياسية والاقتصادية والجغرافية، وهي توظّف باستمرار ، رؤوس أموالها هناك . لذلك فهي لن تتخلى عن سيطرتها على المانيا الشرقية في الوقت الحاضر . وهي لا توافق أيضاً على اعادة توحيد الدولتين الالمانيتين الا وفق شروطها الخاصة ، التي لا يقبلها الغرب بطبيعة الحال . والواقع ان توحيد المانيا في الظروف الراهنة أمر مستحيل وقد رفض خروشيف ذلك رفضاً باتاً .

ثم أضاف خروشيف الى ذلك يقول : إنه ليس من الممكن إعادة النظر في التصميم الأساسي لموقف برلين ، ما لم تعالج مشكلة الأمن الأوربي وتحل حلاً ترضي به الكتلتان الشرقية والغربية رضىً تاماً – وهذه حقيقة ينبغي أن يواجهها الغرب .

ولقد شعرت دوماً ان الجميع يعرفون ذلك . فما من دولة تريد توحيد المانيا . وقد أكد جميع القادة السياسيين الغربيين ، في محادثاتي معهم ، ان من الحماقة توحيد الدولتين الالمانيتين ، ولكنك لا تجد أحداً منهم يقول ذلك على ملأٍ من الناس، خوفاً من إهانة الألمان الغربيين – الذين أعتقد انهم لا يريدون ذلك أيضاً ! . فما علينا إذن الا أن نستمر بالحالة الراهنة ، كما هي بما في ذلك مشكلة برلين .

السؤال الثالث – الصين : وجدت من الصعوبة بمكان ، أن أسبر غور عواطف خروشيف عن الصين وشجب كل فكرة تفيد بأن الصين قد تصبح مشكلة بالنسبة لروسيا في المستقبل . وقد ذكّرته بأن روسيا تقع جغرافياً بين دولتين يمكن أن تولّد أي منهما مشاكل لها . فاعترف بأنه يخشى شرّاً من الألمان . ولما سألته عن الصين ، لم يجب أجوبة مقنعة . وبالنظر لشكّي في صدق أجوبته فقد فاجأته بسؤالٍ صريح جداً إذ قلت .

« أيهما تخشى أكثر الألمان أم الصينيين » ؟

مع ان خروشيف لا يعجز عن إيجاد الجواب لكل سؤال ، فقد تريث بضع ثوانٍ قبل أن يجيبني على هذا السؤال ثم قال « في الحال الحاضر – الألمان ».

لقد كان على صواب . ففي جوابه إشارة الى إن تلك الأمة العظيمة في الشرق الأقصى ، السائرة قدماً في طريق التقدم ، يكتنف مستقبلها الغموض . وقد كان من الصعب حل هذا اللغز . واستشففتُ من حديثه أن لديه بعض الشك حول ما يمكن أن يحدث في الصين في المدى البعيد . وهذا الشك نفسه يساور كثيرين غيره . ولكن الصورة تتّضح قليلاً عندما سنبحث عن قادة الصين . على ان شيئاً واحداً كان واضحاً تمام الوضوح ألا وهو ان الألمان كانوا مصدر الخوف المباشر له . وهو لم يكن على استعداد للتنازل قيد شعرة عن رأيه في هذا الصدد . وقبل أن نترك خروشيف ، لا بد لي أن أوضّح الحقيقة التالية عنه لئلا يظن القارىء خلافها ، وهي : انني لا أوافق على الذهاب معه الى الغاية . لكنه يحسن بالقادة الغربيين أن يفكّروا ملياً ما عسى أن يحدث في روسيا لو

عزل خروشيف ، فقد يظهر مكانه شخص أسوأ منه بكثير .

تيتـــو

من المناسب البحث الآن في تيتو ، فذلك مما يخلي لنا السبيل بعدئذٍ للبحث في القادة الصينيين في الشرق الأقصى . ان الإسم الحقيقي لتيتـــو هو (جوزف بروز) (Josip Broz) – وهو الآن في التاسعة والستين من عمره (١٩٦١) فقد ولد عام ١٨٩٢ .

التقيت بتيتو للمرة الأولى في أيلول ١٩٥٣ عندمـــا دعاني لحضور مناورات الجيش اليوغوسلافي في منطقة زغرب . وكنت أخـــدم وقتئذٍ في (شيب[1]) نائباً للقائد الأعلى للحلفاء في أوربا . وكانت أمريكا الدولة الغربية الوحيدة التي تتعامل مع يوغوسلافيا وتزوّدها بالتجهيزات العسكرية والمساعدات الاقتصادية . وقد اعترضت بعض الجهات على زيارتي لتيتو . وكان الجنرال ريجواي قائداً أعلى للحلفاء في اوربا فبذل أقصى جهوده ليحول دون هذه الزيارة. على انني استعنت بوزارة الخارجية البريطانية في لندن ، فاسندتني اسناداً قوياً ، إذ انها لم ترَ في زيارة كهذه غير الخير . وهكذا تمت الزيارة . وجدت تيتو رجلاً قوياً وقائداً ذا سجايا عالية وشخصية عظيمة . وفي تلـــك الزيارة توطـّدت بيننا أواصر الصداقة . وقد كتبت له بعدئذٍ سائلا إياه ، إذا كان في وسعي أن أزوره في بلغراد لأقف على آرائه في الموقف الدولي العام . فأجابني إنه يرحّب بزيارتي كثيراً . وكانت زيارتي الثانية له في ايلول ١٩٥٤ ودامت أسبوعاً واحـــداً ، زرت خلالها مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية ، ومزرعة خاصة ومزرعة تعاونية وحقلاً للكروم وعدة معامل صناعية ثقيـــلة . وذهبت أيضاً الى سراجيفو التي اندلعت فيهـــا شرارة الحرب العالمية الأولى . ثم شاهدت عدداً من المراكز

---

١ - (Shape) وهو الاسم المختصر لمقر القيادة العليـــا للحلفاء في باريس . ويسمى بالانكليزية : (Supreme Headquarters Allied Powers (Europe

التدريبية للجيش اليوغوسلافي ، وقد توثقت أواصر الصداقة بيني وبين كثيرين في يوغوسلافيا ولاسيما الضابطين اللذين رافقاني في تلك الزيارة وفي جميع الزيارات الأخرى – وهما اللواء (مليوس سومونجا) (Milos Sumonja) والمقدم (برونو فولتيك) (Bruno Vuletic) ، وكلاهما يجيد اللغة الانكليزية . ولقد زرت تيتو مراراً بعدئذٍ ، وكانت زيارتي الأخيرة له في ٢ أيلول ١٩٥٨ ، إذ ذهبت لأودّعه بمناسبة مغادرتي (شيب) في ١٨ أيلول من تلك السنة ، وتركي الخدمة الفعّالة في الجيش البريطاني . وكانت هذه هي الزيارة الوداعية الأخيرة . وقد شعرت في حينه انه لا بد من الذهاب لأراه بالنظر لما أبداه نحوي من مودة كبيرة خلال السنوات التي عرفته فيها .

وفي حديثي مع تيتو ذات يوم رجوته أن يخبرني عن حياته الأولى . فقال إنه كان عاملاً كهربائياً في الأصل ، وقد خدم في صفوف الجيش النمساوي في الحرب العالمية الأولى ، ورقّي إلى رتبة عريف ثم أسره الروس في الأخير ، فقضى سبع سنوات في روسيا ، صار خلالها شيوعياً . وعندما عاد إلى يوغوسلافيا التحق بحركة العمال وسرعان ما أصبح قائدها . ثم عاش متصعلكاً وقضى معظم أوقاته في السجن . وقد وجد من المناسب وقتئذٍ أن تكون له أسماء عديدة ليتعذّر على الشرطة أن تديم الاتصال بحركاته . وكان أحد هذه الأسماء (تيتو) . فقرّر في الأخير أن يطلق على نفسه هذا الاسم دائماً . وقال إنه أحبّه لأنه أسهل للتلفظ من (بروز) ! . وهكذا صار يدعى تيتو حتى يومنا هذا .

وعندما اكتسح الألمان يوغوسلافيا في نيسان ١٩٤١ نظّم تيتو حركة شيوعية، وأزعج الألمان في حرب العصابات. وكانت توجد في يوغوسلافيا آنذاك قوة يمينية يقودها ضابط في الجيش اليوغوسلافي يدعى ميخايلوفتش Mihajlovic فاتّحدت الجماعتان في بادىء الأمر ضد الألمان، ولكنهما اصطدمتا في الأخير ، وفاز تيتو . وعندما انتهت حرب المانيا عام ١٩٤٥ أصبح تيتو رئيساً للوزراء ومن ثم رئيساً للجمهورية .

لا شك ان تيتو خدم بلاده خدمـة كبيرة . وكانت أعظم خدمة قدّمها لها هي توحيـد الجمهوريات الست وتأليف دولة يوغوسلافية متّحدة منها . ويوغوسلافيا بلاد شيوعية ، الا ان اليوغوسلافيين ليسوا من شيوعيي موسكو كما قال تيتو . فهم لا يريدون أن يفرضوا مبدأهم على أي دولة أخرى . وتيتـو نفسه ضد الشيوعية الدولية التي تهدف إلى بلشفة العـالم . بل وقد اختلف مع موسكو إلى درجـة ان الكومنفورم شهّر به سنة ١٩٤٨ ، فترك على أثر ذلك المعسكر الشيوعي وأصبحت بلاده محايدة . وهو الآن يريد أن يعيش بسلام مع جميـع جيرانه وأن يترك وشأنه لينمّي موارد بـلاده ويرفع مستوى معيشة الشعب – وهو قائم بذلك كله خير قيام . ولا يساوره أي وهم حول مـا قد يصيب بلاده لو أدّى الصراع بين الشرق والغرب الى حربٍ عالمية . لذلك فقد قرّر أن يبقى على الحيـاد . ولكن اليوغوسلافيين سيحاربون تحت قيادته أي عدوٍ يحاول غزو بلادهم . وإني لأشعر بالأسف على أية قوة عسكرية تقدم على ذلك . انني أتذكر جيداً حديثاً لي مع تيتو بعد أن زاره عبدالناصر في (بريوني) عام ١٩٥٨ . وكانا قد تبادلا أحاديث طويلة معاً . إذ أخبرني تيتو أن عبـد الناصر قد تغيّر تغيراً كبيراً منذ حادث السويس عام ١٩٥٦ بعد أن شعر أن أمامه مشكلات كثيرة ، وأنه ينبغي له أن يسير بتؤدة . وقد نصحه تيتو أن لا يثير أناساً كثيرين في آن واحد . وهي نصيحة جيدة حقاً ! . وتيتو يرى أن عبد الناصر جاء ليبقى ، فعلى الدول الغربية أن تحاول مساعدته إلى المدى التي تستطيع إليه دون أن تلحق الأذى بمصالحها الحيوية أو بمنزلتها .

والظاهر ان عبد الناصر أخبر تيتو انه شعر بوجوب إقامة علاقات وديـة مع الدول الغربية ، ففيها توجد أسواقه . وهو يريد أيضاً اقامة علاقات ودية مع الحبشة والسودان ، لأن هذين البلدين يستطيعان التدخل في مصادر مياهه . أما هدفه في المدى البعيد فهو إقامة اتحاد عربي أو جمهورية عربيـة متحدة تأتلف جميع الدول العربية في الشرق الاوسط ، وتكون محايدة حياداً تاماً – وتتعامـل تجارياً مع كل من الشرق والغرب ، ولكنهـا لا تنضم الى أي من

الكتلتين . وهو يعلم بأن هذا الهدف لا يدرك إلا بعد زمن طويل .

وقد أجابه تيتو بأنه يعمل على وفق اسس مماثلة في يوغسلافيا . وانـه يتخذ سياسة الحيـاد إزاء الكتلتين الشرقية والغربيـة ، إلا انه يفضل الغرب . وقد اشار على عبد الناصر باتباع هذه الفلسفة نفسها . وقـال تيتو انه لا يشعر بقلق بعد الآن حول الموقف في الشرق الاوسط . وهو يرى ان الاخطـار تكمن في الشرق الأقصى وافريقيا ، وهو يأمل بأن يكون العالم الغربي واقعياً مـع الزعيم المصري ، فيرضى بما هو محتم ، ويحاول توجيه عبـد الناصر نحو إنشاء عالم عربي محايد – يتاجر مع كل دولة ، وينظر نحو الغرب في الملمـات . وقال ان هذا هو ما يريده عبد الناصر في الحقيقة . ويقول تيتو انه قـد تأثر بعبد الناصر الى درجة كبيرة ، وهو يرى أنه زعيم ذو هدف واضح ومحـدد . وانه يتصف بالشجاعة ، ويتحدث الى اتباعه باللغة التي يفهمونهـا – وهو الأمر الذي يعجز عنه في الغالب ، كثير من القادة السياسيين .

لقد أمتعني هذا الحديث متعه عظيمة . فتيتو خبير بالرجال . وفي الاحاديث التي تبادلناها معاً كان يثير إعجابي دائماً بمنطقه السليم . ولم يتفوّه أمـامي قط بكلمة نابية ضـد أي شخص أو أية دولة . وهو واقعي جـداً في نظرته الى المشاكل العالمية . ويرغب في ان تترك بلاده وشأنها ، وان لا تتلاعب بمقدراتهـا الشيوعية الدولية والمؤثرات الخارجية الاخرى ، وان تكون لها علاقات ودية مع جميع جيرانها .

هذا ، ولو عاشت يوغوسلافيـا بسلام خمس عشرة او عشرين سنة ، فإني أرى انها ستصبح دولة مزدهرة يزيد نفوسها على العشرين مليون نسمـة – ومن الدول المحايدة التي يجدر بنا ان نكسب صداقتها .

انني أضع تيتو في الصف الأعلى من القادة الوطنيين – فهو يملك اليقين والصلابة والشجاعة السياسية ، وكل هذه من صفات العظمـة . وفي وسعي أن أقول باختصار إنه رجل عظيم حقاً .

ماوتسي تونغ

لننتقل الآن شرقاً الى جمهورية الصين الشعبية التي يحكمها ماوتسي تونغ . اي ضربٍ من الرجال هو ؟ . لقـــد ذهبت الى الصين لأحصل على جواب هذا السؤال وتحدثتُ اليه .

ماو ابن عامل زراعي . وقد نشأ في عائلة فقيرة فكانت الوسيلة الوحيـدة التي يتمكن بها من ان يثقف نفسه هي ان يحصل على قبول في مدرسة يتعلم فيها مجاناً ، ويتيسر له الطعام والسكن مجاناً . وفـّق الى ذلك . وهو كسائر ابنـاء الريف ، دمقراطي أصيل ولم أجد فيه أي أثر للعجرفـة . وإذا كان لديه شيء منها فهي عجرفة عقائدية ليس إلا . وهو في حديثه بطيء ومتأنٍ يعتني باختيار كلماته ويتكلم بجمل قصيرة . وهو يعرف قليلاً من الكلمات الانكليزية . وقـد استعمل بعضها في حديثه من حين لآخر ، وربما كان ذلك إكرامـــاً لي . وكان حديثنا يجري بواسطة المترجمين .

ويبلغ ماو الآن (١٩٦١) الثامنة والستين من عمره ، إذ ولد عام ١٨٩٣ . وقد بدا لي في اول الأمر في سنه الحقيقي – وليس في هذا ما يدعو الى العجب لو أخذنا بنظر الاعتبار الحياة الشاقة التي عاشها عندمـا كان صغيراً ، ومتاعب الحرب الطويلة التي خاضها ضد اليابانيين (وهي الحرب التي بدأت سنة ١٩٣٧) ثم الحرب الاهلية التي انتهت عام ١٩٤٩ بطرد قوات الوطنين التي كان يقودهـا شيان كاي شيك ، من الصين نهائياً . الا ان رأيي بدأ يتغير عندما تقدمنــا في الحديث إذ بدا ماو دون سنه الحقيقي . ومع انه ثقيل البنيـة ويمشي بتوءدة ، إلا أنـــه يظهر صحيح الجسم ، وان الرياضة الوحيدة التي يمارسها الآن هي السباحة .

وهو ذكي جداً وعملي في معالجة المشاكلات الى حد كبير . ومع أنه بطيء في تفكيره ، فهو يجيب على السؤال فوراً ، ولا يترك مجالاً للشك فيما يفكر فيه . وهو ماهر جداً في الحكم على الرجال وقد اكتشفت فيه ذلك بسرعـة . وكانت

اراؤه عن بعض الشخصيات السياسية التي أعرفها جيداً في العالم الغربي ، في غاية الدقة – هذا هو رأيي على كل حال !.

ولم يخرج ماو من الصين إلا عند زيارته لموسكو . ولكن معلوماته عما يجري في العالم تثير الدهشة . وهو إما كثير القراءة ، او ان المعلومات الخارجية تنقل اليه شفوياً كل يوم . ولديه شأن كل الصينيين ملكة فكاهة كبيرة . فعندما التقيت به لأول مرة قال لي :

« أظنك تعلم انك تتحدث مع معتدٍ (Aggressor) فقد نعتُّ بذلك في الأمم المتحدة . ألا تمانع في التحدث مع معتدٍ ؟ »

وقد قالها وهو يغمزني بعينه . ولما أجبته ان بعض الدول في العالم الغربي تستحق في الماضي ان تلام على ذلك ، ضحك بملء قلبه .

وقد تطرقنا خلال حديثنا الى موضوع الثورات . وكان ذلك عندما فاجأني بشيء ما عن كرومول . فقلت له : انه لولا كرومول لكانت انكلترة اليوم بلداً يختلف عما هو عليه اختلافاً كبيراً . ثم اضفت الى ذلك بقولي : انه ليس من الضروري ان تكون الثورات سيئة بذاتها ، فالثورة الامريكية مثلاً ، اضطرت أنصار الامبراطورية المتحدين الى الذهاب شمالاً وإنشاء دولة كندا التي نعرفها اليوم . ثم ان الثورة الافرنسية انتجت فرانسة أفضل . وأخيراً إن الثورة الصينية التي قادها هو قضت على الاضطهاد الاقطاعي والفساد والعدوان الخارجي . وقد أصغى ماو الى ذلك كله بصمت كبير ، ثم نظر الي مبتسماً وقال : « يبدو لي انك منوّر جداً » .

فسألته ، لماذا فوجىء عندما رأى أنني منوّر ، اعترف بأنه كان مخطئاً في هذه المفاجأة !

وعلى العموم ان ماوتسي تونغ من امتع الاشخاص الذين يمكن ان يلتقي بهم المرء ، ويتحدث اليهم . وهو مخلص في أقواله – على ما أرى . ومن البديهي أنه شيوعي قح ، ولكنني لم أرَ فيه أي دليل يشير الى انه يخطط لبلشفة العالم بأمره . فللصين مشكلاتها الكثيرة التي ستشغلها عن القيام بهذه المهمة .

وأخير إذا قيل لي ان أذهب الى الغابة مع ماوتسي تونغ او خروشيف ، ولم يكن في وسعي إلا ان اختار احدهما فاني افضل ماو .

شوآن لاي

دعنا نلقي نظرة على شوآن لاي قبل البحث في يحتمل حدوثه في الصين في السنين القادمة .

شوآن لاي هو رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية ، ومنفـذ سياسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي – اللجنة التي يرأسها ماوتسي تونغ .

وشوآن لاي يختلف عن ماو اختلافاً كبيراً ، فهو من عائلة ارستقراطيـة . وكان أبوه حاكماً من حكام الصين . وهو في الثالثة والستين من عمره . وفي وسع المرء ان يرى من وجهه حالاً انه ذو عقل راجح وقدير . وسرعان ما اكتشفت انه ألمعي في قابليته الفكريـة . وهو سريع التفكير واضحـه كما أنه واضح في كلامه . وهو شخصية جذابة جداً ، ولديه ملكة فكاهة لطيفة .

ولقد تحدثنا معاً أكثر من سبع ساعات ، وكان ذلـك خلال يومين اثنين . وكنا وحيدين أثناء الحديث عدا مترجمين اثنين . وبدأت محادثاتنا بالموقف الذي يواجهه العالم المنقسم على نفسه ، وكل من الشرق والغرب يزمجر على احدهمـا الآخر . استدرجته الى الحديث عن مشاكله الداخليـة في الصين . وشوآن لاي يستطيع ان يتكلم بالانكليزية ، وقد تكلم بها أثناء الفترات . كما أنه يستطيع ان يتكلم بالافرنسية – وقد استعنت بهذه اللغة مرة او مرتين عندما بحثت عن كلمـة تعبر عن وجهة نظري حق التعبير . ولكننا عندما تحدثنا في المواضيع الجدية كمشكلات الصين وموقفها من الشؤون الدولية ، تكلم هو بلغتـه الاصلية عن طريق مترجمين اثنين ، كلاهما من موظفيه الخاصين ، وهمـا يجيدان اللغة الانكليزية . أما أنا فلم استصحب معي مترجماً من السفارة البريطانية في بكين ، إذ وجدت من الافضل ان اذهب الى هذه الاجتماعات وحـدي ، وان اترك لمضيفي اتخاذ ما يلزم من التدابير . إن هذا أمر ضروري إذا شئت ان يكشف

لك عن رأيه الحقيقي بدون ان يشتبه في ان ما سيقوله قد ينقل الى وزارة الخارجية في لندن . ولم أخبر القائم بالأعمال البريطاني عما تحدثنا به – وهو الذي خيّب أمله ولا شك . لكنني اعتقد أنه عرف السبب .

ولقد استحسنت فكرة استخدام مترجمين اثنين ، حيث يقوم أحدهما بالترجمة ، ويتدخل الآخر اذا رأى من الضروري إجراء تصحيح ما . وقد اجريت التصحيحات عدة مرات حقاً . فمثلاً استعمل المترجم ذات مرة كلمة « حرب » للتعبير عن شيء ما قاله رئيس الوزراء . فتدخل المترجم الثاني قائلاً ان الكلمة التي فاه بها شوآن لاي تعني « تهديد الحرب » وقد أدى تدخله هذا الى تغيير المعنى كله في الموضوع الذي كنا نتناقش فيه .

ودارت أحاديثنا حول العديد من المواضيع . وكنت قد التقيت قبل ذلك بوزير الخارجية المارشال (شين يي) وبحثت معه في شؤون السياسة الخارجية . لكنني تمكنت ان اتحقق من رئيس الوزراء عن السياسة الخارجية للصين . وان الحديث بعدئذٍ نحو سياستها الداخلية والشؤون الآسيوية بوجه عام . وفي جميع احاديثي مع قادة الصينيين رجوتهم ان نكون وحدنا ، فوافقوا على ذلك بشرط ان تكون بيننا « اتفاقية جنتلمان » – وذلك يعني ان لا نخبر **الصحافة عن تفاصيل احاديثنا**

وقد أكد كل من ماوتسي تونغ وشوآن لاي ، وجوب رفع مستوى الفرد الاعتيادي في الصين عما كان عليه ، من حالة مزرية في عهد الاباطرة و « الشياطين الاجانب » – الاخيرون هم الغربيون ! . وكنت قد أثرت هذه المسأله عندما سألت شوآن لاي عن عربات (الريكشوز) (Rickshaws) التي كان يجرها الرجال عندما زرت الصين للمرة الاولى سنة ١٩٣٤ ، فاستبدلت الآن بعربات أخرى تدعى الـ (بيديكوز) (Pedicos) ويجرها رجال يركبون الدراجات . وحتى هذه تقرر الغاؤها الآن والاستعاضة عنها بسيارات الاجرة . وقد سألت هذا السؤال لأن عربات (الريكشوز) التي يجرها الرجال لا زالت موجودة في هونغ كونغ ، وقيل لي ان معدل أعمار الذين يجرون هذه العربات

٢٨ سنة . فقال شوآن لاي ، أنه يرى ان سحب الانسان عربة ريكشو وكأنه حصان ، إهانة له ، وان ذلك قد منع في العهد الشيوعي .

هذا ولا شك ان اقوى شخصية في الصين اليوم هو ماو تسي تونغ الذي يرأس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي للجمهورية الشعبية – أما الرجل القوي الثاني فهو ليس شوآن لاي ، كما يخيل للبعض ، بل هو (ليوشاوشي) الذي هو رئيس الدولة والقائد العام لجميع القوات المسلحة ، والنائب الاول لرئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . وهو رجل في الخامسة والستين من عمره . واما النائب الثاني لرئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فهو شوآن لاي . وهؤلاء الثلاثة هم الحكام الحقيقيون للصين . وهم يجتمعون كثيراً ويقررون سياسة الصين التي ينفذها بعدئذ رئيس الوزراء شوآن لاي ومجلس وزرائه . وهكذا فإن ترتيب الخلافة بعد ماوتسي تونغ قد حدد بوضوح – فسيليه ليوشاوشي اولاً ثم شوآن لاي . وفي مجلس الوزراء ستة عشر نائباً لرئيس الوزراء . وذلك يشبه على العموم مجلس الوزراء البريطاني . ولكل من نواب رئيس الوزراء أعمال سياسية وتخطيطية تماثل تقريباً تلك التي يقوم بها مجلس الوزراء في انكلترة . ولكن الفرق ، هو ان السياسة العليا في الصين تضعها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي .

وان نواب رئيس الوزراء (وهم الوزراء في الواقع) يقومون باعمال تنفيذية وإدارية أكثر من قيامهم باعداد الخطط السياسية – او السياسة العليا .

ولعل أقرب شبه بنواب رئيس الوزراء هم وكلاء الوزراء الدائميين في وزارات الحكومة البريطانية .

وان السكرتير العام لمجلس وزراء الدولة هو هسي شونك هسون (Hsi Chung Hsun) ومنصبه يعادل منصب سكرتير مجلس الوزراء في الوايتهول .

يظهر من ذلك ان السلطة الحقيقية تتركز في المناصب العليا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، او بالاحرى في أيدي الاشخاص الثلاثة الذين ذكرتهم ،

فهؤلاء هم أقوى الرجال في الصين ، وهم الحكام الحقيقيون للبلاد .

وإذا طلب الي ان أسمي شخصاً رابعاً فأقول أنه كو شنك شي (Ko ching chi) وهو عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، ورئيس بلدية شنغهاي . وهو رجل كبير في السن ، ربما كان في السبعين من عمره ، وقد التقيت به في شانغهاي ، وكان حاضراً أثناء محادثاتي مع ماوتسي تونغ التي دامت أربع ساعات .

وقد أوضح لي شوآن لاي ان تركيز الخطط السياسية في المراجع العليا أمر جوهري للصين الجديدة إذا اريد لها ان تتقدم تقدماً مطرداً . ففي بلاد واسعة كالصين يربو سكانها على الستمائة وخمسين مليوناً . وهم يتكاثرون بمعدل خمسة عشر مليوناً في السنة ، كان من الضروري القبض على ناصية الامور من القمة عندما اعلنت جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ . وبدون هذه السيطرة الشديدة من القمة ، كان من المحتمل ان تفلت الامور من اليد . انني استطيع ان افهم ذلك جيداً . وانه لهذا السبب نفسه تنازل ماو تسي تونغ عن منصب رئاسة الدولة ليصبح رئيساً للجنة المركزية للحزب الشيوعي — حيث تكمن السلطة الحقيقية ، وحيث ترسم الخطط السياسية .

هؤلاء هم حكام جمهورية الصين الشعبية — فلنبحث الآن عن خططهم السياسية بقدر ما استطعت ان اطلع عليها .

الى اين تسير الصين ؟

ان كثيرين من الناس لا يفهمون التبدل الذي حدث في الصين منذ الثورة . فقد عانت الصين القديمة منذ سنين طوال من مشكلتين كبيرتين — العدوان الخارجي الذي لا يمكن ان نتنصل عن مسؤوليته ، نحن البريطانيون ، تنصلاً تاماً ، والاضطهاد الداخلي الذي كان يمارسه الاقطاعيون . وكانت البلاد فقيرة ومتأخرة ، وقد استثمرها الاجانب لأغراضهم التجارية الخاصة واصبحوا أغنياء ، في حين ان الاكثرية الساحقة من الشعب بقيت فقيرة جداً . وكان حكم

الاباطرة فاسداً ، فلم يحقق شيئاً للطبقة العاملة . ولذلك كان يبـــدو من المحتم نشوب ثورة في الصين. وقد نشبت في وقتها المناسب،وكان قائدها ماو تسي تونغ وقـد اكتسحت الثورة الاباطرة وأرباب الحرب ، وملاكي الاراضي الذين كانوا يعيشون بعيداً عنها ، « والشياطين الاجانب » . وبذلك ولدت الصين الجديدة. وفي غمرة ميلاد الصين الجديدة ، عانى كثيرون ، ومات كثيرون ربما بلغ عددهم الملايين ، ولكن ملايين أكثر قد انتفعت من الثورة– وهي تربو على ستمائة مليون نسمة ، وتحررت الكتلة العاملة العظيمة – كتلة الفلاحين وعمــال المدن من ظلم الحكم القديم، وصار عليهم الآن ان ينقادوا الى الضبط الشديد الذي فرضه الحكم الشيوعي ، وان يقرروا في الوقت نفسه ، فـــيما إذا كان التغيير الذي حدث في بلادهم يستحق الاهتمام . ولو سئلوا هذا السؤال اليوم فسيكون جوابهم « نعم». فهم يجدون على الأقل ، ما يكفي للأكل ، وقـــد تخلصوا من جور الاقطاع . وان حكام الصين الجدد يجزمون على ان الخير سينبثق من بين الشرور ولو ببطء . وهم مصممون أيضاً على انْ تكون الصين الجديدة سيدة نفسهـــا ، وحرة في تقرير مصيرها – وبدون تدخل خارجي .

وهناك سوء فهم كثير في العالم الغربي للصين الجديـــدة . ولا سيما في الولايات المتحدة ، ومن البديهي انه ليس كل شيء في الصين جيداً ، كما انه ليس كل شيء في العالم الغربي جيداً – بـــل هو بعيد عن ان يكون جيداً . ولكن ليس كل شيء في الصين سيء ، كما يظن فريق من الناس . ولا شك أنه من الخطأ الظن بأن الصين دولة يسكنها شعب تعس وكئيب وذليل ، مكره بالجوع ، ويستغله قادة قساة وان الخوف يعم البلاد . ربما كانت هذه الصورة الحقيقية للصين القديمـة . وقد كانت حقاً الصورة التي شاهدتها عام ١٩٣٤،ولكنها ليست الصورة الحقيقية للصين في يومنا هذا .

وثمة أمر واحد عن الصين الجديدة لا ريب فيه ، الا وهو ان ماو تسي تونغ قد أنشأ أمة متحدة ومخلصة ، تزيد نفوسهـــا على ستمائة وخمسين مليون نسمة ولها غاية واضحة . ان كلمته هي القانون ، فهي الكلمة المطلقـــة والاخيرة .

والحكام الجدد يريدون ان يجعلوا الصين أقوى دولة في آسيا وربما في العـــالم . ومن البديهي ان أمامهم مهام شاقة ، وان الوصول الى الهـدف الذي ينشدونه يحتاج الى وقت طويل – ربما خمسين سنة . ولكن الصين تمتاز ببعض الأمور . اذ لديها عدد هائل من السكان الذين يمتازون بالشهامة والمقدرة على العمل الشاق. وربما كانوا من أكثر شعوب العالم جدّاً . وقد صمموا جميعاً على العمل من أجل رفاهية الصين تحت قيادة حكامهم الجدد . ثم ان للشعب عقيدة معينـــة وهي الشيوعية . ولديهم ضبط شديد وصارم . وهم يثقون بقادتهم ومستعدون لقبول الضبط الشديـد للحكم الشيوعي ، مفضلين اياه على ظلم الأباطرة وأرباب الحرب. وما دام المرء راضياً بهذه الأمور – وان تسعين بالمائة من الصينيين راضون بها – فلا يخاف من شيء .

لقد عرفت الصين القديمة ، ويجب ان أعترف صراحة ان مـــا شاهدته في الصين الجديدة يجعلني أفضلها كثيراً على الصين القديمة .

هذا ويجب ان نفهم نحن الغربيون شيئين عن الصين الجديدة – سياستهـــا الحالية وهدفها النهائي .

فالسياسة الحالية لقادة الصين تبنى على القضايا الداخلية بالدرجـة الاولى . فالبلاد ، كما قلت ، فقيرة ومتأخرة ، وهي تجابه مشكلات جبـــارة في إعادة البناء والتصنيع والري والاسكان وتموين الطعام والسيطرة على الانهر العظيمـة لتوليد القوى الكهربائية والحيلولة دون حدوث كوارث الفيضان . وقـد قلت لماوتسي تونغ ان اصلاح كل هـــذه الامور قد يستغرق نحو خمسين سنة ، وان كان من المحتمل ان تتمكن الدوله من اصلاح قسم منهـــا خلال عشرين سنة والمضي قدماً في طريق التقدم . فأيدني ماو في هذا الرأي . وخلال هذه المدة لا مناص للصين من ان تعيش بسلام . وان من يقضي أياماً قلائل في الصين ويزور مدنها الكبيرة ، ومنـاطق الأرياف لا بد وان يدرك أن حرباً عالميـــة أخرى ستسبب النكبات لهذه البلاد ، وستؤخرها خمسين سنة او اكثر . وقـد أكد ذلك كل من ماو تسي تونغ وشوآن لاي .

وكجزء من سياسة الصين الحالية تحالفها مع روسيا تحالفاً وثيقاً . وليس من الصحيح التفكير بأن هاتين الدولتين متخاصمتان[1] . فالصين تعتمد على الاتحاد السوفيتي الى درجة معينة في التجهيزات والمعلومات الفنية . ولكن اعتمادها على روسيا اليوم هو أقل مما كان عليه في الماضي ، وقد زاد اعتمادها على نفسها سنة بعد أخرى . ويرد الخبراء الروس الى الصين ليعلموا الصينيين استعمال التجهيزات الحديثة ، ولكن بعد ان يتعلم هؤلاء ذلك – وهم يتعلمون بسرعة – يعاد الروس الى بلادهم . وقد ارتبطت الدولتان في قضايا الدفاع ارتباطاً وثيقاً ، وسيساند احدهما الآخر في الحرب ، ويقوم كل منهما بحماية المناطق الخلفية للآخر .

وقد سألت شوآن لاي إن كانت الصين ستحصل على الاسلحة النووية بمرور الزمن . فأجابني بأنهم سيحصلون عليها ما دامت هذه موجودة لدى الدول الاخرى . ولكن إذا تم اتفاق عام على تحريم جميع الاسلحة النووية فستحذو الصين حذو الدول الاخرى ، فتطبق ذلك برحابة صدر . ويجب ان نعلم في هذا الصدد ، ان للصين عدداً من العلماء المجيدين .

ولكن ما هدف الصين النهائي ؟ . لقد سألت ماوتسي تونغ هذا السؤال :

« بعد عددٍ معيّنٍ من السنين – ربما كانت عشرين سنة أو أكثر – ستصبح الصين دولة عظيمة وجبّارة ، نفوسها تزيد على الألف مليون نسمة بكثير ، ولديها قوة اقتصادية نامية . فماذا سيحدث عندئذٍ ؟ أو بالأحرى ما هو الهدف النهائي للصين الجديدة » ؟ فأصغى إليّ ماو بامعان بينما كان المترجم يترجم له هذا السؤال ثم قال :

« آ ! يظهر أنك تظن بأن الصين ستمارس العدوان خارج حدودها » .

فأجبته : انني لا أريد أن أفكّر تفكيراً كهذا ، ولكن التأريخ قد علّمنا انه إذا أصبحت دولة ما عظيمة وقوية ، فإنها ستبدأ في الحصول على أراضٍ

---

[1] – ربما كان من الصحيح أن يدعي مونتغمري ذلك قبل ست سنوات أما اليوم فالواقع يخالف ذلك .

خارج حدودها . وهناك أمثلة كثيرة لذلك . ويمكن إدخال بلادي (انكلتره) في قائمة الدول التي فعلت ذلك . ففكّر ماو لحظة قبل أن يجيب ثم قال : ان من المستحيل القول ، على وجه الدقة ، ماذا سيحدث في الصين بل وفي العالم بعد عشرين أو ثلاثين سنة . ولا يستطيع المرء ، في هذا الصدد ، إلا ان يتكهّن . وبعد هذه السنين الطوال قد يكون هو وكافة قادة الصين الحاليين ، في عداد الأموات وسيظهر مكانهم قادة جدد . أما فيما يتعلق الأمر به ، فهو سيستعمل نفوذه في السنين الباقيات من حياته ، في التأكيد على وجوب بقاء الصين ضمن حدودها الشرعية ، وعدم قيامها بأي عدوان عسكري خارج حدودها ، والاستعانة بالمفاوضات في جميع الأحوال التي يحدث فيها خلاف حول هذه الحدود . وأضاف قائلاً : لقد عانت الصين كثيراً من العدوان الخارجي والاستغلال الأجنبي إلى درجة يجعل هذه الدولة اليوم لا تقدم على إهانة أية دولة أخرى . فالصين تريد أن تترك وشأنها لتفيق من تأثير عدوان الدول الأخرى عليها في الماضي ، لكنها إذا هوجمت فستدافع عن نفسها بكل ما لديها من قوة – وهي على استعداد لذلك .

وعندما بحثت هذه المشكلة نفسها في حديث لي مع المشير شين يي وزير الخارجية ، أثرت موضوع الحدود الشرعية للصين . فظهر لي ان قادة الصين الشيوعية يدخلون ضمن بلادهم هونغ كونغ والتيبت وفورموزا . أما هونغ كونغ ، فقد امتلكتها بريطانية بعد أن تنازل عنها الصينيون لها سنة ١٨٤١ . ومن البديهي أن جمهورية الصين الشعبية الحالية لا تعترف بشرعية أية معاهدة عقدت قبل أكثر من مائة سنة (وهي معاهدة نانكنغ التي عقدت مع امبراطور مانشو) . أما المناطق الجديدة في أراضي الصين الأصلية من جهة كاولون (Kowloon) فهي تختلف عن ذلك . انها تؤلف نحو ٣٥٠ ميلاً مربعاً من الأرض ، وقد استأجرتها بريطانيه من الصين لمدة ٩٩ سنة ابتداء من ١ تموز ١٨٩٨ . ولا تعترف الصين الشعبية بعقد الإيجار هذا . ولكن سياستها الحالية تقضي أن تكون صديقة لبريطانيه ، وهي لا تريد أن تخلق أية مشاكل حول

هونغ كونغ . على أن الأمر يختلف طبعاً إذا اشتبكنا في حرب مع الصين أو رفضنا الاعتراف بالجمهورية الشعبية .

أما التيبت فهي الآن جزء من الصين ، وهو الأمر الذي لا يترك مجالاً للنقاش حولها . وقد اتفقت أكثرية الجهات التي استشرتها على ان التيبت كانت في العهود الماضية منطقة نفوذ صينية ، أما الآن ، فقد تم الحاقها بالجمهورية الشعبية . وقد أثار اهتمامي أن أعلم أن نهرو وقّع عام ١٩٥٤ على اتفاق مع شوآن لاي اعترف بموجبه ان التيبت جزء من الصين .

وأما قضية فورموزا فهي معقّدة . فقبل نحو ٤٠٠ سنة (في القرن السادس عشر مثلاً) حاولت دول عديدة أن تؤسس لها مستعمرات في هذه الجزيرة الكائنة في القسم الغربي من المحيط الهادي – ومن بين هذه الدول : البرتغال واسبانيا وهولنده . ثم استولى المانشويين على الصين ، وأصبحت هذه الجزيرة موضع اهتمامهم . وفي نهاية القرن السابع عشر ، اعتبرت فورموزا جزءاً من الامبراطورية الصينية . وفي سنة ١٨٩٥ سلّمت الجزيرة إلى اليابان ، فحوّلتها إلى قاعدة عسكرية وبحرية مهمة . وقد استخدمها اليابانيون قاعدة في الحرب العالمية الثانية . وفي مؤتمر القاهرة المنعقد في تشرين الثاني ١٩٤٣ والذي حضره شيان كاي شيك ، تمّ الاتفاق على اعادة فرموزا الى الصين بعد أن تندحر اليابان نهائياً في الحرب . وقد استسلمت الجزيرة أخيراً إلى الصين الوطنية رسمياً سنة ١٩٤٥ . وكانت هناك صين واحدة فقط وقتئذٍ ، وهي الصين الوطنية تحت قيادة شيان كاي شيك .

الا انه عندما اندحر اليابانيون عام ١٩٤٥ ، اتجهت الفئتان اللتان كانتا في الصين آنذاك ، والتي كان يقود احداهما شيان كاي شيك ، والأخرى ماوتسي تونغ ، اتجهتا نحو احداهما الأخرى ونشبت بينهما حرب أهلية ضارية . (وكانت الفئتان قد اتحدتا من قبل ضد الغزو الياباني ، الذي يمكن القول انه بدأ بشكل جدّي عام ١٩٣٧ رغم ان اليابانيين قد دخلوا منشوريا عام ١٩٣١) . وقد استخدمت قوات شيان كاي شيك فرموزاً قاعدة لحركاتها التي قامت بها في

أراضي الصين الأصلية . فلما اندحرت هذه القوات أخيراً أمام القوات الشيوعية التي يقودها ماو ، انسحبت تلك التي لم تستسلم إلى فرموزا . وهكذا فإن للصين حكومتين ، الجمهورية الشعبية التي عاصمتها بكين ، وتسيطر على أكثر من ستمائة وخمسين مليوناً من السكان في أراضي البر الصيني ، والصين الوطنية في فرموزا وهي جزيرة يقل سكانها عن العشرة ملايين .

وقد برزت مشكلة بعدئذٍ : أي من هاتين الحكومتين الصينيتين لها حق السيادة على فرموزا ، هل الجمهورية الشعبية أم حكومة شيان كاي شيك وجماعته ؟ .

وهكذا ظهرت معضلة معقّدة أشد التعقيد ! .

لقد اعترفت الحكومة البريطانية بالجمهورية الشعبية التي حكومتها في بكين، ولم تعترف بحكومة فرموزا التي يرأسها شيان كاي شيك – وحسناً فعلت على ما أرى .

أما الولايات المتحدة فقد فعلت عكس ذلك ، إذ اعترفت بحكومة شيان كاي شيك ، ورفضت أن تتعامل مع الصين الشعبية في أي أمر من الأمور – وهو أمر خاطىء في ظني . يضاف إلى ذلك ان الولايات المتحدة قد انشأت وفقاً لاستراتيجيتها ، سلسلة قواعد عسكرية في القسم الغربي من المحيط الهادي ، تلك القواعد التي يرى الصينيون انها معدّة للأغراض الهجومية على بلادهم – وهو أمر يخالف الواقع ، ولكنه لا سبيل إلى إقناع الصينيين بخلاف ذلك .

هؤلاء إذن هم حكام جمهورية الصين الشعبية ، وتلك هي خلاصة سياستهم ، ومن رأيي أن الصين لا تريد فرموزا لكي تتّخذ منها قاعدة للقيام بحركات عسكرية نحو مناطق أبعد منها . فهي لن تقدم على عمل كهذا، بل تريد فرموزا والجزر القريبة من الساحل لأنها تعتبرها ملكاً للصين من الوجهة الشرعية . وإني أؤيّدها في ذلك . الا انه لا يحتمل أن يتحقق أي شيء في هذا الصدد الا اذا أمكن إقناع الولايات المتحدة بأن تنظر الى المسألة بعين العقل . وهو أمر لا

يحتمل حدوثه ما لم تضطر الولايات المتحـدة الى تغيير سياستها ، بتأثير عامل خارجي أو بضغط من الأمم المتحدة .

وثمة أسئلة عديدة قد يتساءل عنها المرء : هل الحـكم الشيوعي في الصـين الآن وتحت قيادة ماوتسي تونغ سيدوم؟ وهل ان مظاهر الحماس الحالية وخطى العمل الجبارة ستستمر طيلة المدة اللازمة لبلوغ الهدف ؟ . فهذه البلاد قـد تعزّزت في الوقت الحاضر بفلسفة « القفزة الكبيرة الى الأمام » (The Great - Leap Forward) .

وثمة سؤال آخر : إذا تطورت هذه البلاد – وهي اليـوم تتطوُر بخطى مدهشة ، فهل سيظل ماو القائد الذي تحتاج اليه الصين – خاصة اذا اتّضح ان « الأرض الموعودة » لا تبدو قريبة وبدأت في الظهور نخبة جديدة من القـادة بنتيجة تحسن التربية ؟

وسؤال أخير ، لكنه في غاية الأهمية :

هل في وسع الإنسان ، أن يصدّق كل ما يقال لنا عن الصين الجديدة ؟

ان هذه أمور حدسية لا يستطيع أحد أن يجزم بها . كل ما في وسع المرء أن يقوله هو ان الصين اليوم (١٩٦١) تملك العقيدة والعزم والصلابة والتقدم . وكل ذلك ظاهر للعيان ولا يمكن الاستهزاء به .

خلاصة – عن القيادة الشيوعية

يتضح مما كتبته عن القادة الشيوعيين الذين التقيت بهـم ، انهم وصلوا الى الحـكم عن طريق شاق. وقد قبضوا أخيراً على ناصية السلطة ، وفرضوا ارادتهم بالقوة . وفي طريقهم الى السلطة العليا قد قضوا بطبيعة الحال، على جميع الخصوم الذين كانوا ينافسونهم على المناصب . وهم لم ينتخبوا انتخاباً حراً. وليس للناخب أي اختيار للانتخاب كما انه ليس في البرلمان معارضة . اننا نعتقد في العالم الغربي ان الحصول على حكومة جيدة يتطلب وجود معـارضة متحدة وفعّالة . وهذه هي إحدى الطرق التي نختلف بها نحن عن الشيوعيين – وهو اختـلاف

أساسي حقاً .

لقد قال لي ماوتسي تونغ ان فلسفة الشيوعيين هي « كل حسب قابليته وحاجته » وهذا ينطوي على توزيع الثروة إلى حدٍ معين . وقد قال أيضاً ان الصين ليست دولة شيوعية بعد . انها دولة اشتراكية تسير في طريقها نحو الشيوعية كلما ازدادت غنى وقوة !

ان جميع السلطات في بلدٍ شيوعي تتركـّز في الدولة . وليس ثمة ولاء لجهة أخرى . لذلك فإن الديانة المسيحية ، لا تستطيع أن تعمل في بلدٍ شيوعي لأن الولاء الأول فيها يجب أن يكون لله ، وتأتي الدولة بعدئذٍ . انني أشعر دوماً ان ستين بالمائة من الشعب في معظم البلاد الغربية لا يعيرون في الواقع اهتماماً يذكر إلى الدمقراطية ، أو الدين ، بل يهتمّون بأنفسهم . ونحو ثلاثين بالمائة منهم يسمّون أنفسهم مسيحيين تظاهراً بالتقوى ، وابتغاء احترام الناس لهم . والعشرة بالمائة الباقون فقط هم المسيحيون الحقيقيون والمؤمنون بالدمقراطية .

لكن رحلاتي في البلاد الشيوعية حملتني على الظن على ان النسب المئوية في شعوبها تختلف عن النسب عندنا ، ولا سيما في روسيا ويوغوسلافيا والصين . فإن صحّ ظني هذا ، فيجب أن نفترض ان سببه الانضباط الشديد الذي يفرضه القادة الحاكمون – أولئك الذين يفرضون ارادتهم بالقوة على شعوبهم .

إن قلب القيادة الشيوعية هو في روسيا . فهناك نرى الشيوعية الدولية ورغبة بل وعزماً على بلشفة العالم . وقد سبق ان أوضحت ان خروشيف يعاني مشكلات عديدة في روسيا . وهو الآن يرى ان الحرب لا تجدي نفعاً – لا لأنها شرّ أو خطأ ، بل لأنها ستدمّر الاتحاد السوفيتي . وهو في هذه القضية والقضايا الأخرى المتعلقة بها ، ملزم بأن يحسب حساب الماركسيين الشديدي التعصب .

ان في يد خروشيف بعض (الأوراق) الجيدة . فهل سيجازف معتمداً على الأوراق التي في يده أكثر مما ينبغي ؟ وهل سيمعن في سياسة « حافة الهاوية » فيفشل ؟ – وهو ما سيحدث حتماً اذا اتّحد الغرب تحت قيادة حازمة وحكيمة ؟ كل هذه أمور لا يمكن التكهّن بها . فالأحداث الأخيرة تحملني

على الظن بأن روسيا ستستمر على الصيد في المياه العكرة، ما لم وإلى أن يتمكن الغرب من عقد نوع من الاتفاق المعقول معها في المستقبل القريب – وهو ما أدعو إليه بقوة .

أما فيما يتعلق بالصين ، فإن موقفها ، على ما يبدو لي ، يختلف عن موقف روسيا . إن هذه قد وجّهت أنظارها نحو آسيا وليس العالم – هذا هو الواقع في الحال الحاضرة على كل حال. والصين تستهدف القضاء على النفوذ الغربي بأسره في أقطار آسيا كما سبق أن قضت عليه في بلادها . ويظهر ان هدفها البعيد هو السيطرة على آسيا – ولكن ليس بفتح البلاد الأخرى عسكرياً ، بل بجعلها تنظر إلى بكين وتعتمد عليها ، وذلك عن طريق الضغط التدريجي العقائدي والسياسي . ولا بدّ ان القارىء يتذكّر بهذه المناسبة ما قاله لي ماوتسي تونغ من أن الصين لن تقدم ، في المدة الباقية من حياته ، على أي عدوان عسكري فيما وراء حدودها الشرعية . وإني أصدّقه . وكل ما يجب القيام به الآن هو الاتفاق على الأماكن التي تمرّ منها حدود الصين الشرعية .

هذا وقد يكون من المناسب أن أوجّه كلمة تحذير إلى المستهزئين . إنني لا اعتقد انه في وسع المرء أن يحكم على رجل حكماً صحيحاً إن لم يكن قد التقى به . كما انه لا يستطيع الحكم على دولة إن لم يكن قد زار بلادها ورأى شعبها . بل ان حكم المرء على رجل أو دولة بغير أن يتصل بهما قد يوقّعه في خطأ كبير – وهذ هو السبب الذي حدا بي إلى زيارة قادة روسيا وجمهورية الصين الشعبية في بلادهم . وأخيراً إن هذا الباب إن هو إلا مجمل لموضوع كبير جداً. فقد حاولت أن أذكر باختصار وبساطة أو ان الخّص ما اعتقده جوهر القضية . وآمل أن يكون ما ذكرته قد أوضح إيضاحاً كافياً كيفية تكييف أسس القيادة الشيوعية وأهدافها وأعمالها في المستقبل كما تبدو لي .

الباب الرابع عشر

نظرة إلى الوراء - موسى (عليه السلام)

قبل ان نحاول الاستنتاج من الآراء التي ذكرتها عن القيادة، دعنا نلقي نظرة على النبي موسى .

لطالما بحثت في سيرة موسى قائداً فوجدت البحث فيها ممتعـــاً . ويمكن قراءة سيرة حياته في الاسفار الاولى من التوراة – كتب موسى . وينبغي ان نبحث في فعاليـــاته بطريقة تختلف بعض الاختـــلاف عن الطريقـــة التي اتبعناها حتى الآن ، وذلك لأن المعلومات والحقائق الواردة عنه هي ليست واضحة كما هي الحالة ، في القادة الآخرين ، الذين سبق ان بحثنا عنهم . ثم انني لم أعرف موسى طبعاً !

وصل بنو إسرائيل ، كما يقول المؤرخون ، الى مصر حوالي سنة ١٧٢٠ قبل الميلاد . وكان تأريخ الهجرة من مصر بقيادة موسى حوالي سنة ١٢٩٠ قبـــل الميلاد . وقد عاشت إسرائيل بين هذين التأريخين – مـــدة ٤٣٠ سنة على وجه التقريب – عيشة تعاسة وشقاء وعبيداً للمصريين . وكانوا يسخرون بالتهديـــد للعمل الاجباري .

« فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنفٍ . ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية

في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل »[1] .

لقد بدا لي دوماً ، ان المهمة التي القيت على عاتق موسى كانت في غاية الصعوبة – وهي قيادة بني إسرائيل ، الذين كانوا شعباً من الرعاة ، من مصر الى أرض كنعان ، الارض التي هاجروا منها . واني لم أصدق أبداً أنهم بعد أن خرجوا من مصر ،هاموا على وجههم من غير هدى في صحراء سيناء أربعين سنة – أي تاهوا . وأعتقد ان موسى علم حق العلم أنه لا يستطيع ان يحقق الجزء الثاني من مهمته ، والذي كان ينطوي حتماً على قتال كثير ،إلا إذا مات المتبرمون القدامى من قومه ، وظهر مكانهم جيل جديد مطعم بروح القتال ، ومدرب على الحرب . ولقد أدرك أنه ليس في الإمكان تحويل أناس مستعبدين الى شعب مقاتل في أسابيع قليلة او حتى في أشهر . وانه لا بدّ من روح جديدة تبعث فيهم – وهو أمر يتطلب وقتاً لا يستهان به . وكان من العبث الاقدام على غزو ارض كنعان[2] من غير خطة سليمة ، خطة يمكن تنفيذها بسرعة والوصول الى الهدف المنشود بغير انتكاسات . وكان اجتناب الانتكاسات أمراً مهماً ، إذ ان الانكسار في المعركة ، كان يؤدي في الغالب الى فقدان الثقة بقيادة موسى .

ان هذه القصة تعود بنا الى الورء أكثر من ٣٠٠٠ سنة ، ويمكن ان تتلخص فيما يلي :

قرر موسى انه ينبغي اولاً الحصول على معلومات عن هذه البلاد الجديدة . فارسل كشافين الى الامام لهذا الغرض – وكان أحدهم شاباً يدعى (يشوع)[3].

---

١ – سفر الخروج الاصحاح الاول من العهد القديم ترجمة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى .

٢ – كان الكنعانيون يسكنون الاراضي الممتدة على ساحلي لبنان وفلسطين من صيدا شمالاً الى غزة جنوباً حتى وادي الاردن شرقاً .

٣ – (يشوع بن نون) خادم موسى وخلفه وهو الذي أدخل العبرانيين الى أرض كنعان وقاد جيشهم في حرب العمالقة .

وقد تولى هذا فيما بعد القيادة العليا لجيش إسرائيل .

« وارسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم . إصعدوا من هنا الى الجنوب واطلعوا الى الجبل ، وانظروا الى الارض ما هي ، والشعب الساكن فيها ، أقوي هو أم ضعيف ، قليل أم كثير »[١] .

كان هذا عملاً مجيداً من رجل لم يمتهن الجندية . وقضى الكشافون أربعين يوماً في مهمتهم ثم عادوا بالمعلومات عن المقاومة التي يحتمل ان يلقاها بنو إسرائيل – سكان كثيرون ورجال أقوياء ، ومدن محصنة « كبيرة وترتفع أسوارها الى عنان السماء » .

لقد أيدت هذه المعلومات رأي موسى عن المهمة التي تواجهه . وبدت المشكلة الجسيمة والشاقة التي أمامه ، واضحة الآن – فأدرك حق الادراك أنه ينبغي له تحويل أمته الى شعب مقاتل وتدريبهم على الحرب . وكان هناك عامل آخر مزعج الا وهو ان تقرير الكشافين قد أثّر في معنويات شعبه ، مما أدى الى إضعافها أكثر من ذي قبل .

« فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ، وبكى الشعب تلك الليلة . وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل .... لماذا أتى بنا الرب الى هذه الارض ألنسقط بالسيف ؟ وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ؟ ...... وقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع الى مصر »[١] .

لقد كانت هذه فوضى كبيرة ! ولم يقتصر الامر على ضعف المعنويات فحسب بل كاد ان يكون تمرداً وعصياناً .

وكان الطعام شحيحاً أيضاً ، فتذكروا معيشتهم الحسنة في دلتا مصر . ويبدو انهم نسوا تعاسة العمل الاجباري .

« ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر اذ كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل حتى الشبع » .

---

١ - سفر العدد الاصحاح الثالث عشر من العهد القديم ترجمة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى .

« فمن يعطينا اللحم لنأكل وقد كان ميسوراً في مصر[1] ؟ »

لا بد وأن هذه كانت فترة عصيبة لموسى . فقد كان يعلم بوجود شغب كثير في شعبه ، ولا سيما بين المتقدمين منهم في السن . وبرغم دينهم الجديد لم يكن بنو اسرائيل قد تحوّلوا الى شعب ذي ضبط وروح حربية . وكانوا بالاضافة الى ذلك مسلحين تسليحاً ضعيفاً ، إذ لم تكن لديهم غير أسلحة بدائية جداً . لذلك قرر موسى ان يلغي خطته الرامية الى التقدم نحو أرض كنعان من الجنوب . وصمم بدلاً من ذلك ان يجعل بني إسرائيل يتنقلون في الصحراء مدة من الزمن تكفي لتحويلهم الى قوة وطنية صلبة مدربة على القتال . وينبغي ان تكون هذه المدة كافية لظهور جيل جديد . أما أمدها فلم يكن واضحاً لديه في بادىء الامر . وهكذا شرع في تحقيق مهمته . غير انه اضطر في الاخير ان يجعلهم يتنقلون ٤٠ سنة ، وفي خلال هذه المدة ظهر جيل جديد مستعد لغزو أرض الميعاد . ومن الطريف ان نقرأ كيف ازدادت مهارتهم في القتال تدريجياً وارتفعت معنوياتهم . وقد وضعت خطة جديدة لغزو ارض كنعان من الشرق وكان الطريق الجديد للوصول الى الارض آنفة الذكر يمر من مناطق تعود الى بعض الحكام الذين يقتضي أخذ موافقتهم . وكان في مقدمة هؤلاء حاكم مملكة (إدوم[2])

« وارسل موسى رسلاً من قادش[3] الى ملك ادوم ..... دعنا نمر في

---

١ – سفر الخروج الاصحاح السادس عشر من العهد القديم ترجمة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى .

٢ - (Edom) – وكانت في المنطقة الممتدة من وادي زرد حتى خليج العقبة مسافة ١٠٠ ميل تقريباً – وهي تقع على طرفي وادي عربة (المنخفض الكبير الذي يربط البحر الميت بالبحر الاحمر) . وهذه منطقة وعرة كان الدرب السلطاني وقتئذ يمر على الهضبة الشرقية منها (معجم التوراة Bible Dictionary) الصحيفة ١٨٣ .

٣ – قادش (Kadesh) مكان يقع شمال شرق شبه جزيرة سيناء ويسمى اليوم (عين المشنات) القريب من خط الحدود بين مصر وفلسطين . وكان في قادش وقتئذ بئر ومنطقة سكنى . ويقال ان اليهود تاهوا في المنطقة الصحراوية القريبة من قادش (معجم التوراة) ←

أرضك ..... في طريق الملك[1] نمشي ، لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك »[2] .

غير ان ملك إدوم رفض السماح لهم بالمرور عبر اراضيه . فقرّر موسى ان لا يجازف بالقتال معه ، وان يقوم بدورة واسعة حول أراضي ادوم ليجتنبها . ثم جاء بنو إسرائيل الى مملكة الآموريين ، وطلبوا مرة أخرى إذناً بالمرور عن أراضيها وعلى الدرب السلطاني . غير ان طلبهم رفض مرة أخرى . وكان موسى وقتئذٍ واثقاً من قوته وثوقاً تاماً ، فصمّم على أن يقاتل الآموريون فحقق عليهم ظفراً مبيناً . وقد ساعد ذلك على ارتفاع معنويات بني اسرائيل وصاروا يشعرون بقوتهم ولم يندحروا بعدها في أية معركة حتى تم لهم تحقيق مهمتهم .

واضطر موسى عندئـذ الى التخلي عن القيـادة . إذ لم يكن يسمح له بالدخول الى الارض الموعودة . لكنه سمح له ان يراها من قمة (نيبو)[4] . وقد رأيت هذا المنظر من فوق جبل (ميسكاه) إذا ذهبت الى هناك مع زوجتي سنة ١٩٣١ عندما كانت كتيبتي ترابط في القدس .

وكان لأسرائيل وقتئذٍ حاجة الى قـائد عسكري باهر يستطيع استخدام ما أعده موسى لغزو أرض كنعان . فوجدوا في يشوع ذلك القـائد . وكان هذا قد تدرب على يد موسى . فـارسل يشوع أيضاً كشافين اثنين لاستطلاع أريحا التي كانت المفتاح الاستراتيجي للدخول الى أرض كنعـان من الشرق ،

← الصحيفة ١٨٣ .

١ – طريق الملك يعني الدرب السلطاني وهو الطريق العام الذي كانت تمر به القوافـل في ذلك الزمن بين سيناء وشرق الاردن وفلسطين .

٢ – سفر العدد – الاصحاح ٢٠ – العهد القديم ترجمة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى .

٣ – كانت مملكة الآموريين شمال شرق بحر الميت في منطقة شرق الاردن الآن .

٤ – قمة (نيبو) (Nebo) – هي القمة التي نظر منها موسى الى ارض الميعاد وتقع على بعد ١٢ ميلاً تقريباً غرب النهاية الشمالية للبحر الميت . وتسمى الآن قمة (أباريم) في جبـل نيبا (معجم الانجيل ص ١٨٣) .

بل كانت أريحا في الواقع مفتاح لفتح ارض كنعان كلها . وقد بات الكشافان في بيت احدى بنات الهوى ، ولكن ذلك لم يقلل من مقدرتهم على الاستطلاع !

وكانت المعركة التي قادها يشوع لاحتلال أريحا هي المعركة الالى التي كوّنت شهرته – وان كانت الخطة التي طبقها فيها شاذة نوعاً ما .

« فهتف الشعب ونفخوا بالابواق . وكان حين سمع الشعب صوت البوق هتفوا هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه واستولى الشعب على المدينة » [1] .

ربما أصيبت أريحا وقتئذ بزلزال خرّب أسوارها (وكان ذلك حوالي سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد) – فهذه المدينة تقع في منطقة زلازل . لكنه مهما كان العامل الذي أدى الى انهيار الاسوار السريع فان يشوع أدعى في حينه أنه صاحب الفضل في إيجاد هذه الفرصة التعبوية التكتيكية – وقد استفاد منها استفادة تامة !

ودمر بنو إسرائيل كل شيء وكل فرد بالنار والسيف عدا (راحاب) العاهرة التي آوت الكشافين ، فقد وهبوا لها حياتها مع جميع أفراد عائلتها .

ما عسى ان نقوله عن موسى قبل ان نتركه . ما كانت منجزاته في القيادة؟ لقد ربته أميرة مصرية وثقف ثقافة عالية . وربما كانت له علاقة ما بالجيش المصري . ومهما يكن الحال ، فقد كان ماهراً في الحكم على ما يمكن إنجازه في الحرب ، وما لا يمكن بالموارد المتيسرة . وقد أبى ان يقحم إسرائيل في القتال قبل ان يستعد لذلك . وكانت لديه حكمة وبصيرة في الطبيعة البشرية ، فادرك ان خير وسيلة لرفع معنويات جيش ما هي إلا فوزه في المعارك . فالجنود يتبعون دائماً القائد الناجح . وفي الحقل التعبوي (التكتيكي) أدرك ان الوقت المصروف في الاستطلاع لا يذهب سدى – ولا شك ان ذلك ينطبق على الاستطلاع الذي كان قد أمر به .

أما أسلوب قيادته في الحرب فقلما تلائم الحروب في يومنا هذا . ففي المعركة

---

١ – سفر يشوع الاصحاح ٦ – العهد القديم ترجمة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى .

التي حدثت مع العمالقة ناط بالقيادة التعبوية الى يشوع . أما هو فجلس على تل قريب رافعاً يديه الى السماء . وما دامت يداه مرفوعتين كانت كفـة إسرائيل الراجحة في المعركة. وكلما تعب وانزل يديه سيطر العدو على الموقف . ولمـــا عرف شعبه بهذه الحقيقة صار (هـــارون) و (هور) يمسكان يديه بايديهما ليبقياهما مرفوعتين .

ومما يجدر ملاحظته هنا هو انه بعد ان فعل كل ما في وسعه ان يفعـل قبل المعركة ، صار يصلي من أجل رجاله عندما بدأ القتـال . وفي وسعي ان أفترض أن هيئة أركانه كانو يحرصون على ان لا يزعجوا القائد العـــام بالزائرين ، سواء أكانوا من الشخصيات المهمـة أم لا !. وعندما تغلب بنو إسرائيل في هـــذه المعركة اطلق موسى على الظفر الذي حققه اسماً جديـــداً (يهوه بنسى) أي (الرب لوائي) [1] (The Lord my Banner) .

لقد أعجبت دوماً بمهارة موسى في القيادة وبصيرته في الطبيعـة البشرية . وفي رأيي أنه يتبوأ مكاناً مرموقاً بين القادة القوميين . وقد كان يعتقـد اعتقاداً راسخاً ان « الرب رجل حرب » – فما رأي المسالمين (The Pacifists) في ذلك يا ترى ؟

ولقد قلت في البـاب السابع انني فكرت في بادىء الأمر البحث في موسى وديغول معاً في باب واحد . لكنني لو فعلت ذلك لتعذر علي مقارنـة الاثنين ، لأنهما شخصيتان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . فقـــد كان موسى شخصاً يائساً في الغالب ، ويمكن القول أنه كان متردداً في بعض الأحيان .

أما ديغول فلا يمكننا القول أنه يعـــاني من هاتين الصفتين الرديئتين . فهو يعرف تماماً ما يريد ان يفعله ، وهو يفعل ذلـــك من غير ان يلقي اذناً صاغية لكل المعارضين . على اننا نرى ان في كلا الرجلين إخلاصاً وإيثاراً وابتعاداً تاماً عن كل ما هو مشين او دنيء – وهذه ولا شك شروط أساسية ينبغي ان تتوفر

---

١ – يهوه (Jihova) – وهو اسم الرب باللغة العبريـــة – و (يهوه نيس) أي الرب معنـــا .

في كل قائد قومي . لكنه يجب ان ننسى مع ذلك ان موسى استطاع ان يتم رسالته في حين ان ديغول لم يتمها بعد .

هذا واني أساءل نفسي أحياناً هذا السؤال :

ترى لو عـاش ديغول قبل ٣٠٠٠ سنة بنفس الشخصية والكيـان اللذين يتكون منهما الآن ، هل كان في وسعه ان يحقق ما حققه موسى ؟

ان جوابي على هـذا السؤال هو « لا » . كما أنه لو ظهر موسى اليوم لمـا استطاع ان يفعل مـا يفعله ديغول . فموسى إذن كان منـاسباً حقاً لزمانه ، وديغول في فرانسة اليوم مناسب لزمانه .

والانسان في الواقع هو نتاج عصره .

الباب الخامس عشر

استنتاجات

إذا كنت قد وجدت صعوبة في كتابة الباب الثاني عشر (القيادة في الغرب) فإن كتابة هذا الباب أصعب . واني قد أخرت كتابته مدة من الزمن ، بل حتى ساءلت نفسي ، إذا كان في الإمكان حذفه . ذلك لأن عنوان الكتاب يدلّ على ان هدفي هو ليس إلا الإشارة إلى السبيل المؤدّي إلى القيادة القديرة . لكن هذا الكتاب بدون استنتاجات سيكون ناقصاً – ولقد قضيت خمسين عاماً أدرس هذا الموضوع دراسة دقيقة ، وبعد أن أبديت عنه آرائي في الأبواب السابقة ، وجب علي الآن أن أذكر عنه بعض الاستنتاجات .

لقد قلت في بداية هذا الكتاب ، إن القيادة وهي معركة للفوز بقلوب الناس وأفكارهم . والآن ، وقد بلغنا نهاية الكتاب ، آمل أن يوافقني القارىء على هذا القول . فالقيادة مشكلة بشرية كبيرة – انها دراسة للطبيعة البشرية – وهذه حقيقة يجب أن يفهمها بوضوح كل من يصبو إلى القيادة .

إن المخلوقات البشرية ، رجالاً كانت أم نساءً ، هي عوامل الحقيقة في العالم الذي نعيش فيه . **فاذا استطعت أن تكسب قلوب الذين يعملون لك وأن تنال احترامهم، أمكنك أن تحقّق أعظم المنجزات** . وليس في وسع المرء أن يكون

عظيماً ، إذا لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة إدراكاً تاماً .

لقد كان أعظم القادة في جميع العصور مؤسسو الأديان الرئيسية الثلاثة ، لأنهم حققوا شيئاً مـــا ، وبقيت أعمالهم حية من بعدهم – إنني أشير بذلك إلى المسيح ومحمد وبوذا . وكان هؤلاء رجالاً بسيطين ومن أصل متواضع – عدا بوذا ، فقد كان أميراً. وقد استطاعوا أن يجمعوا حولهم الرجال، وكانوا يفهمون الطبيعة البشرية . وكانوا يملكون في أنفسهم ذلـــك « الشيء » الذي يستهوي الرجال ويحملهم على أن يتبعونهم .

إن العظمة الحقة لا يمكن بلوغها الا بالفضائل الأخلاقية . فإذا ما اجتمعت هذه الفضائل مع مواهب أقل نوعاً منها ، فإن هذه المواهب ستتحسّن – وقد تصبح ملهمة . ويمكن أن تكون لدى الإنسان فضائل أخلاقية من غير أن يكون مسيحياً . لدينا أمثلة جيدة لذلك في نهرو من الهند وبن‌غوريون[1] من اسرائيل. لكنني أعتقد إنه في أمة غربية لها تقاليدنا المسيحية العريقة ، قلّما ينجح قائد ، بل لا يمكن أن ينجح أبداً ، ما لم يمارس الفضائل المسيحية . وربما يجوز لي أن أذكر هنا ان لديّ شيئاً من التجربة التي تساعدني على أزن أي رجل كان ، رغم ان تجربتي في هذا الصدد كانت في المجال العسكري طبعـــاً أكثر من المجال السياسي . غير ان اتصالاتي مع القـــادة السياسيين والوطنيين مع ذلك لم تكن قليلة – وهي لا زالت مستمرة حتى اليوم .

القادة العسكريون

لا أنوي هنا التعمّق في بحث القادة العسكريين العظام . لقـــد ذكرت في

---

١ – لقد كان نهرو ذا فضائل اخلاقية حقاً ، أما بن غوريون فهو صهيوني قح والصهاينـــة يؤمنون بمبدأ (الغاية تبرر الواسطة) ويهتدون بما جاء في برتوكولات حكماء صهيون من مبادىء تنافي الفضائل الاخلاقية . لذلك فاني اعتقد ان المؤلف لم يكن موفقاً في ذكر بن غوريون كقائد ذي فضائل اخلاقية . ويبدو انه أراد أن يستشهد بقائد يهودي ، فتذكر بن غوريون لأنه كان وقتئذ رئيساً لوزراء اسرائيل . (المترجم)

الباب الثاني أن مالبرو وولنغتون كانا من أحسن القادة العسكريين الذين أنجبتهم أية أمة . وما من سبب يحملني على تغيير هذا الرأي . فإذا اضطررت على تسمية قائدين عسكريين عظيمين من قادة زماني ، أحمل لهما أشد الإعجاب والاحترام فسأختار (بيل سليم) (Bill Slim) و (جون هاردنك) (John Harding) .
فهذان القائدان هما أهل لأن يتبوءا مكاناً راسخاً في التأريخ لمقدرتهم الفنيّة في إدارة الحرب وإدارة الجنود ، بل لقد نالا بالإضافة إلى ذلك ، شهرة واسعة كحاكمين إداريين في زمن السلم ، الأول في أستراليا والثاني في قبرص . وإلى جانب هذه الخصال، إني أعدّهما بعيدين بعداً تاماً عن الدسائس، أو عن أي أمر ينطوي على الدناءة والاحتيال . ثم انهما يتصفان بالحكمة وأصالة الرأي والمقدرة على القرار . وقد نالا دوماً وبصورة تامة ، ثقة واحترام الذين عملوا معهما أو تحت إمرتهما . إذ كانا يجيدان التحدث إلى الرجال — وبالعبارات التي يفهمونها ويكتسبان قلوبهم . وإذا طلب إليّ أن أسمّي قائدين آخرين فسأختار هوروكس (Horrocks) و ديك أوكنور (Dick O'Conner) ، وكلاهما جندي عظيم ومن ذوي السجايا القوية . وإني لم أذكر المشير الكسندر الذي كنت أحفظ له دوماً أسمى الاحترام ، فقد سبق أن أثنيت عليه في مذكراتي . وإني معجب به أشد الإعجاب .

القادة الوطنيون

لا أحسب ان في الإمكان أن يعتبر رجلاً عظيماً أو عبقرياً في مجال القيادة الوطنية ، ما لم يكن قد حقّق شيئاً لخير بلاده أو الأمة التي يقودها — شيئاً يدوم ، أو له صفة الاستمرارية . وعلى هذا القياس من ذا الذي يمكن أن يدخل في قائمتي يا ترى ؟

انني أذكر مثالين من الماضي — الملك الفرد وابراهام لنكولن . سيخلد التأريخ هذين الرجلين ، عظيمين من عظماء الرجال في جميع العصور . وكلاهما يجب أن يكون في الصف الأمامي من القادة الوطنيين ، وان أعمالهما قد نجحت

في تجربة الزمن .

ولننتقل الآن إلى قادة القرن العشرين . لقد ذكرت في الأبواب السابقة ، الصفات التي ينبغي أن نتوخاها في كل قائد . في الأزمنة الحديثة ، يبدو لي ان الرجال الاعتياديين ذوي الأدمغة المدرّبة تدريباً آلياً ، الرجال الوديعين الذين تسهل قيادتهم ، أو الذين يمكن أن نسميهم (Yes Men)(وكل الناس تعرف ما معنى ذلك !) ، رجالاً كهؤلاء يفوزون في وقت السلم في الغالب ، على غيرهم من ذوي الشخصية القوية والذين يمتازون بالبصيرة والعبقرية . او الأولين يفوزون لان القادة السياسيين يفضّلون رجالاً طيّعين كهؤلاء في فريقهم أو على رأس القوات المسلّحة حيث يبدون الاستشارة لمجلس الوزراء . ويمكن أن تتلخّص مقومات القيادة الحقيقية في السجية والمقدرة على القرار والتصميم على انجاز العمل — وهي صفات لا يستسيغها دائماً الزعماء السياسيون في الأوقات الاعتيادية الهادئة . غير انه في الأزمات وعندما تشتد حاجة الأمة إلى قادة مبدعين ، يمكن أن يعوّل عليهم للاضطلاع بالمهام وعمل شيء ما ، والذين في وسعهم أن يجازفوا إذا اقتضى الأمر ، عندئذٍ تنقلب الآية ، ويبدأ الناس في البحث عن القادة الحقيقيين . فكما ان أمواج البحر الهائج ترفع الأشياء التي في جوفه إلى السطح ، كذلك الأزمات فانها ترفع الرجال ذوي السجيّة والبصيرة إلى السطح فيحتاج إليهم الناس . لكنه من المحتمل جداً أن ينبذونهم بعد أن يقوموا بأدوارهم ، ان الدنيا كلها تستغيث بالرجال ذوي السجية والقرار عندما يدقّ ناقوس الخطر ، أولئك الرجال الذين يعتمدون على أنفسهم ، ويكونون على استعداد للسيطرة على الأحداث الطارئة سيطرة تامة والقيام بمشاريع عظيمة ، والرجال الذين يملكون الشجاعة والعزم للمضي بالأعمال حتى نهايتها . ان خير مثال في وسعي أن أقدّمه عن رجل من هذا النوع ، هو ونستون تشرشل الذي نبذته أمتنا بعد أن قام بدوره — وهو حين فعل ذلك لم ينقذ بريطانية فحسب بل الحضارة الغربية أيضاً .

لقد بحثت هذا الموضوع ذات مرة مع الجنرال ديغول ، وهو يرى ان القائد

العسكري الذي يرتفع الى السطح في حالات كالتي ذكرناها ، ينبغي أن يكون مستعداً لمخالفة الأوامر إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وقصّ علي حكاية لم أسمع بها من قبل عن معركة جوتلاند خلاصتها : أن فريقاً من القادة العسكريين يرون انه كان على الأميرال جليكو (Jelico [1]) تدمير الأسطول الالماني في معركة جوتلند . وأحد هؤلاء الأميرال فيشر الذي حين قرأ التقرير الرسمي الذي رفعه جليكو بعد المعركة آنفة الذكر هتف قائلاً « انه يملك صفات نلسون كلها عدا واحدة منها – فهو لا يعرف كيف يخالف الأوامر » .

على ضوء الأسس العامة التي ذكرناها أعلاه ، من هم القادة الوطنيين العظام في يومنا هذا (سنة ١٩٦١) ؟

سأستثني ونستون تشرشل الذي بلغ ذروة الشهرة ، لكن زمانه قد مضى . وقد وصفه جيمس كريك وصفاً دقيقاً حين قال عنه انه « غول بحري بين سمك صغار [٢] » . انني أرى انه ليس في العالم الغربي اليوم غير قائد وطني عظيم واحد – وهو الجنرال ديغول . إذ لديه البصيرة والشجاعة السياسية والصلابة والمقدرة على القرار . وقد أنجز أو عمل شيئاً لبلاده ، لكنه يجب أن نتأكد طبعاً من أن الأعمال التي قام بها لفرانسة ستدوم. ولكي يدرك الانسان المعضلات والمشكلات التي جابهها في السنوات التي تلت سقوط فرانسه عام ١٩٤٠ ، عليه أن يقرأ الأجزاء الثلاثة من مذكراته الحربية . فهي تبين كيف تغلّب على تلك المعضلات والمشكلات وانتصر في آخر الأمر . وهو لم ينتظر حتى تنبذه الأمة التي أنقذ شرفها ، بل اعتزل الخدمة من تلقاء نفسه ، وظل ينتظر حتى استدعته فرانسة مرة أخرى في وقت المحنة ، وكان ذلك في عام ١٩٥٨ . انه عملاق بين

---

١ – وهو الاميرال الذي قاد الاسطول البريطاني في معركة جوتلند قرب الدانمارك في الحرب العالمية الأولى .

١ – « Triton Among Minnos » - و (Triton) غول بحري خيالي اتخذه اليونان الاهاً من آلهة البحر عندهم – وكانوا يصورونه برأس انسان ذي لحية وجسم سمكة .

قادة العالم الغربي ، واني أحمل له أشد الإعجاب ، فهو رجل عظيم حقاً .

هذا وان الأوربي الوحيد الذي في وسعي أن أضعه في مصاف القادة الوطنيين العظام هو المارشال تيتو ، رئيس جمهورية يوغوسلافيا. فهو بدوره يملك الشجاعة السياسية والصلابة والمقدرة على القرار . ولا شك انه قد حقق شيئاً لبلاده . فقد انشأ دولة متحدة وولّد فيها احساساً بالغرض . وهو يملك سجايا عظيمة وشخصية جذابة جداً . ولا ريب انه قائد عظيم في كلا المجالين العسكري والوطني وذو حكمة سياسية ممتازة . وقد واجهته منذ أيامه الأولى حتى الوقت الذي أصبح فيه الرئيس السياسي لبلاده ، مصاعب كانت تفزع معظم الرجال ، لكنه انتصر عليها كلها . انه رجل عظيم حقاً .

أما في العالم الشرقي ، فثمة رجلان أستطيع أن أضعهما في رأس قائمة القادة الوطنيين العظام ، وهما نهرو وماوتسي تونغ . وكل منهما عظيم في مجاله الخاص ، كما ان كلاً منهما يختلف عن الآخر اختلافاً تاماً . ولقد كرّست باباً بأكمله لنهرو ، وليس هنا في وسعي أن أزيد على ما سبق ان قلته في ذلك الباب الا القليل . فأقول انه زعيم أمة قوامها اربعمائة مليوناً من السكان الذين يعبدونه . فاذا استطاع أن يحل مشكلاته الداخلية الكبيرة ، وساعدته صحته على البقاء في الحياة مدة كافية من الزمن ، فسيكون الرجل الذي يتوقف عليه الكثير مما سيحدث في آسيا في السنين المقبلات ، وهو ليس مسيحياً ، لكنه يتبع في حياته الفضائل المسيحية . واني أحمل له أشد الإعجاب فهو قائد عظيم لشعب آسيوي .

أما ماوتسي تونغ ، فهو قائد آسيوي عظيم آخر . ولا شك انه حقق شيئاً لبلاده . فقد حارب العدوان الأجنبي والظلم الداخلي والفساد وانتصر في النهاية. وهو اليوم زعيم أمة متحدة تحمل له الإخلاص ، ونفوسها زهاء الستمائة والخمسين مليوناً من السكان . وهو الآن منهمك في إصلاح كثير من الأوضاع السيئة في الصين – وقد كانت الأوضاع في هذه البلاد سيئة إلى درجة تحتاج معها إلى وقت طويل لاصلاحها . لكن ماو يملك الشجاعة والصلابة والمقدرة على القرار ، وهي

صفـــات العظمة كلها . وعندما يلتقي به الانسان لا تتمالك نفسه الا أن تحبّه . وهو شيوعي طبعاً ، لكنه رجل عظيم أيضاً .

انني أود أن أرى الصداقة تتوطـّد بين نهرو وماوتسي تونغ . والواقع أن بين الإثنين شبهاً في كثير من الأمور، ولا سيما في تفانيهما في سبيل رفاهية الأكثرية الساحقة من أفراد الشعب – وهم الفلاحون . وقد بنيت الثورة في كلا البلدين ، الهند والصين ، على الفلاحين . فإذا أمكن توطيد الصداقة بين الاثنين من دون أن يحاول أحدهما تغيير عقيدة الآخر أو طريقة حياته ، فسيسود السلام آسيا– وسيكون ذلك عاملاً أساسياً في تأمين السلام العالمي .

لقد سمّيت أربعة رجال ٍ فقط قادة وطنيين أو سياسيين عظاماً في العـــالم اليوم – وان اثنين من هؤلاء في أوربا والآخرين في آسيا . واني لا أرى أي قادة عظام في أية دولة من دول العالم الأخرى – وانه لمن الممتع حقاً أن أعلم إن كان هناك من يتحدّى قائمتي هذه ؟ ربما سيضع أحدهم قائمة أخرى تختلف عن قائمتي مبيّناً فيها ، كما أرجو ، أسباب عظمة كل رجل ٍ من الرجال الذين اختارهم . ومن بين القادة الأربعة الذين ذكرتهم مسيحي واحد – وهو ديغول واثنين من الشيوعيين . فهل ان ذلك يعني ان العالم الشيوعي ينتج قادة أحسن مما ننتج ؟ أرجو أن لا يكون هذا هو الواقع . لكنه يجب أن لا ننسى انه من الصعوبة بمكان ممارسة القيادة في العالم الدمقراطي كما سبق أن ذكرت ذلك في الباب الثاني عشر . أما في العالم الشيوعي ، فالحكومة تفرض على الشعب بالقوة ، وليس ثمة طريقة أخرى لمجيئها إلى الحـكم ، كما انه ليس ثمة مجال للاختيار . لذلك فالقيادة في تلـكم البلاد أسهل مما هي عندنا . إذ ان النـــاس هناك مجبرون على الطاعة . وأرجو أن يلاحظ القـــارىء ان كل الذين ذكرتهم قادة عظام نشأوا من أصل متواضع . فالكل كانوا أشخاصاً فقيرين – عدا واحداً منهم فقط وهو نهرو .

ولقد نشأ المشير سليم والمشير هاردنك في مدارس النـــحو ثم أصبح سليم مدرساً في مدرسة ثانوية وهاردنك كاتباً في دائرة بريد . ولم يكن كلاهما يملـك أي مال عدا ما كان يكتسبه بنفسه . أما ديغول فكان ابن ضابط فقـــير في

الجيش الافرنسي . وكان تيتو جندياً اعتيادياً في صفوف الجيش النمساوي .
وكان ماوتسي تونغ ابن عامل يشتغل في مزرعة . ومع ذلك فإن جميع هؤلاء
الرجال قد ارتقوا من نشأتهم المتواضعة فأصبحوا عظماء . ويبدو ان ذلك مما
يبرهن على ما سبق ان قلته في الباب الحادي عشر، من ان معظم الرجال العظماء
نشأوا من أفقر البيوت، واضطروا على أن يكافحوا في الصغر ، وهو الأمر الذي
قوّى سجاياهم . وقد كرّس هؤلاء جميعاً أنفسهم إلى مهنهم ، وعملوا من دون
هوادة لخير الآخرين ، مبتعدين عن المؤثرات التي تلهي الفكر وعن الفعاليات
الاجتماعية . وقد استطاعوا جميعاً أن يسيطروا على الحوادث التي أحاطت بهم
والتحكّم فيها ، وهذا أعظم اختبار نهائي للقائد .

انني أعرف شخصياً جميع الذين ذكرتهم قادة عظاماً في مجالاتهم الخاصة .
فالكسندر وسليم وهاردنك وهوروكس واوكنور ، كل هؤلاء أعرفهم حق
المعرفة . أما القادة الوطنيون الأربعة الذين ذكرتهم ، فقد زرتهم جميعاً في بلادهم
وهم ديغول وتيتو ونهرو وماوتسي تونغ. وقد يستغرب البعض من نعتي ماوتسي
تونغ بالرجل العظيم ، ولكن أعماله تتكلّم عن نفسها . أنظر ما فعله هذا
الرجل في بلاده ! إننا لو استطعنا أن نقنع ماو الآن ان مصلحة بلاده تقضي
بأن تكون علاقاتها ودّية مع الهند والغرب – لتمكّن العالم الغربي عندئذٍ من
أن يتنفّس الصعداء . وإني سأبذل أقصى جهودي لتحقيق ذلك .

وأخيراً ما عسى أن نستنتج مما شرحناه ؟ في وسعنا أن نستنتج انه : إذا
أردنا نحن الذين في العالم الغربي أن نباري العالم الشيوعي في موضوع القيادة ،
وجب علينا أن نغيّر تفكيرنا عنه ، وأن نعلّم أولادنا وشبابنا كيف يقودون.

تعليم القيادة

ان من الحقائق المؤسفة اليوم هي : ان العالم الغربي يعاني نقصاً في القيادة
الجريئة . وهذا الرأي يبدو واضحاً مما ذكرته قبل هذا . فكيف يمكن معالجة
هذا النقص يا ترى ؟ .

يجب أن نعلم أولاً ان بعض الأوساط المتنفذة في العالم الغربي تنظر إلى فكرة « القيادة » كلها بعين الشك . وقد نشأت وجهة النظر هذه عن عوامل ثلاثة أولها ، تزييف مبادىء القيادة في دكتاتوريات القرن العشرين ، والثاني الرغبة الحقيقية لضمان تكافؤ الفرص لجميع أبناء الشعب ، والثالث التفكير المشوّش عن المساواة بين الناس والمجتمع اللاطبقي . فيتضح لذلك انه لا يمكن ضمان أي تقدم يذكر في هذا الأمر ما لم يجرِ اعادة تثقيف الفكر الغربي ، بحيث يقدّر الحاجة الماسة إلى القيادة المخلصة القديرة في جميع نواحي الحياة الدمقراطية . على ان ذلك سيكون من الصعوبة بمكان، ما لم نفكر تفكيراً صحيحاً حول مسألة « المساواة » بين الناس .

لقد جاء في وثيقة اعلان الاستقلال الامريكي الصادرة في ٤ تموز ١٧٧٦ ان :

« جميع الناس قد خلقوا متساوين » .

ولكن ما من أحد يمكنه أن يعتقد اعتقاداً جدّياً ان الآلاف المؤلفة من الأولاد في مدارس بريطانية (أو امريكا) قد خلقوا جميعاً بقابليات متساوية من القوة الفكرية . ان « التشابه » هو طابع المكينة ، أما الطبيعة والحياة فطابعها « التباين » .

ولا شك ان كل مخلوق بشري هو روح ذو قيمة متساوية في نظر الله، ولكن ذلك لايعني بان جميع الناس ولدوا بقابليات متساوية . فالواقع هو ان جميع الناس لم يولدوا متساوين في القابلية بالنسبة لبعضهم البعض . وكلما كبروا ازداد الاختلاف وضوحاً في قابلياتهم . ان المساواة تعني فرصاً متكافئة للناس جميعاً للوصول الى القانون، وحق متساوٍ لهم في ان يعاملوا بعدالة أمام القانون ، اننا نتمتع جميعاً في العالم الحر بحق المساواة أمام القانون بدرجةٍ من الكمال التقريبي، تتناسب مع عالمنا هذا غير الكامل . ولدينا أيضاً نوع من المساواة التي يحق لكل فردٍ بموجبها أن يقرّر شكل وطابع الحكومة التي تدير شؤونه وشؤون الأفراد الآخرين . وذلك يعني على العموم ، ان لكل فردٍ منا رجلاً كان أم امرأة

صوت واحد – وهذا حق قـــد حصلنا عليه بلا شك . وكل ما يطلب منا أن نقدّمه لقاء حصولنا على صوت في ادارة شؤوننا، هو أن نساهم مساهمة متواضعة في دفع نوع من الضرائب ! ولنأتِ الآن الى المساواة في الفرص . ان المساواة التامة في الفرص مستحيلة . إذ مهما بذلنا من محاولات ، فلا منـــاص من نشوء المزيد من الاختلاف في القابليات بين الأطفال كلما كبروا وصاروا رجـالاً . وهذا يعني مزيداً من الاختـــلاف في الفرص . فمن الصعب لذلك اعطاء فرص متساوية الى الذين لا يظهرون في حياتهم الأولى ، ميلاً ظاهراً أو استعداداً واضحاً .

ومن جراء هذا التفكير المشوّش حول عدم المساواة، نجد ان أوساطاً عديدة في المجتمع الدمقراطي الغربي يخامرها الشك في ضرورة « القيـــادة » ، وفي الحاجة لأي تدريب خاص لتنشئة قادة ماهرين . لكننا يجب أن ندرّب رؤوس النـــاس مثلما نعدّهم ، إذ لا بد من وجود رؤوس وأذناب دائماً . فما من سفينة من دون ربّان ولا من فريق جيد من دون قائد . فالقيـــادة أمر ضروري في كل ميدان . وان مفهوم القيـــادة بأسره يحتاج الى تعريف جديد وشرح جديد .

ماذا قال دون الحمراء[1] ؟

« إذا كان كل فردٍ شخصاً مهماً
فلا أحد إذن شخص مهم » .

ومن النادر ان نجد في فردٍ من الأفراد كل الصفات اللازمة للقيادة الناجحة ، لكنه في الامكان أن نعمل كثيراً لغرس الصفات المطلوبة وتنميتها بالتدريب . غير انه في محاولتنا للحصول على أكبر عدد من القـادة نخطىء خطأً جسيماً لو فرّطنا في مواردنا المحدودة للتدريب على القيادة ، فدرّبنا بها أولئـــك الذين خلقوا ليقادوا لا ليقودوا (رغم ان ذلك هو ليس ذنبهم) فإننا لو فعلنا ذلك

١ – في تمثيلية (Gilbert & Sulivan) – وهي تمثيلية موسيقية فكاهية ألّفها كلبرت ولحّن موسيقاها سوليفان – أما دون الحمرا (Don Alhambra) فهو أحد أبطالها .

لغررنا أولئك الذين لديهم مؤهلات القيـادة ، فالقادة طبقة صغيرة ويجب أن يدرّبوا في صفوف ٍ صغيرة. ومن الواضح ان الأمة لا يمكن أن تنتج عدداً كافياً من الرجال الذين يملكون صفات القيادة الأساسية ما لم تنظّم تربية أولادهـا على أسس صحيحة ، وهذا هو لغز القضية كلها . وفي كل نظام تربوي ثمة مبادىء أساسية ينبغي اتباعها .

فيقتضي أولاً وقبل كل شيء ، وجود النوع المناسب من المعلمين . ان معلمي المدارس الثانوية يتقاضون على العموم رواتب قليلة . والمعلم ذو الراتب القليـل يكون عادةً ضيق الأفق مقيّداً في اتصالاته وفي حياته تقييداً شديداً . ومن الصعب على رجل ٍ كهذا أن يعلّم تلاميذه ما ليس عنده. فالمعلمون في مدارسنا يجب أن يكونوا من الممتازين، وان تدفع لهم الرواتب بموجب ذلك. وبالاضافة الى تزويد المدارس بنظام تربوي جيد وبمعلمين ماهرين ، ينبغي أن يتيسّر فيهـا نظام سليم للتدريس الديني يوضع بالتعاون مع الكنيسة .

ويجب أن تقدّم المدارس على العموم نوعاً صحيحاًمن التربية، من شأنه أن يساعد القادة بعد تركهم المدرسة على معالجة مشكلات الدنيا بطرق صحيحة . رب قائل يقول : ان هذا تدريب الذكاء والفكر ، والواقع انه شيء أكثر من ذلك . فقبل خمسين سنة أو مـائة سنة كان الولد يدرّب في الغالب على نظام (الكلاسيكيات)والرياضيات مع مبادىء بسيطة في اللغات والعلوم العصرية . ولم تحاول عدا قليل منها ، تدريس التأريخ الحديث أو تقديم الأولاد الى الدنيـا التي يجب أن يشغلوا لهم فيهـا مكاناً . واني لواثق ، لذلك ان جزءاً من واجب كل مدرسة هو تدريب الأولاد على فهم الفحوى العـامة للعالم الذي تمارس فيه القيادة . دعني أضرب مثلاً فأقول :

إن قارة افريقيا الآن في حالة مضطربة . وان احدى أنواع القيـادة التي يمكن ان تمـارس فيها هي ارسال قوات عسكرية الى هناك لقتال وقمع حركة (الماو ماو) أو الجماعات الأخرى التي تثير القلاقل . لكنه يوجد نوع آخر من القيادة يختلف عن الأولى اختلافاً كبيراً وهي القيـادة البناءة الوحيدة ، والتي

تقضي بالذهاب إلى افريقيا للوقوف على حقيقة ما يدور في الفكر الافريقي والحضارة الافريقية ، وفهم ما يصبو اليه الافريقيون الذين سيكونون أسياد أنفسهم في الأخير . تلك القيادة التي تمنعهم من الركض قبل أن يتمكنوا من المشي، والتي تشجعهم وتساعدهم في الوقت نفسه على ان يهيئوا أنفسهم الى الهدف الذي يريدون بلوغه .

لذلك فان لكل مدرسة واجباً كبيراً ومهماً ألا وهو التأكّد من ان تلامذتها الذين لا بد وانهم سيؤثرون في الناس تأثيراً قوياً في المستقبل بفضل سجاياهم وقوتهم الفكرية ومواهبهم الطبيعية للقيادة – هؤلاء يجب أن تتأكد المدرسة انهم يفهمون مشكلات العلاقات البشرية المعقّدة، ويعرفون أين تظهر هذه المشكلات في الدنيا وكيف ينبغي مواجهتها وحلّها .

ولا شك ان الاختبار النهائي هو وضع الولد ونفوذه قبل عشرين أو ثلاثين سنة مقدماً. ويجب أن ننتج قادة « مثابرين » لديهم القابلية على الاستمرار في السباق حتى النهاية ، لا قادة يشبهون راكضي المسافات القصيرة أولئك الذين يتركون السباق قبل نهايته .

والواقع ان التربية الفكرية والخلقية التي نزود بها أولادنا، هي ليست بنفسها أهم الأمور، بل المهم هو ما **سيفعلونه** بهذه التربية ، والفائدة التي سيجنونها منها في السنين القادمات . ومن الواجب تخصيص قسم معيّن من هذه التربية الى غرس الصفات التي هي جزء لا يتجزّأ من القيادة الجيدة. ويجب أن يقوم بذلك خيرة المعلمين الذين يمكن أن نحصل عليهم وأن يقوموا به بالمثال الحسن الذي يضربونه بأنفسهم .

ومن الضروري أن تكون لدى الولد رغبة للاقتداء بالمثال الذي يقدمه معلموه. وايضاحاً لما أعنيه أذكر بعض الأبيات من قصيدة لـ (جون درنكووتر) (John Drink Water) في تمثيليته المسماة « ابراهام لنكولن » فهو يقول :

« عندما نمجّد الشجاعة .
ونبجّل الفكر الثاقب .

ونعبد العظمة في الناس .

إذن فنحن أنفسنا عظماء » .

العلاقات الشرقية ــ الغربية

ان هذه المشكلة الكبرى التي تواجه عالمنا المضطرب اليوم . فكل مجموعة من الدول ، وكل كتلة منها تعاني من إحساس يوحي لها بأن الآخرين يعدون أنفسهم للعدوان العسكري – أي للهجوم . لا شيء بعيد عن الحقيقة كهذا الإحساس . لكنه بسبب هذا الوهم ينفق كل من الكتلتين الشرقية والغربية مبالغ طائلة للاستعدادات الدفاعية . وبسببه أيضاً يزاداد كل طرف شكاً بالطرف الآخر . على ان المرء في روسيا لا يسمع أي حديث عن الحرب . أما في النصف الغربي من العالم ، فالحرب هو الموضوع العام للحديث بين الناس . وما من بلد يكثر فيه هذا الحديث كالولايات المتحدة الامريكية .

ان حل هذه المشكلة أمر ضروري . لأننا إذا أخفقنا فيها فيستمر سباق التسلح، وسيصبح من المحتم استخدام السلاح في الأخير . ومن الواجب ان نحقق شيئاً من التقدم في موضوع نزع السلاح . لكننا لا نستطيع ان نفعل ذلك بمجرد المناقشات في جنيف ، او بمحاولة القادة الوطنيين كتابة الرسائل الى بعضهم البعص . **بل يجب إزالة عوامل الشك أولاً** . وخير وسيلة لذلك هي ان تظهر دول الكتلتين نواياها الحسنة بسحب قواتها المسلحة الى داخل أراضيها الاصلية . وعلى سبيل المثال ، إذا سحبت الولايات المتحدة قواتها من اليابان وفرموزا ، فان ذلك سيؤدي حالاً الى تخفيف الشك في الشرق الأقصى. ويمكن ان يحدث الشيء نفسه في أوربا لو سحبت قوات روسيا وامريكا وكندا . ان هذه الخطوات ستستغرق وقتاً غير قليل ، لكنه يمكن ان تتفق الكتلتان على البدء بذلك منذ الآن ، على ان تتم التدابير كلها عام ١٩٧٠ مثلاً .

وعلى كل حال ، سواء أتم الاتفاق على هذه الخطة أم لا ، فالتحالف الغربي يحتاج الى استراتيجية جديدة . فإن استراتيجية (الناتو) قد صممت لمقاومة

العدوان العسكري من الشرق . وحالما نتمكن من **تقليل الشك** بين الشرق والغرب فإن هذا الخطر سيختفي ، وسيكون التهديد الباقي عقائدياً وسياسياً واقتصادياً ، وهو تهديد عالمي ، وليس من النوع الذي يقتصر على منطقة الناتو وحدها . كما أنه ليس بتهديد يمكن القضاء عليه بالاسلحة العسكرية ، فينبغي لذلك ظهور تفكير جديد واستراتيجية جديدة في الناتو .

ويجب ان تبنى الاستراتيجية الجديدة على تأسيس الصداقة مع الدول ذات الشأن دون ان نطلب منها ان تكون حلفاء عسكريين لنا . ويجب ان تستهدف هذه الاستراتيجية اقناع الروس على سحب قواتهم المسلحة الى بلادهم تدريجياً ، على ان نتخذ بدورنا كل الاحتياطات العسكرية اللازمة . ان أحاديثي مع خروشيف تجعلني أعتقد أنه ، وان كانت ثمة صعوبات فعلية تحول دون إقدامه على إجراء انسحاب كهذا ، إلا أن صعوباته هذه ستزداد في آخر الأمر إذا بقيت القوات الروسية في أوربا الشرقية ، وذلك من جراء ازدياد الشعور الوطني في تلك البلاد التي لا أظن ان الروس محبوبون فيها . فلأسباب واضحة يجب ان تتجه الاستراتيجية الغربية نحو هذا الاتجاه . فنسحب ، في آن واحد ، قواتنا المسلحة من أوربا الغربية . وباختصار يجب ان نضع الخطط لإنهاء الاحتلال العسكري لقارة أوربا تدريجياً ووفق جميع تدابير التفتيش والسيطرة اللازمة التي تقوم بها هيئة الامم المتحدة. لقد مضى على هذا الاحتلال العسكري نحو ستة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة جداً . ثم ان هذا الاحتلال ينطوي على نفقات من الافضل ان تصرف على التعليم والاسكان أو يستفاد منها في تخفيض الضرائب والخ ...

وينبغي ان تكون هناك دعامة أخرى للاستراتيجية الغربية الحديثة ، وهي مقارعة ودحر المخطط الشيوعي الذي يتحدانا في قيادة آسيا وافريقيا . ان نظرة واحدة الى الخريطة ، ترينا ان الحجر الأساسي لهذه الدعامة هي شبه القارة التي تحوي الهند وباكستان. فلو توطدت عرى الصداقة بين هاتين الدولتين ومنحتهما الولايات المتحدة وحليفاتها مساعدات اقتصادية جسيمة (وليس

أسلحة عسكرية) فذلك خير وسيلة لمجابهة التحدي الشيوعي في آسيا . وإذا أمكن مجابهة هذا التحدي في آسيا وإيقافه ، لأصبح من السهولة بمكان دحره في افريقيا . أما إذا اتبعنا سياقاً معاكساً فعالجنا التحدي الشيوعي في افريقيا أولاً وأهملنا آسيا ، فلن يحقق ذلك لنا النجاح .

ويجب ان تكون الولايات المتحدة سبّاقة في هذه الأمور . لكن هذه الدولة تحتاج الى إعادة النظر في سياستها . ففي أواخر سنوات الالف وتسعمائة والاربعينات ، واوائل الالف وتسعمائة والخمسينات لم تكن في العالم غير دولتين عظيمتين – الولايات المتحدة وروسيا . وكان الامر الوحيد المعوّل عليه في الصراع بين الشرق والغرب هو القوة العسكرية لهاتين الدولتين . أما اليوم فثمة أمور أخرى لها أهميتها . إحداها زيادة ثروة أوربا الغربية وقوتها الاقتصادية . ولقد كانت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، زعيمة تحالف يضم دولاً أنهك قواها صراع دام أكثر من خمس سنوات ضد ألمانيا الهتلرية . أما اليوم فالولايات المتحدة ترأس حلفاً يختلف عما كان عليه في السابق . انه مجموعة من الدول الغنية استعادت رفاهيتها الاقتصادية فصارت قيادتها أصعب من ذي قبل . وقد أصبحت سياسة أمريكا الاولى بالية لا تصلح لهذا الزمن ، ولم يعد الامر الآن مسألة « قيادة » او « ضرب اليد على المنضدة » أحياناً بقدر ما هي محاولة للتأثير في مجموعة دول غنية مستقلة ، وهو الأمر الذي يختلف عن ذي قبل اختلافاً بيّناً . وسيكون من الممتع ان نرى إذا كان في وسع الولايات المتحدة ان تبدي القيادة والحكمة اللازمتين لفهم الأمور في شكلها الجديد اليوم ، وان تحمل نفسها على التخلي عن سياستها القديمة ، وان تفكر في استراتيجية جديدة .

فإن لم تتمكن هذه الدولة العظيمة ان تلائم نفسها مع الاحوال المتغيرة فقد يؤدي ذلك الى نتائج وخيمة . أظن ان ونستون تشرشل هو الذي سمى حرب هتلر ذات مرة بـ « الحرب غير الضرورية » . ولا شك ان الحرب العالمية الثالثة ستكون هي الاخرى حرباً غير ضرورية . ففي الامكان تفادي نشوبها

لو وجدت في الغرب قيادة حكيمة وجريئة .

وانه لمن المؤلم حقاً ان ندرك ان شباب اليوم هم اول جيل في القرن العشرين لم يحصده الحرب .

وعندما نشترك في الاحتفالات التذكارية ، او نطوف في مقابرنا الحربية ، يجب ان نتذكر ان اولئك الرجال قد ضحوا بارواحهم ليضمنوا تسليم التقاليد العظيمة لبلادنا وامبراطوريتنا بل وللعالم الحر بأسره ، الى أيدينا بسلام – وقد فعلوا ذلك حقاً . وعلينا أن نسأل أنفسنا الآن : هل خطونا الخطوات الصائبة ، وبذلنا الجهود الحقة لنكون أهلاً لتراثنا العظيم ؟ وهل أعددنا الخطط لتسليمه سالماً الى الخلف – وهم شباب سني الالف وتسعمائة والستينات ؟. اننا لا نريدهم ان يهلكوا في الحرب – كما هلك جيلان سابقان – إذا كان في وسعنا ان نتفادى ذلك بشرف .

بعض الانطباعات الاخيرة

من الطريف حقاً ان نتأمل كيف تغيرت أساليب اختيار القادة الوطنيين عبر التأريخ . وأظن أن أقدم جميع هذه الأساليب كان اسلوب الوراثة . ففي القبائل الرحل ، في الأزمنة القديمة ، كان الابن الأكبر يخلف أباه . وهذه الطريقة لا زالت تطبق في البلاد ذات النظام الملكي . وهي تراعى في المصالح التجارية ، وليست بالدرجة التي كانت تراعى فيها في الماضي . إذ أن معظم الشركات تتخذ التدابير لتحديد السلطة التي قد تنتقل الى الابناء الذين ليسوا أهلاً ليخلفوا آباءهم .

لقد تحدثت ذات مرة حديثاً ممتعاً عن هذا الموضوع مع المارشال تيتو رئيس جمهورية يوغسلافيا . فذكر لي ان عبد الناصر ضد وجود ملوك فى العالم العربي يخلف بعضهم بعضاً على العرش لمجرد انهم من سلالة النبي (صلعم) وبصرف النظر عن كونهم أهلاً للحكم أم لا ؟ ويرى تيتو ان رؤساء الدول والحكومات يجب ان ينتخبهم الشعب . وقال لي ان عبد الناصر يؤيده في هذا الرأي –

وهو الامر الذي لا استغربه أبداً !

واليوم ، لدينا في العالم الحر طريقة الانتخاب الدمقراطي . ففي بلادنا تنتخب الامة الحزب السياسي الذي يتولى الحكم . وينتخب الحزب زعيمه . وتجري عندنا انتخابات حرة ، ولدينا نظام دستوري ، ويحكم الملك بالشورى .

ان الصفات التي تكوّن القيادة لا يمكن ان تكتشف بالاختبار . لكن الاختبارات تساعد على ان نكشف ان كان لدى أي رجل شاب الثقافة الكافية التي تبرر تدريبه على القيادة . وقد قلنا في الباب الاول ان قابلية القيادة يمكن ان تنمّى بالتدريب ، وان القادة على العموم « يصنعون » ولا « يولدون » .

أما فيما يتعلق بموضوع اختيار القادة بطريقة القدم ، فليس ثمة ما نقوله في هذا الصدد إلا القليل . وإن الاسلوب المتبع في الجيش البريطاني لاختيار الضباط لمناصب القيادة هو مراعاة نظام القدم مع نبذ غير اللائقين لهذا الغرض .

ومما يجدر بنا ملاحظته هو ان القادة السياسيين لا يحبون تسمية من سيخلفهم – او ربما كان الافضل ان أقول إنهم لا يحبون « الإشارة » الى خلفهم. ولدينا أمثلة كثير لذلك في تشرشل ونهرو وخرشيف وديغول وادينار والدكتور سالازار من البورتغال . على ان ماوتسي تونغ قد سمى خليفته – فهو ليو شاوشي – النائب الاول لرئيس الحزب الشيوعي وعمره ٥٥ سنة . انني أساءل نفسي أحياناً : إذا لاحظ زعيم سياسي أن أحداً من جماعته شديد الحرص على أن يخلفه في القيادة، وانه قد يكيد له الدسائس ليحل محله، فما عسى ان يفعل ياترى ؟ الا يعينه في منصب شائك حيث يتعرّض فيه لارتكاب الاخطاء ؟ – وفي هذا نهايته !

هذا ولا بد ان القارىء يتذكر ان كرمول سمى ابنه ريشارد خلفاً له. ولكن ريشارد هذا لم يستمر في الحكم مدة طويلة – فقد حكم أقل من سنة واحدة .

واني اعتقد ان كل قائد ، سواء أكان عسكرياً أم سياسياً ، يحتاج الى رئيس أركان لامع ومخلص فهذا هو الذي يغربل له المعلومات المناسبة ، ويبحث له عن الحقائق ويريح رئيسه من جميع التفاصيل غير المهمة . وان ذلك مما يمكن

القائد او الرئيس من الاشراف على ميدان المساعي كله وملاحظة الامور المهمة فيه . فالرجل المنهمك بالتفاصيل دائماً لا يصلح ان يكون قائداً في أي ميدان من ميادين الحياة . ويجب ان يكن رئيس الاركان شخصاً مجهولاً ، وان لا يحاول الاستحواذ على صلاحيات قائده . لكنه يجب ان يكون رئيس الأركان من جهة أخرى ، مستعداً للبت في جميع الامور المتعلقة بالتفاصيل . لذلك يجب ان يحيط بما يدور في فكر رئيسه إحاطة تامة . ويجب ان لا يخفي عنه قائده شيئاً . وينبغي ان يكون شخصاً يعتمد عليه . ان رئيس الاركان الماهر جوهرة ثمينة ويخيّل لي ان القادة السياسيين لا يحبون شخصاً كهذا !. ولكن وجوده في المستويات العليا في دنيا العسكرية أمر ضروري . فالقائد العام من غير رئيس أركان ، سينغمر بالجزئيات الى درجة تدعو الى الرثاء ، وهو ما يحدث لكثيرين من الزعماء السياسيين . هذا وقد يكون من المناسب ان نقارن بين هذين النوعين من الرجال في أمتنا — الجندي والسياسي .

ان كلا الرجلين بريطانيان ولكن مع فرق واحد ، وهو ان التدريب العسكري يفرض على الجندي سلوكاً معيناً إذ يجعله خاضعاً للضبط — وذلك مما يوّلد فيه روح الجماعة والمقدرة على تحمّل المشاق مع رفاقه والتغلب على الكارثة . كما ان ذلك مما يسهل قيادته ويجعله متجاوباً مع القيادة . وان الثبات والصلابة صفتان بارزتان في الجندي البريطاني . وهو يمتاز بالاعتماد على النفس، وسعة الحيلة والاخلاص الى رفيقه إخلاصاً شديداً ، فلا يتركه أبداً ولا يكيد له كيداً أو يتخلى عنه في الشدائد . وفي أحرج المواقف يقف الجندي البريطاني هادئاً صامداً مسيطراً على ما حوله بشجاعته الهادئة وتفاؤله ، مجابهاً الموقف بلا تردد او إحجام . حقاً انه لا يقهر . ومن حسن الحظ أنه لكذلك . فلولا الجهود التي بذلها الجندي البريطاني طوال سني الحرب لما كان أحد منا هنا اليوم .

ما حظ السياسي من هذا التقرير ؟ ليس حظه بالحسن جداً . وسيكون من الممتع حقاً أن نعرف من هم الذين كانوا يعلمون بما جرى في المحافل السياسية العليا إبان مشكلة السويس عام ١٩٥٦ ؟ وكيف أنه عندما انفجرت الأزمة

وتطورت بشدة متزايدة، تخلى عن ايدن بعض رفاقه الذين سبق ان أيدوه . وثمة قصة أخرى يجب ان تروى ، تلك هي القصة الحقيقية لخروج انطوني هيد من وزارة الدفاع عــــام ١٩٥٧ . يبدو ان الضبط الذي يصوغ الجندي ويزوّده بنموذج للسلوك والطاعة والاخلاص لضباطه ، لا وجود له في الحياة السياسية — التي فيهـــا القيادة أصعب من الحياة العسكرية ، وتنطوي على شيء من عــدم الاستقامة .

كنت من بين المدعوين الى حفلة عشاء ذات ليلة في لنــدن ، وكان نفر قليل منا يتناقشون في موضوع استقامة السياسيين أو عدمها . فقلت لجـــاري وأنا أشير الى (ديريك هيثكوت أموري Derick Heathcoat - Amory) وزير المالية الذي كان حاضراً في الدعوة « هـــا هو ذا أحد السياسيين المستقيمين القلائل في انكلترة » . فأجابني جاري « أجل ، ولكنه ليس بسياسي ! »
ومن البديهي ان هناك بعض الشواذ المشهورين . ومن هؤلاء انطواني هيـــد الذي يمتاز بالاستقامة وبالاخلاص التامين .

وانه لجدير بنا ان نفكر هل ان نظامنا البريطاني للحكومـــة ملائم للزمن الذي نعيش فيـــه — أواسط القرن العشرين ؟ . ان من رأيي الخــاص أنه غير ملائم ، وانـــه سيصبح أسوء في القرن الحادي والعشرين . لقد حدثت ضجة كبيرة عندما اختار المستر ماكميلان وزير خارجيتـــه من مجلس اللوردات — ولكن الواقع أن ما فعله هو عين الصواب . ذلك لأن مجلس اللوردات لا يجتمع غير ثلاثة أيام في الاسبوع ، وليس من الضروري لوزير الخارجية أن يحضر هذه الاجتماعات دائماً ، كما هذ الحال في اجتماعـــات مجلس العموم — ولا سيما في وقت الاسئلة — وهو الامر الذي سييسر له وقتاً أطول للاهتمام في الشؤون الخارجية .
ان رئيس السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة ليس عضواً في الكونغرس ، كما ان وزير خارجيته او جميع أعضاء وزاراتــه ليسوا أعضاء في الكونغريس أيضاً . ولذلك ففي وسعهم ان يستمروا على القيام بأعمالهم . ولست أريد بهذا ان اقترح تطبيق النظام الامريكي في انكلترة ، ولكني أريد ان أقول ان لذلك

النظام مزاياه . وربما كان من الأفضل لنا تطبيق نظـــام وسط يجمع بين مزايا النظـام الامريكي ونظامنا . فمثلاً : لمـــاذا لا يجوز للوزراء الاعضاء في مجلس اللوردات التكلم في مجلس العموم ؟ ولم لا يجوز استجوابهم اذا طلب ذلك مجلس العموم، ووافق عليه رئيس الوزراء ؟ – ليس ثمة سبب منطقي يحول دون اتباع هذه القاعدة .

ان رأيي النهائي هو أننا يجب ان نجد طريقة ما للعيش بسلام مع الروس . واننا نحتاج الى قيادة تثابر على العمل من أجل التوصل الى الطريقة المنشودة التي تشرف كلا الطرفين – وهذا في نظري أمر ممكن .

وإذا اعترفنا بعجزنا عن إيجاد هذه الطريقة،فالنتيجة النهائية نشوب الحرب بين الشرق والغرب – تلك الحرب التي لا نفوز بها نحن،ولا يفوز بها الشرق أيضاً بل سيخسرها الطرفـان ، وستؤدي الى تأخير الحضارة البشرية مائة سنة او أكثر . هذه هي المشكلة الكبرى والمبـــاشرة التي تواجه العـالم اليوم – وان الحضارة الغربية تنتظر بفارغ الصبر حل هذه المشكلة – ولا سيما أمهات الجيل الحاضر من أبنائنا .

ثم تأتي بعدئذٍ مشكلة الصين . لكنه ليست ثمة تهديد للعالم من هذه الدولة . فما من أمة تريد السلم حقاً أكثر من الأمة الصينية . غير أننـا نحتاج في الظروف الراهنة هذه الى قيادة تكون صديقة الى هذه الدولة العظيمة ، وتحاول ان تحمل قادتها على فهم فحوى العالم الذي يجب ان تعيش فيه الدول الناهضة حديثاً .

نصيحة الى كل قائد

ما هي النصيحة التي يمكن تقديمها الى كل قائد ؟ . يجب ان يضبط القـــائد نفسه، وان يعيش حياة منظمة ومرتبة بدقة . ويجب ان يخصص وقتـاً للتفكير الهادىء والتأمل . وان احسن الاوقات الملائمة لذلك هو الصباح المبكر والمساء . فإن نوع العمل الذي يتضمن عمله ، سواء أكان حسناً أم رديئاً ، يختلف اختلافاً مباشراً مع الوقت المصروف في التفكير . ومن الجهـــة الأخرى ، ينبغي أن لا

يكون القائد جامداً ، بل يجب ان تكون قراراته وخططه قابلة للتكييف حسب المواقف المتغيرة . ومن الضروري ان يكون قاسياً بعض الشيء ، لا سيما مع اولئك الذين تنقصهم الكفاءة او الذين يضيعون وقته عبثاً . ان الناس تتقبل ذلك من القائد إذا كان قاسياً مع نفسه أيضاً . ثم يجب ان يكون القائد شديد المثابرة – وربما كان من الأفضل ان أقول « صلباً » . فبعد ان يقرر سياسته وخطته يجب ان لا يحيده عن هدفه ضعاف القلوب من اتباعه . وانه ليحسن صنعاً لو أبعد هؤلاء حالما يكشف حقيقتهم . فهناك رجال دأبهم التذمر ، لا من صغر أنفسهم فحسب بل ومن كبر الناس الآخرين . ان هؤلاء يعجزون عن محاولة تحسين مراكزهم إلا بشيء واحد ألا وهو إعاقة رفاقهم الذين هم أوفر حظاً منهم – انهم يستهدفون الهدم بدل البناء . هذا وسيجد معظم القادة أن الاعمال التي يقتضي القيام بها كثيرة وان الوقت المتيسر لانجازها ضيق . ان ذلك هو ما اختبرته في حياتي العسكرية ، والحل لهذه المشكلة هو ان لا يقلق القائد . وكل ما يجب ان يفعله هو التأمل والتفكير الهادىء في جميع وجوه المشكلة ، ثم اتخاذ القرار – ومن الخطر ان يقلق القائد بعدها .

ان الاعتدال أمر حيوي للقائد–فيجب ان يكون معتدلاً في الطعام والشراب والتدخين ، وفي الفعاليات الاجتماعية . وهو يحتاج الى النوم بانتظام . لقد كانت حياتي عملاً دائباً . فعندما كنت صغيراً كانت هوايتي الخارجية الالعاب . ولما تقدمت في السن انكببت على العمل وعلى المزيد منه يوماً بعد آخر . على انني اتخذت لنفسي قاعدة ثابتة وهي أن أنام مبكراً . وكنت لا أرضى بأن يزعجني أي شخص كان بعد التاسعة والنصف مساءاً ، حتى خلال معركة حامية الوطيس . وتحضرني بهذه المناسبة حادثة وقعت لي في مارس ١٩٤٠؟فقد أيقظني أحد ضباط الاركان في مقر فرقتي في منتصف الليل قائلاً « ان الالمان قد شقوا طريقهم نحو (لوفان) . » فطلبت اليه ان يخبر آمر اللواء المسؤول عن ذلك القطاع بأن يطردهم . ثم أمرته بأن لا يزعجني بعد ذلك وعدت الى النوم ثانية .

ان الجنرال ديغول يأوي الى شقته الخـاصة في قصر الأليزة في باريس في الساعة التاسعة مساءاً ، ولا يسمح لأحد بعدها بإزعاجه ـ لأنه ينشغل بالتفكير. وهو يعلم حق العلم ان القائد يجب ان يفهم الموقف أولاً ثم يتخذ قراره ، وأخيراً يصدر أوامره لإجراء ما يلزم تنفيذاً لقراره . ولا سبيل الى العمل الصحيح إلا إذا استطاع القائد ان يزن في فكره العوامل المختلفـة التي تؤثر في المشكلة التي يواجهها . وذلك أمر يتطلب تفكيراً هادئاً . ان هذا شبيه بما يفعله الطبيب – فهو يشخص المرض أولاً ، ثم يقرر نوع العلاج .

ومن العادات الحسنة القراءة في الفراش قبل النوم . ويجب ان لا يكون للكتاب علاقة بعمل المرء او مهنته . ان الانجيل كتاب ملائم جداً للقراءة قبل النوم ، كذلك الشعر أو رواية جيدة .

ومن الطريف ان نلاحظ مدى المساعدة التي يمكن ان يحصل عليها الرجال العظام من زوجاتهم . وأظن أن جميع القادة الذين ذكرتهم في كتابي هـذا والذين لا زالوا أحيـاء يرزقون ، يعترفون بهذه الحقيقـة – ومنهم ماوتسي تونغ الذي يعتقد بأهمية ذلك . وهنـاك حالات انتهى فيهـا زواج الرجال السياسيين بالفشل . ويبـدو ان هؤلاء لم يدركوا ضرورة تكريس عدد من ساعات النهار الى زوجاتهم وعوائلهم – مهما كانت أعمالهم كثيرة . وعندمـا تكون الزوجة جميلة جداً وشابة قد تقضي الضرورة زيادة عدد هذه الساعات – وإلا فقد يحدث ما لا تحمد عقباه . وفي وسعي ان أقدم أمثلة عديدة لذلك !.

هذا وعندما كتبت مقدمة هذا الكتاب ، قلت ان غرضي هو ان أحـاول كشف « الشيء » الذي يجعل الإنسان قـادراً على ممارسة وظيفتـه على رأس الامور لخير رفاقه . ويتضح للقارىء مما سبق ان كتبته ان هـذا « الشيء » هو وجود بعض الصفات الضرورية لدى القائد وأهمهـا : اليقين العميق والقرار والشجاعة والصلابة والاخلاص والمقدرة على السيطرة على الحوادث التي يجابهها والفهم العميق للطبيعة البشرية بكل ما تنطوي عليه من معانٍ .

ويجب ان يكون القائد قادراً على فهم المواقف بوضوح تام عند ظهورها له ،

وصريحاً في بيان ما يجب عمله ، وان يجتنب التعقدات العاطفيـة . وإذا شك القائد في إخلاص أي رجل وفي أمانته وصفاته الاخلاقية الأخرى فهناك طريقة جيدة تساعده في اختبار ذلك وهي أن يسأل نفسه : « هل أستطيع الذهـاب مع هذا الرجل الى الغابة ؟ وإني أعتقد ان الرجال الأربعة الذين ذكرتهم في هذا الباب كزعماء وطنيين عظـام – وهم ديغول وتيتو ونهرو وماوتسي تونغ – يملكون هـذه الصفات . وتطبيقاً للاختبار النهائي الذي سبق ان اقترحتـه استطيع ان أذهب مع أي منهم الى الغابة بمحض إرادتي وان أعتمد عليه .

وأخيراً إذا طلب مني ان ألخص قضية القياده كلها بجملة واحدة فسأقول :

« انها الرئاسة الحقة أو الزعامة بأجلى معانيها ، مع المقدرة على القرار وفهم الطبيعـة البشرية . والواقع ان القـائد يجب ان يفهم أولاً ثم يقرر ويعمل . ويجب ان يكون واضح اللفظ ، وقـادراً على التعبير عن نفسه بلغة واضحـة وبسيطة .

وقد يتهمني البعض اني كررت في هـذا الكتاب أموراً كثيرة . وهـذا صحيح . لقد قال ونستون تشرشل ذات مرة انـه لا ضير في ان تقول الشيء نفسه مراراً وتكراراً على ان يكون صحيحـاً ، وسمى ذلـك بـ « الترديد المستدام » (Constant Raiteration) وهذا يذكرني بحكايـة حكيت عن واعظ زنجي اهتدى الى الدين المسيحي فصار يهدي كثيرين آخرين من أبنـاء جنسه الى الدين . فقد سأل هذا الواعظ عن سر نجاحه فأجاب :

« إني أقول لهم البشائر الحسنة ، ثم أقول لهم ما سبق ان قلتـه . واسألهم ذلك إذا كان في وسعهم ان يخبروني بمـا قلته لهم . ثم أقوله لهـم مرة أخرى لأتأكد أنهم عرفوا ما قلته لهم » . هذه هي خاتمـة أفكاري واستنتاجاتي عن موضوع القيادة . وقد بقي الآن باب آخر – وهذه الخاتمة .

الباب السادس عشر

الخاتمة - في حديقتي

لقد انتهى الكتاب وانتهت بذلك آرائي حول القيادة. سيكون ثمة ضرورة طبعاً ، لقراءة الأبواب قراءة دقيقة لازالة الأخطاء والتكرار . ولكن المهمة قد انتهت على العموم، وأفكاري أصبحت على الورق . بقي هذا الباب الأخير وهو الخاتمة . وقد ذهبت الى الحديقة بعد ظهر أحد أيام الصيف الحارة للتفكير في كيفية كتابته - آملاً أن يرشدني التأمل الهادىء إلى الطريقة ، كما حدث ذلك في كثير من الأحيان في الماضي .

انني أحب حديقتي وهي من صنعي تماماً. وقد تحوّلت من حقلٍ رطب مملوء بالأعشاب الضارة إلى شكلها الحالي الجميل - بنباتها ذات الأوراق المنظمة الوانها باعتناء وبشجيراتها المزهرة وبنهرها وجدول الطاحونة .

كانت الشمس بعد الظهر حارة ، وكان يصعب على المرء أن لا ينام . وقد فكرت في أبي وفي النصائح الحكيمة التي كان يقدّمها لي ، فاشتقت إلى نصيحته الآن حول طريقة كتابة خاتمة الكتاب . وفجأة رأيته . أجل كان هو بعينه - واقفاً بين قواعد بنات الاسبيريا الحمراء والبيضاء وعلى ضفة جدول الطاحونة . لقد وهبت أبي عندما كنت صبياً كل مودتي وحبي . وإذا كان ثمة قديس على

هذه الأرض فهو أبي . وها هو ذا الآن في حديقتي . نهضت واجتزت الساحة الخضراء متجهـــاً نحوه وأنا أتلهّف إلى الكلام معه . ولكن هل سيكلّمني يا ترى ؟ .

كانت تبدو على محيّاه نظرة السعادة الكبرى ، وكان يرتدي الملابس التي اعتاد أن يلبسها عندما كان يتجوّل بين التلال في (دونغال) (Donegal)، أو يصيد السمك في الجداول المنسابة بين الجبال – سترة وسروال (تورفولك) رمادية ، حاملاً عــكاز راعي الكنيسة أو شصاً . فرآني وابتسم ، ولم أقترب منه أكثر إذ كانت الأرض التي يقف عليها مقدّسة ثم قال :

« لديك حديقة جميلة . وهي تختلف عن حديقة بيتنا الايرلندي القـــديم ، فهي أحسن منها وأنظم . لقد كنت دوماً نظيفاً ومرتباً في عاداتك وتفكيرك. هذا ما ساعدك في حياتك العسكرية . انني لاحظت حياتك جندياً . ورجوت ذات مرة أن تلتحق بي في الكنيسة ، لكنني لست آسفاً لانك لم تفعل ذلك . فقد أحسنت اختيار مهنتك ، وبلغت الذروة فيها . فهل كنت سعيداً دائماً ؟

« أجل يا أبتي ، كنت سعيداً جداً . لكن السعادة لم تكن سهلة المنـــال أحياناً . لقد تعلمت ان من يبلغ درجة كبيرة من الشهرة يسيء الناس فهمه في الغالب . لكنه يجب أن يتحمّل ذلك حتى عندما يتعذّر عليه التحمّل . لقـد حاولت أن أقوم بواجبي ، ولم أخشَ في قول الحق أبداً ، وبقيت صامداً على آرائي . لكن ذلك قد سبّب لي مشكلات في بعض الأحيان » .

« أعرف يا ولدي ، لقد مرت لحظات كنت أتساءل فيها هل ستتمكن من التغلب على المصاعب التي تكتنفك ؟ . لكنك قد تمكنت مستعيناً بإيمانـــك المسيحي . انني فخور بك ، وأنت كما أعلم فخور بابنـــك ، وذلك من دواعي سروري العظيم . وآمل أن يحافظ أحفادك بدورهم على تقاليد العائلة في الخدمة وأداء الواجب ».

وبدأ الرجـــل الشيخ وكأنه على وشك أن يذهب . فخطوت خطوة نحوه وقلت :

« أبتي ، إبقَ معي برهة من الزمن وزوّدني ببعض الحكم من عالمك . لكي تبعث في نفسي القوة في السنين الباقيات من حياتي » .

فالتفت نحوي وقال :

« يا بني . لا يجوز لي أن أبقى طويلاً . وأود أن أقول لك هذا : يتحدث الناس كثيراً في هذه الدنيا كلها عن الحرية . ولكن هناك حرية إيجابية واحدة حرية الاختيار بين الخير والشر . وان أفضل تعريف لهذه الكلمة التي قلما فهمها الناس هي :

« ان الحرية التامة هي في خدمة الرب » .

فها هو ذا يعيش بعد الفي سنة ، ولقد حاول الرومان عبر سنين طوال ، أن يزيلوا ذكراه ، لكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فهو لا يمكن أن يقتل . أما أنا فعندما كنت معك ، كنت أشعر وكأنني سفينة ضعيفة بين يديه القويتين » .

عندما أعاين عالمكم اليوم ، ينتابني القلق أحياناً على الجيل الجديد . عندهم مغريات لم نحصل عليها أنا وأنت . ويبدو انهم ينضجون مبكراً . ولكن ذلك يجري في عالمٍ غير مأمون. وهم يميلون الى أن يجعلوا للأمور المادية قيمة كبيرة وأن يهملوا القيم الروحية ، فينبغي أن يتذكروا دوماً ان الحياة ثقافة ، خاصة وانها قد تكون خدمة للآخرين . والحياة عند هؤلاء أيضاً ، كفاح تستمر فيه المشكلات الكبرى والتجارب الكبرى والمغريات الكبرى . وعلى الشباب أن يتسلّح جيداً بالشعور الروحي إذا أراد أن لا ينحرف، أو أراد أن لا يجرفه التيار » .

لقد كنت أراقبك ذات مرة وأنت تقول : ان الحرية الحقيقية هي أن يكون لديك الخيار في أن تفعل ما يجب أن تفعله لا ما تريد أن تفعله . ان هذه هي الحقيقة بعينها . وان المشكلة الكبرى التي تواجه أي ولدٍ هي التوفيق بين ما يريد أن يفعله وبين ما يوحي اليه ضميره أن يفعله . وهو حرّ في اختياره بين الاثنين . فهو وحده الذي يقرّر مصيره . ولكنه يحتاج الى معونة . وفي وسعه

أن يستمدها من صلاته اليومية ومن الآخرين أمثالك . وانه من دواعي سروري ان أراك تقضي وقتاً طويلا من حياتك في مساعدة الشباب . أرجو أن تستمر على مساعدتهم ، فهم بحاجة إلى ذلك في عالمكم اليوم » .

ووقف الرجل الشيخ برهة ثم التفت الى البيت وقال :

« لديك بيت جميل ، هل في وسعي أن أدخل فيه لأرى صور العائلة ؟ . لا بدّ لي أن أتركك الآن . وسأذهب وحيداً وليباركك الله يا ولدي » .

وشعرت برغبة جامحة لأسأله سؤالاً آخر فقلت :

« أبتي ، هل سمحت لي بسؤال أخير – أين هي زوجتي (بيتي) (Betty) . أهي في الجنة ؟ فابتسم ومشى على الممر مجتازاً شجيرات (اللاوندا) وبرج الحمام ، قاصداً الباب الأمامي واختفى عن نظري خلف شجرة التفاح .

ثم بدا لي وكأن شيئاً يحدث في الحديقة . فتمنيت أن أرى ما هو ذلك الشيء . وكان هناك همس خفيف مصحوب بحركة من الشجيرات . انه لا يشبه همس الأوراق عند هبوب الريح – بل هو أشبه بهمس البشر ، وكأن الشجيرات تغمغم في لغتها الخاصة . وخيل إليّ انني أرى أشباح أناس – اشباحاً كالظلال لم أتمكّن من رؤيتها واضحة .

هل كانت زوجتي ، حبيبتي (بيتي) في الحديقة ؟ أسرعت الخطى في الممرات العشبية بين أحواض الورد وعلى ضفة النهر وعبر الحديقة . ولكنني لم أتمكّن من رؤيتها ، فعرفت انني يجب أن أنتظر فرصة أخرى .

ثم غمر المكان سكون مطبق – سكون يشعر به الانسان ، لكنه لم يكن ثمة ما أراه غير أحواض الزهر والشجيرات . وتولاني الأسى في بادىء الأمر . لكنني سرعان ما أصبحت قانعاً ، لانني علمت بأن الأمر بالنسبة لنا ، هنا في هذه الحياة ، يجب بل ينبغي أن تكون حياة ايمان – يصبحها من حين لآخر ، رسالة مشجّعة ككلمة أو حلم أو نظرة أو حادثة .

واستيقظت ، فإذا بي أحلم ، لكنني كنت سعيداً . وأملت أن يهبني حلم

كهذا مفعم بذكريات أبي الذي كنت أبجّله الى درجة كبيرة في حيــاته ، قوة للسنين الباقيات من عمري .

وذهبت إلى داخـل البيت حيث غرفة الدراسة ، فدوّنت ذلك كله – كخاتمة للكتاب .

فهرست